وزارة التربية والتعليم
بالاشتراك مع
كلية التربية
جامعة عين شمس
برنامج
تأهيل معلمي المرحلة الابتدائية
للمستوى الجامعي

رقم المقرر (٢١١ ج)

تاريخ العرب الحديث والمعاصر

تأليف

دكتور عبد العزيز نوار
استاذ التاريخ الحديث والمعاصر
وكيل كلية الآداب جامعة عين شمس

دكتور رأفت غنيمي الشيخ
استاذ التاريخ الحديث والمعاصر
وكيل كلية الآداب جامعة الزقازيق

طبعة ١٩٩٦ / ١٩٩٧

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــــة

يعتبر التاريخ الحديث والمعاصر مجالا خصبا للدراسات العلمية بما يشتمل عليه من حركات ديناميكية حددت مسار الشعوب العربية على الارض العربية . واذا كان الاسلام قد اوجد منذ القرن السابع الميلادى حركة ديناميكية تأثير ثقاف كبير ودائم فى كل بلد وصل اليه مستندا الى الدين الاسلامى كعقيدة ، واللغة العربية كوسيلة لنشر هذه العقيدة وحفظها ، فأن الشعوب العربية التى حملت الفكرة العربية مع العقيدة الاسلامية قد حافظت على جوهر الفكرة واصل العقيدة .

واذا كان بعض المؤرخين يعتبرون بداية التاريخ العربى الحديث مع قدوم الاتراك العثمانيين الى الاقطار العربية فاتحين ، بينما البعض الاخر يعتبر هذه البداية تأتى مع أوائل القرن التاسع عشر حينما اسس محمد على دولة كبرى فى المنطقة العربية ، والبعض الثالث يرى ان بدايته تأتى فى منتصف القرن التاسع عشر .

واذا كان بعض المؤرخين يعتبرون نهاية التاريخ العربى الحديث عند نهاية القرن التاسع عشر والبعض الاخر يعتبر بداية الحرب العالمية الاولى نهاية منطقية للتاريخ العربى الحديث ، والبعض الثالث يعتبر بداية الحرب العلمية الثانية هى النهاية المنطقية للتاريخ العربى الحديث .

واذا كان لكل فريق رايه وعنده من الادلة ماتؤيد هذا الراى او ذلك ، فأن الرأى عندنا هو ان التاريخ العربى الحديث يبدأ منذ دخول العثمانيين الى الارض العربية وينتهى مع نهاية الحرب العالمية الاولى ليبداء التاريخ المعاصر ، ومن هذا المنطلق تقوم دراستنا للتاريخ العربى الحديث والمعاصر على النحو التالى :

اولا : دراسة عامة عن الحكم العثمانى للاقطار العربيـــة .

ثانيا : دراسة مثلية لحركات العصابات المحلية فى بعض الاقطار العربية

ثالثا : دراسة عن الصراع بين الشعوب العربية والاطماع الاستعمارية .

رابعا : قضايا الوطن العربى المعاصـــر .

واننا اذانسوق هذه الدراسة المتكاملة نأمل ان يكون الله قد وفقنا فى عرضها العرض السليم راجين من الله دوام التوفيق .

المؤلفان

الباب الاول

الوطن العربى تحت الحكم العثمانى

الفصل الأول : الزحف العثمانى نحو الوطن العربى

الفصل الثانــى : نظام الحكم العثمانى فى الوطن العربى

الفصـــــل الأول
الزحـــف العثمـاني نحـــو الوطـن العربى

- موقع الوطن العربى.
- الوطن العربى قبيل قدوم العثمانيين.
- العلاقات العربية الأوربية قدوم العثمانيين.
- اسباب الزحف العثمانى نحو الوطن العربى .

موقع الوطن العربى

الوطن العربى يشمل من الناحية الجغرافية تلك الارض الممتدة من ايران شرقا الى المحيط الاطلسى غربا ، ومن البحر المتوسط شمالا الى المحيط الهندى والبحر العربى ووسط افريقيا جنوبا ، وهى مساحة كبيرة تقارب مساحة القارة الاوربية ولو اجتمعت الدول العربية كلها فى دولة واحدة لكانت الدول الثانية فى العالم من حيث الامتداد بعد الاتحاد السوفيتى .

ومن الامور الجديرة بالملاحظة بالنسبة لمساحة الوطن العربى وامتدادة ان هذه المساحة تمثل رقعة واحدة متصلة لاتكاد تفصل بينها فواصل طبيعية فلا يوجد داخلها بحار واسعة او صحروات شاسعة او جبال مرتفعة ، كما ان حدود الوطن العربى مع غيرة من الاقطار غير العربية حدود طبيعية سواء فى المشرق او المغرب ، ففى المشرق البحر المتوسط والجبال من الشمال الغربى والمحيط الهندى وبحر العرب وخليج عمان من الجنوب والجنوب الشرقى ، وفى المغرب البحر المتوسط من الشمال والصحراء الكبرى وخط تقسيم المياة بين نهرى النيل والكنغو وهضبة البحيرات وهضبة الحبشة من الجنوب .

وتقع الارض العربية مناخيا بين المنطقة المعتدلة والمنطقة المدارية وتمتد من خط عرض ٤ درجة الى خط عرض ٣٧ درجة شمالا ، وهذا الامتداد ليس عبيا اوله اثار سلبية على العكس من ذلك فأنه امتياز للوطن العربى واثاره إيجابية على نشاط السكان البشرى وتعددت الغلات الزراعية بما يساعد على التكامل بين اقطار الوطن العربى ويدفعها الى الارتباط الوحدة لمصلحة كل الاقطار . وأما سكان الوطن العربى البالغ عددهم اكثر من مائة مليون نسمة فأنهم يتميزون بتجانس عنصرى اى انهم ينتمون الى جنس واحد ينتمى الى المجموعة الجنسية المعروفة بجنس البحر المتوسط ثلثهم تقريبا فى قارة اسيا والباقى فى قارة افريقيا ، ولايقلل من وحدة الجنس فى اطار الوطن العربى وجود قلة زنجية جنوب السودان او كردية بشمال العراق .

وقد حاول المستعمرون الاوربيون ان يكرسوا فرقة وانقسام العرب وبعدهم عن بعضهم البعض بتزويج الإدعاءات غير الحقيقية والقائلة بوجود اختلاف جنسى بين العرب ، بأن اهل الشام فينقيون واهل العراق اشوربون والمصريون فراعنة والسودانيون افارقة ، واهل الشمال افريقيا بربر وهذه ادعاءات معرضة لانه ثابت علميا ان هذه الصفات التى الصقت بالعرب هنا وهناك فى اقطار الوطن العربى إنما هى صفات ثقافية وليست صفات

جنسية كما انه من الثابت علميا كذلك ان العرب يرجعون الى اصل واحد .
ولعل الوحدة الثقافية التى تظل اقطار الوطن العربى من اهم علاماتة المميزة ذلك ان اللغة العربية هى لغة كل العرب فى الوطن العربى ، وهى اللغة السائدة فى مشرقة ومغربه ولايقلل من سيادتها وجود لهجات محلية مشتقة من اللغة العربية ذاتها ، او وجود لغة خاصة بالاقلية الكردية الموجودة فى شمال العراق وسوريا واللغة البربرية فى المغرب العربى التى تتحدث بها الاقلية البربرية فى المغرب ، واللغة الخاصة بالاقلية الزنجية فى جنوب السودان ، علما بأن الاكراد والبربر يتكلمون اللغة العربية . .

أما الدين الاسلامى الذى هو دين غالبية العرب فى الوطن العربى الذين تصل نسبتهم الى اكثر من ٩٠٪ من عدد سكان الوطن العربى ، فأنه يعتبر من عوامل الوحدة الثقافية بين اقطار الوطن العربى ، ورغم وجود اقلية مسيحية واقلية ضئيلة يهودية فان ارتباط المسيحية والاسلام ساعد على الوحدة العربية بين العرب فى الوطن العربى الواحد .

ويشمل الوطن العربى جناحين احدهما فى اسيا والثانى فى افريقيا ، فأما الجناح الاسيوى فيضم ما عرف بمنطقة الهلال الخصيب ، ومنطقة المربع العربى ، والهلال الخصيب عبارة عن قوس او هلال يبدأ طرفه الشرقى فى حوض دجلة والفرات اى العراق ـ النصف الشرقى من الهلال ـ ثم ينحرف الى الغرب ليضم الية سوريا ولبنان ، ثم ينحدر الى الجنوب ليشمل فلسطين . وقد بقى النصف الغربى من الهلال قرونا عديدة يعرف باسم سوريا او بلاد الشام الى ان ازيلت وحدته بعد الحرب العالمية الاولى(١)

ووحدات الهلال الخصيب السياسية هى : العراق ، سوريا ، لبنان ، ، المملكة الاردنية الهاشمية(شرق الاردن) ، وفلسطين واما المربع العربى فيشمل شبة الجزيرة العربية ويضم الوحدات السياسية التالية : المملكة العربية السعودية والجمهورية العربية اليمنية ، وجمهورية اليمن الديمقراطية ، ودولة الكويت ، ودولة قطر ، ودولة البحرين ، ودولة الامارات العربية المتحدة(او السواحل العمانى المهادن) ثم سلطنة عمان .

ويضم الجناح الافريقى من الوطن العربى كل من جمهورية مصر العربية ، وجمهورية السودان الديمقراطية والجمهورية العربية اللبيية ، والجمهورية التونسية والجمهورية الجزائرية الديمقراطية والمملكة المغربية ، والجمهورية الموريتانية الإسلامية ، وجمهورية الصومال .

---

(١) د . محمد أنيس : الشرق العربى فى التاريخ الحديث والمعاصر ، ص ح

وذا كانت صورة الوطن العربى الراهنة بهذا التفتت والانقسام الذى كان نتيجة لجهود وسياسة الاستعمار ، فقد كان هذا الوطن عند ظهور الاسلام فى شبة الجزيرة العربية وعند تأسيس الدولة العربية الاسلامية قد تأثر فى الفرن السابع الميلادى بحركة الاسلام الديناميكية وبالحركة العربية التى ظهرت بها قوة اللغة العربية التى رافقت الاسلام كدين فى انتشاره السريع ، وقد اثرت الحركتان العربية والاسلامية على المجتمع العربى فى انحاء الوطن العربى من القرن السابع الميلادى حتى الوقت الحاضر ، وظهر تأثيرهما فى جميع مرافق حياة الوطن العربى .

وتعتبر حضارة الوطن العربى الاسلامية العربية خلاصة تفاعلات بين ثقافات واتجاهات واجناس وشعوب مختلفة تألفت وامتزجت فى ظل الخلافة الاسلامية التى ظهرت اولا فى شبة الجزيرة العربية عندما ظهر الاسلام وانتشر فى ايام الخلفاء الراشدين ، ثم فى ظل دمشق عاصمة الامورين ، فبغداد عاصمة العباسين ، ثم فى ظل القاهرة عاصمة اخر خلافة عربية .

وعلى الرغم من انتقال مركز السلطة من مكة والمدينة المنورة الى دمشق فبغداد فالقاهرة ، فقد وجدت وحدة مشتركة بين اقطار الوطن العربى كان اساسها كما ذكرنا وحدة الجنس والارض والثقافة المتمثلة فى اللغة العربية والدين الاسلامى ، وكان قوام الواحدة الثقافية الاسلامية ثلاث هى : -

١ - الوحدة الروحية التى تجمع شعوب المنطقة العربية .

٢ - ارتباط السلطة الدينية بالسلطة الزمنية ، فقد كان الخليفة هو الزعيم السياسى الى جانب كونه الزعيم الدينى للمسلمين .

٣ - شيوع مبادىء الاخاء والمساواة التى تحطم الحواجز بين الناس دون النظر الى الجنس اوللون وهذه المبادىء تستند الى شرائع الدين الاسلامى .

ورغم ان الوطن العربى تعرض لانقسامات داخلية بعد ضعف الخلافة العباسية حتى راينا دويلات إسلامية تقوم هنا وهناك فى انحاء الوطن العربى ولكنها لم تنفصل عن الخلافة الاسلامية ، كما لم يضع حكام هذه الدويلات اية قيود او حواجز تحول دون انتقال المواطن العربى من قطر لاخر او تحول دون اتصال العرب فى المغرب بأخوتهم عرب المشرق ، بل استمر العرب وحدة شعبية وان اختلفت حكوماتهم وتعددت دولهم ، فبلاد العرب لكل العرب .

الوطن العربى قبيل قدوم العثمانيين

وكانت ظروف الوطن العربى فى اوائل القرن السادس عشر الميلادى اى عند زحف العثمانيين نحو الوطن العربى على النحو التالى :

اولا : مصر والشام والحجاز تحت حكم سلاطين المماليك منذ انتهاء الدولة الايوبية ووقوف المماليك ضد الخطر الصليبى فى الشام والخطر المغولى الذى دمر بغداد وقتل سكانها عام ١٢٥٨م - ٦٥٦هـ ، ولكن وحدة الشام ومصر تحت حكم المماليك استمرت بعد هزيمة المغول عام ١٢٦٠م - ٦٥٨هـ فى عين جالوت حتى تم الزحف العثمانى وإحتلال بلاد الشام ومصر .

ثانيا : العراق : بقيت العراق تحت سيطرة المغول منذ عام ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م حتى خضعت لدولة الشاة اسماعيل الصفوى الشيعية التى اسسها فى ايران عام ١٥٠٠م وامتد بها الى العراق عام ١٥٠٨م واخذ يبسط المذهب الشيعى .

ثالثا : **الخليج العربى** : وتتكون اقطارة من مسقط وعمان والبحرين وامارات الساحل المتصالح والكويت ، فقد كانت تسكنها قبائل عربية تعمل بالتجارة واستخراج اللؤلؤ والرعى ، وقد تعرض بعضها للاحتلال من قبل البرتغالين اوائل القرن السادس عشر . مثل البحرين ودولة هرمز التى كانت دولة مزدهرة مقرها على شاطىء الخليج وتضم الجزيرة المواجهة والتى تحمل نفس الاسم ، أما عمان فقد كانت اكثر مناطق الخليج تنظيما سياسيا بسبب وجود إمامة الخوارج الاباضية بجبال عمان بالداخل ، كما كانت اقرب الى المجتمعات الحضرية . وواضح من هذا ان أقطار الخليج العربى كانت تحكمها التنظيمات القبلية حتى اوائل القرن السادس عشر وهو الوقت الذى بدا فيه الزحف العثمانى على اقطار الوطن العربى .

رابعا : اليمن والجنوب العربى : وكان الأئمة الذيديون يحكمون اليمن ويعترفون لدولة المماليك فى مصر بالسيادة عليهم شأنهم وفى شأن اشراف مكة الذين يحكمون الحجاز واما الجنوب العربى - وهى حضر موت وعدن - فكانت تابعة لليمن ولم تنفصل عنها قبل قدوم العثمانيين الى اليمن .

خامسا : نجد الاحياء هذه المنطقة تمثل اكبر قسم من شبه الجزيرة العربية ، وكانت تخضع لتنظيمات قبلية طبقا للقبائل التى تسكن تلك الجهات .

سادسا : السودان : فقد كان انتشار الاسلام فيه ايام حكم المماليك لمصر دافعا لكى تعيش القبائل السودانية فى ظل الولاء المماليك ، ولكن السودان لم يكن موحدا ولم يكن الحكم فيه مركزيا حتى قامت سلطنة الفوج الاسلامية عام ١٥٢٢م وحاولت توحيد وادى النيل فى دولة إسلامية عربية بعد ان تعددت دولة وممتلكاته .

سابعا : ليبيا : كانت ليبيا تعيش فى ظل دويلات صغيرة متعاقبه حتى احتلها الاسبان عام ١٥١٠م ثم اهداها الاسبان عام ١٥٣٥م الى الفرسان القديس يوحنا الذين كانوا يتخذون من جزيرة مالطة مركزا لنشاطهم الصليبى والقرصنة فى الحوض الغربى للبحر المتوسط ، وقد ظل فرسان القديس يوحنا فى ليبيا حتى طردهم منها العثمانيون عام ١٥٥١م .

ثامنا : **تونس** : كانت تحكمها الدولة الحفصية من عام ١٢٢٨م - ١٥٣٤م وقد امتد سلطانها فى بعض فترات التاريخ شرقا الى طرابلس ، وحكمها اكثر من عشرين اميرا من الاسرة الحفصية ، وقد امتدت الدولة الى الاندلس ايضا فى بعض فترات التاريخ

تاسعا : **الجزائر** ، حكمها امر اسرة بنو عبد الوديد الذين اتخذوا من **تلمسان** مركزا لدولتهم فى الجزائر ، وهم من اهل البلاد المتحضرين وبلغ عدد من تولى الحكم منهم عشر مراء ، بين عام ١٢٣٥ - ١٤٠٠م ، حتى سقطت فى يد المسيحيين الاسبان .

عاشرا : **مراكش** : حكمها امراء بنى واطلس ومركزهم فاس من عام ١٤٧٠ - ١٥٥٠م ووقفوا يواجهون المسيحيين الاسبان ، ويواجهون الاسرة الشريفة فى مراكش حتى ظهر الاسطول التركى فى البحر المتوسط امام الشواطىء المغربيــة .

العلاقات العربية الاوربية قبيل قدوم العثمانين

ولنا ان نتسأل عن طبيعة العلاقات العربية الاوربية قبيل زحف العثمانين على اقطار الوطن العربى ؟ ان الاجابة على هذا التساؤل يجب ان تشمل بيان نشاط كل من البندقية وجنوة ، واسبانيا وفرسان القديس يوحنا والبرتغال الى جانب ابراز اثار الغزو الصليبى للاقطار العربية . فيما يتعلق بكل من البندقية وجنوة فقد كانتا حريصتين على إقامة علاقات طيبة وسلمية مع اقطار الوطن العربى فى افريقيا الشمالية وفى اسيا بأعتبار هذه الاقطار تظل على البحر المتوسط وهى طريق التجارة مع الهند ، وكلا البلدين - البندقية وجنوة - تركز نشاطها فى التجارة ، ولذلك نجدهما تتنافسان للفوز بالعلاقات الاقوى والاحسن مع اقطار الوطن العربى وخاصة مصر قلب هذا الوطن وبها اقصر طريق الى الهند .

وفيما يتعلق بأسبانيا فأن هناك تاريخ بعيد منذ الفتح العربى للاندلس واقامة الدولة الاموية هناك ثم الدويلات المنقسمة على نفسها امام تزايد القوى المسيحية واتحادها حتى تم اجلاء اخر وجود إسلامى من اسبانيا عام ١٤٩٢م وعندئذ اتخذت اسبانيا سياسة صليبية انتقاما للمد العربى الاسلامى فى اراضيها وعملت اساطيل الاسبان على مهاجمة السواحل العربية فى شمال افريقيا بل واحتلال بعض هذه الاقطار كما سبق ان ذكرت سبق ان ذكرت ، وقد استمرت العلاقات الاسبانية العربية متوترة وغير طيبة وحتى مجىء العثمانين الى الاقطار العربية وصدامهم مع الاسبان .

وفيما يتصل بفرسان القديس يوحنا ، فقد كانوا بقايا الغزو الصليبى لفلسطين ولما تم طردهم منها انتقلوا الى جزيرة رودس وبقوا بها يهدون اقطار المشرق العربى حتى طردهم الاتراك العثمانيون منا فانتقلوا الى جزيرة مالطة ومنها مارسوا نشاطا صليبيا بالتعرض لسفن وسواحل الاقطار العربية الاسلامية فى شمال افريقيا ووصل الامر الى احتلالهم لطرابلس عام ١٥٣٥م حتى طردهم منها الاتراك العثمانيون عند مجيئهم الى طرابلس عام ١٥٥١م .

وأما ما يتعلق بالبرتغال فكانت تشارك الاسبان عداءهم للعرب المسلمين وتشارك اسبانيا ايضا فى ضرورة اتباع اسلوب صليبى ضد الاقطار العربية والاسلامية ، ومن ثم اتجهت البرتغال الى اعمال الكشف الجغرافى المرتبط بمحاربة المسلمين اينما وجدوا ، فلما نجح البرتغاليون فى الوصول الى مياة الهند اصطدموا بالمسلمين العرب بزعامة سلطنة المماليك فى مصر والشام وكانت الهزيمة للجانب العربى عام ١٥٠٩م امام بومباى فيما عرف بمعركة ديو البحرية ، ومن ثم استولت البرتغال على جزيرة هرمز المتحكمة فى مدخل الخليج العربى ، وجزائر البحرين فى الخليج ، واخذت تهدد وتتعقب سفن العرب والمسلمين والعاملين فى الهند والشرق الأقصى لحرمانهم من ان يكونوا لهم نشاط ينافسهم فى هذه الجهات التى احتكروها لانفسهم .

وفيما يتعلق بأثار الغزو الصليبى فأنه يمكن القول بأنة نظرا لفشل الغزو الصليبى لفلسطين بطرد الصليبين على يد العرب المسلمين ، لم تنته الروح الصليبية الاوربية ضد اقطار الوطن العربى بل يمكن القول ان هذه الروح كانت المحرك للمشروعات الاستعمارية الاوربية فى اقطار الوطن العربى لافى القرن التاسع عشر فقط بل قبل ذلك وبعد ذلك والى لان باعتبار ان الحركة الصليبية هى فى واقع الامر حركة استعمارية اتخذت من الدين ستارا لتحقيق اهدافها الاستغلالية .

اسباب الزحف العثمانى نحو الوطن العربى

ولنا ان نتسأل ايضا عن حقيقة الزحف العثمانى واسبابه نحو اقطار الوطن العربى ؟ وللاجابة على هذا التساؤل نقول ان ابناء الدولة العثمانية الفتية كان اوربيا حيث انطلقت من شبه جزيرة اسيا الصغرى وانقضت على الدولة البيزنطية الهزمة المتاخمة لها فى البلقان . واخذت تهزمها فى كل الميادين حتى فتحت القسطنطينية واستولت عليها واكتسحت شبه جزيرة البلقان ولم يتوقف العثمانيون فى زحفهم الابعد ان وصلوا الى ابواب فينا عاصمة النمسا وكانت اقطار الوطن العربى والاسلامى تنظر الى انتصارات العثمانين وفتوحاتهم على حساب الدولة البيزنطية نظرة ملؤها الاحترام والحماس والتأييد فى الوقت الذى جعلت هذه الانتصارات العثمانين ينظرون الى انفسهم نظرة حماة الدين الاسلامى والدول الاسلامية .

ولكن الدولة العثمانية بعد ان زادت فى التوسع غربا توقف الزحف اوكاد وفى مقابل ذلك وجدناها تتجة شرقا وتزحف نحو اقطار الوطن العربى لتستولى عليها . فما الذى دفع الدولة العثمانية الى الاستيلاء على الاقطار العربية ؟

● - هل ان الدولة العثمانية قد وصلت الى درجة التشبع فتوحاتها فى اوربا ولم يعد امامها فى نهمها للفتوحات سوى اقطار الوطن العربى ؟ اوبعبارة اخرى ان الدولة العثمانية قد وصلت الى اقصى مدى فى الغرب يمكن ان تصل الية ولايمكنها تجاوز هذا المدى فاذا ارادت التوسع فليس امامها الا الشرق ؟

● - او هل كان السبب هو رغبة الدولة العثمانية السنية المذهب فى الوقوف امام خطر الصفوين الشيعة فى ايران الراغبين فى السيطرة على العالم الاسلامى ؟

● - اوهل كان الدافع هو اتجاة الدولة العثمانية الفتية والقوية للتصدى لاطماع البرتغال فى البحر الاحمر والخليج العربى ومداخلها وايقاف التهديدات والاخطار البرتغالية الموجهة ضد الاقطار العربية والاسلامية ، وذلك بعد ان فشلت دولة المماليك فى مصر والشام فى القضاء على التهديدات والاخطار البرتغالية ؟

● - اوهل كان الدافع هو رغبة العثمانيين فى شن حملات لتأديب الاسبان وفرسان القديس . يوحنا فى البحر المتوسط والذين يهددون نشاط الاسطول العثمانى فى هذا البحر كما يهددون امن وسلامة الاقطار العربية الاسلامية المطلة على هذا البحر وخاصة فى شمال افريقيا ؟ اوهل كان الدافع لهذا الاتجاة العثمانى هو الاطماع لدى سلاطين ال عثمان فى تكوين امبراطورية مترامية الاطراف حول البحر المتوسط تجعل من هذا البحر بحيرة عثمانية ؟

وهذه الدوافع على كثرتها هى فى واقع الامر من استنتاجات المؤرخين ، ومن ثم تعددت ، ولهذا وجب علينا ان نناقشها قبل ان نسجل راينا حول الدافع الذى جعل العثمانيين يزحفون نحو الاقطار العربية . . .

بالنسبة للدافع الاول فنحن لانستطيع أن نغفل الفتوحات العثمانية استمرت فى اوربا فى عهد السلطان سليمان بن السلطان سليم حتى وصلت الى اسوار فيينا عام ١٥٢٩ م الا اننا فى نفس الوقت لايمكن ان نغفل ان الدولة العثمانية وعاصمتها الاستانة لم يكن فى مقدورها ان تتوغل اكثر من هذا . فلكل دولة مدى معين فى التوسع ودولة مركزها الاستانة من المعقول ان يقف مداها عن المجر (١) وفيما يتصل بالدافع الثانى الذى يرجع اتجاه العثمانيين نحو الشرق الى التصدى لاطماع الصفويين الشيعة ، فان المؤرخ البريطانى ارنولد توينبى Toynbce على راس المؤرخين القائلين به ، ولايقلل من هذا الرأى كون السلطان سليم عند انتصاره على الشاه اسماعيل الصفوى فى موقعة جالديران عام ١٥١٤ دخوله عاصمة الدولة الصفوية تبريز واستيلائه على مناطق العراق الشمالية ، انه لم يشأ ان يستمر فى زحفه داخل ايران وعاد الى عاصمة ملكه لان اختلاف المذاهب بين العثمانيين السنيين والايرانيين الشيعة جعل العثمانيين لا يرحبون بالسيطرة على إيران خوفا من عدم استتباب الأمور لهم فيها ولكن لماذا استولت الدولة العثمانية على أقطار سنية المذهب مثل دولة المماليك والشام والحجاز ، واقطار شمال افريقيا اذا كان الهدف هو التصدى للخطر الشيعى الفارسى ؟

وفيما يتعلق بالدافعين الثالث والرابع والخاصين برغبة العثمانيين فى الوقوف امام الخطر الاستعمارى الاوربى من ناحية البرتغال والاسبان وفرسان القديس يوحنا فاننا نعتبر هذا الدافع نتيجة لاتجاه العثمانيين نحو اقطار الوطن العربى وإن كنا يجب ان نذكر ان العثمانيين هم الذين طردوا فرسان القديس يوحنا من جزيرة رودس وساقوهم امامهم حتى استقروا فى جزيرة مالطة .

---

(١) د . محمد انيس : الدولة العثمانية والشرق العربى ص١٠٠

(٢) ساطع الحصرى : البلاد العربية والدولة العثمانية من ص ١٣:ص ٤١ .

أما بالنسبة للدافع الاخير والخاص برغبة سلاطين ال عثمان فى تكوين امبرطورية مترامية الاطراف ، فانه رغم انه من المحتمل ان يكون السلطان سليم قد تطلع الى ان نضم الى ملكه الاراضى المقدسة فى الحجاز ، الا ان فكرة تضم الشام ومصر ثم بقية البلاد العربية لم تكن فى ذهنه وفى مخططه ولكن الظروف هى التى ادت الى حدوث هذا الضم فقد قال السلطان سليم للسلطان طومانباى بعد انكسار الاخير ووقوعه فى قبضة الاول ما نصه : والله ما كان قصدى اذيتك ، ونويت الرجوع من حلب ، ولو اطعتنى من الاول وجعلت السكة والخطبة باسمى ماجئت لك ولادست ارضك .(١)

ولكن الهزائم التى حاقت بسلاطين المماليك اطمعت السلطان سليم فى احتلال ممتلكاتهم فى الشام ومصر والحجاز ، ومن ثم اغرته ، انتصاراته ليواصل فتح بقية الاقطار العربية . كما ان بناء جناح شرقى للامبراطورية ـ كما يقول المؤرخون العسكريون ضرورى ليوازن الجناح الغربى فى البلقان من اجل حماية قلب الامبراطورية العثمانية .

والراى عندى هو انه لايمنع من ان تكون معظم هذه الدوافع او كلها مسئولية مشتركة عن اتجاه الدوله العثمانية الى الشرق والتوسع بالاستيلاء على الاقطار العربية ، واذا كانت ظروف الدولة العثمانية القوية قد هيأت التوسع ، فأن ظروف الوطن العربى قد سهلت على الدولة العثمانية تحقيق اتجاهها للتوسع .

كانت كل من العراق وايران قد عانت من الدمار والفوضى نتيجة الاغارات المغولية المدمرة الشيء الكثير حتى استطاعت الدولة الصفوية فى اوائل القرن السادس عشر تكوين وحدة سياسية من العراق وايران على اساس دينى شيعى يعادى المذهب السنى الذى تدين به الدولة العثمانية الفتية بانتصاراتها على الدوله الرومانية الشرقية(البزنطية) فى الغرب .

واذا كانت مصر الشام قد نجتا من الاغارات المغولية المخربة بواسطة سلاطين المماليك الا ان الدولة المماليك رغم ضخامتها ـ حيث كان لها السيادة على الحجاز الى جانب مصر والشام ـ كانت فى اوائل القرن السادس عشر قد وصلت الى حالة من الاعياء الشديد بسبب تحول تجارة الهند والشرق الاقصى عن طريق مصر والبحر الاحمر الى طريق رأس الرجاء الصالح . وبسبب حروب المماليك المستمرة وبصفة خاصة ضد الزحف البرتغالى على منافذ البحار العربية الجنوبية وليس ادل على ضعف المماليك من هزيمتهم امام البرتغالين فى مياه الهند فيما عرف بمعركة ديو البحرية علم ١٥٠٩م ولذلك كانت مقاومتهم للزحف العثمانى نحو الشام ومصر مقاومة غير عنيدة بل كانت قوتهم مفككة .

(١) ابن زنبل احمد الرمال : اخرة المماليك فى مصر ص ١٤ ص ١٣٦ .

اما اقطار الوطن العربي في شمال افريقيا ليبيا وتونس والجزائر فقد دخلت في حظيرة الدولة العثمانية دون مقاومة من سكانها بل برغبة من بعض اهلها للتخلص من تهديدات الدولة الاسبانية المسيحية وتهديدات فرسان القديس يوحنا القراصنة بل برغبة من مواطني هذه الاقطار العربية في ان تقضي الدولة العثمانية الاسلامية الفتية على السيطرة المسيحية في مياه هذه الاقطار العربية وبعض شواطئها . وقد سارعت الدولة العثمانية الى ابسط سيطرتها على اقطار الوطن العربي في المغرب حتى تحكم الحلقة حول البحر المتوسط وتكتمل السلسلة العربية من الاقطار الداخلة في حوزة السلطنة العثمانية .

حدث إذان زحف واستيلاء عثماني على الاقطار العربية نتيجة توفر عوامل او ظروف هيأت لهذا الزحف والاستيلاء سواء في داخل الدولة العثمانية او في اقطار الوطن العربي وقد استمر هذا الاستيلاء طوال أربعة قرون تعرضت فيها الاقطار العربية لتطورات وعوامل داخلية وخارجية كقيام حركات استقلالية في انحاء الوطن العربي ، وظهور حركات سلفية اصطدام بعضها بالدولة العثمانية ، الى جانب الثورات المحلية ضد الحكم العثماني ، وبالاضافة الى الزحف الاستعماري الاوربي على اجزاء من الوطن العربي التي هي ولايات عثمانية .

وأما المدة التي بقيت فيها اقطار الوطن العربي خاضعة للحكم العثماني ، فأنه رغم ان السيطرة العثمانية استمرت لمدة اربعة قرون كما ذكرت الا ان استمرار هذه السيطرة طوال هذه القرون الاربعة حدثت في أقطار دون اخرى واعني في الاقطار التي لم تعرض لغزوات استعمارية اوربية والتي بقيت تحت السيطرة العثمانية حتى قيام الحرب العالمية الاولى .

وتفصيل ذلك ان الشام بأقسامه الاربعة المعروفة حاليا واعني سوريا ولبنان وفلسطين وشرقي الاردن ، والعراق والحجاز والاحساء في شبة الجزيرة العربية بقيت تحت السيطرة العثمانية طوال القرون الاربعة من اوائل القرن السادس عشر حتى اوائل القرن العشرين . واما مصر فقد بقيت تحت السيطرة العثمانية مع مشاركة مملوكية في الحكم منذ عام ١٥١٧م حتى جاءت الحملة الفرنسية على مصر وبقيت بها ثلاث سنوات من ١٧٩٨ ـ ١٨٠١م حيث فصلت مصر عن الدولة العثمانية ، ثم عادت مصر ولاية عثمانية وإن ظهر بها محمد علي عام ١٨٠٥م في حركة قصد بها الاستقلال الذاتي مع التبعية للدولة العثمانية ، واستمرت اسرة محمد علي تحكم مصر حتى حدث الاحتلال البريطاني لمصر عام ١٨٨٢م لكنه لم يغير من علاقة مصر بتركيا حتى عام ١٩١٤م عندما اعلنت انجلترة حمايتها على مصر وفصلها عن تركيا تأديبا لتركيا بسبب انضمامها الى المانيا ضد اجلترة وخلفائها في الحرب العالمية الاولى وما جرى على مصر انسحب على

السودان الذى دخل تحت سيادة الدولة العثمانية منذ ان فتحة محمد على فى العشرينات من القرن التاسع عشر .
وأما ليبيا فقد ظلت تحكمها تركيا منذ عام ١٥٥١م حتى حدثت بها حركة احمد القرمانلى ذات الاستقلال الذاتى عام ١٧١١م وإلى عام ١٨٣٥م ، ثم عادت ليبيا تحت الحكم المباشر للدولة العثمانية حتى احتلتها إيطاليا عام ١٩١١م فأنهت السيادة العثمانية على ليبيا .
وأما تونس فقد بقيت ولاية عثمانية منذ عام ١٥٣٤م وفى القرن السابع عشر شهدت تونس حركات استقلالية وراثية تدين بالتبعية للدولة العثمانية كالأسرة المرادية والأسرة الحسينية حتى حدث الغزو الفرنسى لتونس عام ١٨٨١م واما الجزائر فكانت جزاءا من الامبراطورية العثمانية منذ عام ١٥١٨م ولكنها استمرت تدين بتبعية اسمية للسلطنة العثمانية بل كانت الجزائر تملك حق عقد المعاهدات مع الدول الاجنبية دون الرجوع الى السلطان ، وظل هذا الوضع قئما فى الجزائر حتى احتلتها فرنسا عام ١٨٣٠م . ورغم ان الاتراك لم يستولوا على مراكش ، الانه منذ وجودهم فى الجزائر اخذوا ويتدخلون ضد الاشراف العلويين حكام مراكش من ١٦٥٤ - ١٨٣٠م - كما اخذوا يحرصون اعداء الاشراف العلويين للثورة ، ولكن تدخلاتهم وتحريضاتهم لم تؤدى الى استيلاء الاتراك العثمانين على مراكش ، ومن بقيت مراكش غير خاضعة للحكم العثمانى حتى احتلتها فرنسا عام ١٩١٢م .

الفصل الثانى

نظام الحكم العثمانى فى الوطن العربى

- مقدمة.
- إيجابيات الحكم العثمانى.
- سلبيات الحكم العثمانى.

مقدمـــــة

حضعت الاقطار العربية للحكم العثمانى بتنظيماتة التى وضعها سلاطين ال عثمان وبصفة خاصة سليمان بن سليم الاول عرف بسليمان القانونى رغم ان الاقطار العربية التى خضعت للحكم العثمانى وتنظيماته وفى مقدمة هذه الاقطار مصر بطبيعة الحال كانت اكثر تحضرا من الدولة العثمانية ، ويرجع المؤرخون هذه التنظيمات الى تاثيرات عوامل متعددة هى :

اولا : بيئة الاتراك العثمانين(١) الاصلية فى وسط اسيا التى اثرت على ثقافة الأتراك بصفة خاصة ، وخاصة اللغة والعادات والتقاليد القبلية وان كنا يجب ان نوضح ان تأثير هذا العامل صعف واستمر فى الضعف مع مرور الزمن ومع ابناء الدولة واتساعها فى اوربا وفى الاقطار العربية وتأثر الاتراك بالبيزنطيين والعرب وثقاتهم .

ثانيا : الحضارة الفارسية وما اشتملت عليه من مظاهر الفخامة والتبجيل والاحترام للسلاطين الى جانب التنظيمات الادارية والسياسية فى الدولة فضلا عن اعتبار اصحاب الملل ـ اى غير المسلمين ـ مستقلين بأمورهم الداخلية ، كل ذلك وجد طريقه الى نظام الحكم العثمانى اما عن طريق الدوله السلجوقية فى فارس او عن طريق العرب الذين تأثروا بالحضارة الفارسية ، او عن طريق الدولة البيزنطية التى جاورت السلاجقة واحتكت بهم ، واذا كان المؤرخون قد اختلفوا حول الطريق الذى سلكته الحضارة الفارسية الى التنظيمات الحكم العثمانى ، واذا كانوا قد اختلفوا فى مدى تأثير الحضارة الفارسية فى العثمانيين فمما لاشك فيه ان هناك تأثيرات حضاريا فارسيا فى التنظيمات العثمانية وان كانت بمرورها قد صهرت هذا التأثير الفارسى مع غيره من تأثيرات لدى العثمانيين واضبحت تكون سلوكا عثمانيا ..

ثالثا : تأثيرات العرب الدينية واللغوية فى مجالات التعليم ومجالات العبادة والقضاء والافتاء ويرجع بعض المؤرخين ما جبلت عليه التنظيمات العثمانة من جمود وتحفظ الى التأثيرات العربية التقلدية ، ولكن هؤلاء المؤرخين يسرقون فى ذلك وينسون ان تأثيرات بيئة وسط اسيا الرعوية القبلية وتأثيرات الحضارة الفارسية لها دورها الاكبر فى التحفظ والتمسك بالتقاليد ومقاومة كل الحركات التقدمية فى المجتمع العثمانى .

---

(١) الاتراك العثمانيون احدى قبائل الاتراك العديدة التى بقيت فى بيئتها الاصلية فى اواسط اسيا او رحلت الى اسيا الصغرى ، وهذه القبيلة تنتسب الى عثمان مؤسس الدولة فى هضبة الاناضول بأسيا الصغرى .

رابعا : تأثيرات البيزنطيين على التنظيمات العثمانية خاصة فى النواحى الادارية والضرائبية ومظاهر العظمة والابهة فى البلاط الى جانب تمتع الاجانب بامتيازات محدودة تتفق مع نظام الدولة ٠٠ كل ذلك يفسر كثيرا من التنظيمات العثمانية ٠٠ كان العرب يشكلون الجزء الاسلامى الاكبر فى مجموعة ولايات الدولة العثمانية وبهذا كانوا الولايات العثمانية تأثرا بالتنظيمات العثمانية ، ايجابيا وسلبيا وكان العرب ينظرون الى الدولة العثمانية قبل اتجاهها الشرقى نظرة إكبار وفخار لما كسبته للمسلمين من فتوحات فى بلاد الروم . كما ظل العرب بعد خضوعهم للحكم العثمانى ينظرون الى العثمانيين باعتبارهم حماة للدين الاسلامى بل وباعتبارهم المحافظين على الخلافة الاسلامية وقد تأثرت العرب بنظم الحكم العثمانى على النحو التالى :

إيجابيات الحكم العثمانى

يمكننا ان نحدد التأثيرات الايجابية للتنظيمات العثمانية فى الحكم على الاقطار العربية فيما يلى :

اولا : ان سيطرة العثمانين على اقطار الوطن العربى قد وحد هذه الاقطار فى إطار سياسى واحد بعد ان كانت كيانات متنافرة وتكاد تكون متباعدة بين بعضها البعض منذ ان سقطت الوحدة الاسلامية نتيجة ضعف الخلافة العباسية وظهور زعامات طامعة فى الحكم فى انحاء العالم العربى ، وبصفة خاصة بعد ان تعرضت بغداد للتدمير المغولى الشامل فى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى الموافق منتصف القرن السابع الهجرى .
ورغم ان هذه الوحدة السياسية قد حققت استقرار نسبيا فى اقطار الوطن العربى ، فقد فرضت جمودا وعزلة على نشاط العرب فى مجالات السياسة والاقتصاد والثقافة ، ولم يعد العرب يشاركون العالم بنشاطهم فى هذه المجالات ، بل تسبب العثمانيون فى قتل النشاط الاقتصادى المزدهر فى معضم اقطار الوطن العربى . ففى مصر مثلا نقل السلطان سليم الاول الى العاصمة العثمانية عند رحيله من مصر عام ١٥١٨م اكثر ما فى القلعة وما فى منازل السلاطين والامراء من الذخائر والنفائس والكتب ، كما اخذ ما كان من ذلك فى المساجد والاربطة والزوايا ، حتى اعمدة الرخام(١) ولقد ذكر الجبرتى انه فقد من مصر نيف وخمسون صنعة .

ثانيا : يعتقد بعض المؤرخين ان السيطرة التركية على اقطار الوطن العربى قد وقفت امام خطر الصفويين الشيعة للسيطرة على العالم العربى السنى خاصة وان الشاه اسماعيل

(١) محمود الشرقاوى : مصر فى القرن الثامن عشر ص ١٠

الصفوى غزا العراق عام ١٥٠٨م بحجة ضم مزارات الشيعة فى النجف الاشراف وكربلاء وهى الاماكن التى لها تقديرا واحترام كبيرين عند الشيعة فى كل انحاء العالم الاسلامى . ونحن نتفق مع هذا الرأى حيث ان الصفويين استمالوا بعض الرعايا العثمانين فى الأناضول لاعتناق مذهب شيعى فوضوى عرف رجاله باسم قزل باش اى صاحب الراس الاحمر كخطوة للقضاء على المذهب السنى فى الدولة العثمانية ، ولانستبعد انه إذا نجح الصفويون فى ذلك بنشر مذهبهم فى الدولة العثمانية وسيطروا عليها ان يتجهوا الى الشام ومصر لفرض سيطرتهم ومذهبهم عليها .

ثالثا : استطاع العثمانيون وقف توغل البرتغاليين فى البحار العربية ، من البحر الاحمر والخليج العربى بعدان عجز المماليك وحلفاؤهم عن الوقوف امام تهديدات البرتغال لأقطار الوطن العربى ، فكما علمنا انهزم التحالف المملوكى امام البرتغالين فى ديو امام بومباى عام ١٥٠٩م ولكن يجب ان ندرك العثمانيين لم يستطيعوا طرد البرتغاليين من المنطقة العربية ، ويجب ان ندرك ايضا ان العثمانيين بوقفتهم هذه امام البرتغاليين قد فرضوا حمايتهم على اقطار الوطن العربى ضد الاطماع الاستعمارية الاوربية حتى اواخر القرن الثامن عشر عندما بدا الضعف يدب فى كيان الدولة العثمانية ذاتها .

رابعا : استطاع العثمانيون ملاحقة فرسان القديس يوحنا وطردهم من ليبيا عام ١٥٥١م بعد ان سبق لهم ان طردوهم من جزيرة رودس التى انتقلوا اليها بعد ان طردهم من فلسطين على زمن سلاطين المماليك فى مصر والشام ، كما استطاع العثمانيون كسر شوكة الاسبان فى حوض البحر المتوسط الغربى . وفرضوا حمايتهم على اقطار الوطن العربى فى الشمال الافريقى ووقفوا ضد تهديدات الاسبان وفرسان القديس يوحنا للأقطار العربية فى شمال افريقيا .

خامسا : فرضت الدولة العثمانية اثناء صدامها مع البرتغاليين حول مداخل البحار العربية تقليدا جديدا يقضى بمنع دخول المراكب المسيحية فى البحر الاحمر بحجة انه يطل على الاماكن المقدسة للمسلمين فى الحجاز وهو التقليد الذى ظلت الدولة العثمانية متمسكة به حتى اواخر القرن الثامن عشر (١) وهذا التقليد قد افاد اقطار الوطن العربى ومنع الدول الاستعمارية الاوربية من تحقيق اطماعها فى العالم العربى .

سادسا : استفادت شعوب الامة العربية الاسلامية من الحكم العثمانى المسلم فى تنوية الحياة الدينية الاسلامية . ذلك ان الحكام الاتراك حافظوا على مشاركة الشعوب العربية .

---

(١) د . محمد انيس : الدولة العثمانية والشرق العربى ص ١٢٨ .

الاسلامية فى الاحتفالات الدينية ومراعاة الشرائع الاسلامية وكل ذلك انعكس على تأكيد القيم والمبادىء الدينية فى نفوس العرب المسلمين .

وكان الاتصال بين العرب فى موسم الحج او التعليم بالجامع الازهر وغيره من المساجد التى ادت دورا دينيا وتعليميا من عوامل ترابط العرب المسلمين واتصالهم الوثيق بعضهم ببعض وتأصيل القيم الدينية فى نفوسهم خاصة ان التعليم كان جوهرة دينيا ، وكان يؤدى وظيفة اجتماعية بما يضفيه على المتعلم من مركز ادبى واجتماعى ومادى . وبقى مثلا فى مصر نفوذ العلماء لدى السلطات الحاكمة التركية والمملوكية واقبال هذه السلطات على تشجيع العلماء من رصد اوقاف معينة على بعض المعاهد وحضور الكثير من الامراء والمماليك دروس العلماء فى المدارس والمجالس الخاصة ، ومنحهم الهدايا والمنح للعلماء من وقت لاخر كذلك كان السلطات العثمانى يهدى رجال الازهر الكثير من الهدايا ويأمر بمرتبات تصرف من الضربخانة ـ دارسك النقود ـ وكان يجارى السلطات العثمانى فى ذلك سلطان المغرب ولاسيما السلطان محمد فى القرن الثامن عشر .(١٠)

سابعا : عاشت اقطار الوطن العربى بمعزل عن سياسة الدول الاوربية الاستعمارية نظرا لعدم وجود مصالح استعمارية مباشرة فى هذه الاقطار ومن ثم تمتعت اقطار الوطن العربى بالحماية العثمانية حتى اواخر القرن الثامن عشر ، وان كنا يجب ان ننبه ان هذه الحماية ثمنها عزلة الشعوب العربية عن التيارات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية فى اوربا .

ثامنا : استفادت الشعوب العربية من كون الحكم العثمانى للاقطار العربية كان حاكما غير مباشر . حيث لم يتدخل العثمانيون لتغير البناء الاجتماعى والاقتصادى السائد فى العالم العربى قبل القرن السادس عشر ، ومن ثم احتفظ العرب تحت الحكم العثمانى بمؤسساتهم السابقة ولغتهم وعاداتهم وتقاليدهم . وليس ادل على ذلك ان العثمانيين ابقوا على التقسيم الشائع فى المجتمعات العربية الاسلامية الى فئات : رجال السيف ، ورجال القلم ، والتجار ، واصحاب الحرف ، واهل الذمة ، والعبيد . كما ابقوا على انتظام اصحاب الحرف فى . طوائف لكل منها شيخ ينظم شئون العاملين فيها ويكون حلقة الاتصال وبين رجال الحكومة ونتيجة للحكم العثمانى غير المباشر ، ونتيجة للحكم العثمانى للحكم العثمانى غير المباشر ، ونتيجة لبقاء التراث العربى بعيدا عن تدخل التنظيمات العثمانية ، فقد استفاد العرب فى بقاء الفكرة القومية ومقوماتها فى نفوسهم الى ان تهيأت لها الظروف فى اوائل القرن العشرين لتنطلق الى مجال الاعلان والتحرك نحو الوجود والتحقيق

(١) د. محمد انيس : ابحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة ج٣ ص١١٠٨

سلبيات الحكم العثمانى

كما يمكن لنا تحديد التأثيرات السلبية للحكم العثمانى على اقطار الوطن العربى فى النقاط التالية :-

اولا : فهم العثمانيين لوظائف الدولة ومسئولياتها نحو رعاياها ، ذلك ان هذا الفهم كان يقوم على ان مهمة الدولة ومسئولياتها تتمثل فى ثلاث امور فقط هى :

١ - الدفاع عن الولايات ضد اية اعتداءات خارجية ، وهذا يستلزم وجود قوات عثمانية تدافع عن البلاد او تشارك فى مهاجمة الدول المعادية للسلطنة كما تحافظ على الامن والنظام فى البلاد ، فمهمتها عسكرية بوليسية فى ان واحد لكى تضمن بقاء الولايات تدين بالتبعية للسلطنة العثمانية . وبطبيعة الحال فالقوات التى وجدت بالولايات العربية لم تكن عربية بل كانت عثمانية بتشكيلاتها مما افقد المواطنين العرب الاحساس بقدرتهم على حماية بلادهم والدفاع عنها .

٢ - تحصيل الأموال الاميرية(الضرائب) على تنويعها ثم توزيعها على وجوهها المختلفة عن طريق إدارة مالية . واهم وجوة إنفاق هذه الاموال هو إرسال الجزية السنوية للسلطان التى تعرف بالميرى الى جانب الهدايا السنوية وفى المناسبات المتعددة كمناسبة صدور فرمان بالولاية او إنعام سلطانى بلقب ٠٠ الخ ولم يكن ذلك يتطلب اكثر من الاشراف على المواظفين الذين يجمعون الضرائب والملتزمين ولا يهم ما يقع على الرعايا من ظلم او إجحاف

٣ - الفصل فى الخصومات بين الناس ، وهذا يستلزم من الدولة إقامة نظام قضائى حسب ماتقضى به الشريعة الاسلامية ، وهذا امر له اهمية عند السلطان العثمانى باعتبارة خليفة المسلمين فى نفس الوقت .

ولم يكن فهم العثمانين لوظائف الدولة ومسئولياتها يدرك ان هناك امورا اخرى على درجة من الاهمية تدخل فى وظائف الدولة مثل التعليم والصحة والتنمية الاقتصادية والرعاية الاجتماعية ، ولذلك فى وظائف الدولة مثل التعليم والصحة والتنمية الاقتصادية والرعاية الاجتماعية ، ولذلك فقد تركت الدولة العثمانية هذه الامور للأفراد والهيئات تقوم بالصرف عليها باعتبارها خارجة عن مسئولياتها التى حددتها الانظمة الموضوعة . فاذا احتاج الناس الى تعليم ابنائهم عهدوا الى بعض من يحسنونة او قد لا يحسنونه واذا احتاجوا الى علاج من مرض بحثوا عنه عند بعض الادعياء واما الزراعة فتسير على مألوف ما اعتادة الفلاحون المصريون الذين يخضعون للملتزمين ، فى الوقت الذى تركت امور الصناعة فى يد اصحاب الحرف ينظمونها فى طوائفهم ويتوارثون العمل فيها خلفا

عن سلف ، واما التجارة فقد خضعت لتأثيرات الامتيازات التى منحت للأوربيين فى الولايات العربية فى مجال التجارة وغيرها من المجالات . كل ذلك يجرى دون تدخل من الدولة العثمانية لترسم سياسة ، بل ان ترك هذه المجالات قد ادى الى حدوث انهيار اقتصادى وفوضى سياسية وتأخر اجتماعى وعزلة ثقافية حلت بالوطن العربى .

ثانيا : نظرة العثمانيين الى المجتمع وتقسيمه الى طبقتين متميزتين هما :

١ ـ الطبقة الحاكمة التركية التى كونت داخل مجتمعات اقطار الوطن العربى ارستقراطية حاكمة منعزلة عن بقية اجزاء المجتمع بحكم فهمها لوظيفتها واحساسها بذاتها ، وكانت هذه الطبقة التركية تستمد كيانها من القوة العثمانية ، وكانت حريصة على عدم الاختلاط بالشعوب العربية باعتبارهم ـ العرب ـ ادنى مرتبة ووظيفتهم خدمة الطبقة الحاكمة .

٢ ـ الرعايا العرب فى فى بلادهم الخاضعة للحكم العثمانى بتصوارته وفهمه . وعلى الرعايا خدمة الحكام ومدهم بما يحتاجون اليه ، كما كان على الرعايا تنظيم امورهم الحياتية حسب مألوف ما إعتادوة قبل مجيء العثمانيين ، فاستمرت الطوائف الحرفية تؤدى دورها المعتاد تحت إشراف مشايخ الطوائف ، وبقيت الطوائف الاجتماعية بمكانتها دون تدخل العثمانيين كأهل الذمة ، واصحاب القلم اى العلماء وغيرها ٠٠ ولاشك ان هذه النظرة العثمانية القاصرة نحو تقسيم المجتمع قد تركت تأثيرات سلبية على المجتمعات العربية ادت الى عدم شعور المواطن العربى بالولاء للدولة العثمانية بل احسن كل مواطن بولائه لوطنه وقطرة العربى الذى ولد فيه ، ولعل هذه التأثيرات السلبية تفسر لنا ضآلة تأثير الحكم العثمانى فى اقطار الوطن العربى رغم السنوات الطويلة التى خضعت فيها الاقطار العربية للحكم العثمانى .

وهنا تبدو الفروق واضحة بين سياسة العثمانيين وبين سياسة العرب حين انطلقوا من قلب الجزيرة العربية فى موجات بشرية متلاحقة ، فاتحين مبشرين برسالة الاسلام والعروبة فقد اقترب العرب من سكان البلاد الاصليين منذ نهاية القرن الثانى ومطلع القرن الثالث للهجرة . (١)

ثالثا : الشك وعدم الثقة فى ممثل السلطنة العثمانية فى الولايات العربية ، وكانت نتيجة ذلك ان الوالى وهو الذى ينوب عن السلطان فى حكم الولاية والذى كان يشعر بالشك فى تصرفاته ويخضع لرقابة من قوى عثمانية اخرى فى الولاية كقادة الفرق العثمانية المعروفة بالاوجاقات ، والكتخدا وهو وكيل الوالى ، الى جانب ما نصت عليه

(١) د. عبد العزيز الشناوى : من ابحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة . ج٢ ص ٦٦٨

التنظيمات العثمانية من تقصر مدة حكم الوالى خوفا من استقلاله بالولاية ، وعدم جمع السلطتين المدنية والعسكرية فى يدة ، وجعل تعيين القاضى والكتخدابل والدفتردار المسئول عن الأمور المالية فى يد السلطان لافى يد الوالى كل ذلك يجعل الوالى يشعر بعدم الاستقرار وعدم الاطمئنان لبقائه فى الولاية فلا يرتبط بولايتة ولا بمشروعات يفكر فى انجازها فى الولاية ، وانما ينحصر تفكيرة فى جمع اكبر قدر من الاموال لنفسه يحتفظ بها عند عزله من منصبه .
ثم ان عدم الثقة فى الوالى ادت الى تقسيم السلطة بينه وبين قادة الفرق العثمانية والعصبيات المحلية ، مما ادى الى التشاحن والخلافات بين اطراف السلطة الثلاث وبالتالى تحملت الشعوب العربية نتائج هذه الخلافات .

رابعا : الرجعية وعدم التجديد ، كانت السياسة التى جرى عليها الحكم العثمانى فى البلاد العربية ذلك اننا راينا الحكم العثمانى يبقى الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية والثقافية السائدة فى المجتمعات العربية كما كانت قبل الغزو العثمانى للأقطار العربية ، بل اننا نرى ان مجموعة القوانين قد وضعت فى عهد سلاطين ال عثمان الاول سليم وسليمان قد بقيت نافذة المفعول واساسا سار عليه السلاطين الذين خلفوا اصحاب القوانين وواضعيها وهذا دليل على ان الدولة العثمانية لم تكن ترحب كثيرا بأى تجديد فى نظم الحكم السائدة او فى عادات الناس وتنظيماتهم الاجتماعية ..
واذا كانت المجتمعات العربية قد استفادت من السياسية الرجعية العثمانية ، فى انها حافظت على التراث العربى ، الا ان هذه السياسة قد ادت مع طول المدة التى بقيت فيها المجتمعات العربية تحت السيطرة العثمانية الى تخلف الاقطار العربية فكريا واقتصاديا وأجتماعيا الى جانب التخلف السياسى ..

خامسا : الطابع العسكرى للحكم العثمانى فى الاقطار العربية ، الذى تمثل فى اعتبار الجيش العثمانى اداة للحرب واداة للحكم معا ، باعتبار ان الجيش العثمانى غزا وسيطر وفتح اقطار الوطن العربى ، ومن ثم يتفرع منه اداة الحكم فى الولايات ولاشك ان ذلك له تأثيره السلبى الخطير على الجيش نفسه الذى يبتعد بذلك عن وظيفته الاصلية وهى الدفاع عن البلاد ، وعلى العرب الذين يخضعون لحكم عسكرى يبعدهم عن حياتهم المدنية ويقاسون خشونة وغلظة الحكام العسكريين الاتراك ..

سادسا : سوء الادارة العثمانية التى تجلت فى الاهتمام بالمدن والبلاد الواقعة على سواحل البحار والطرق الرئسية دون الاهتمام بالمناطق الصحراوية والريفية والنائية من اقطار الوطن العربى ، رغم ان هذه المناطق تمثل الجانب الاكبر من الاقطار العربية

وتركها العثمانيون فى يد رؤساء القبائل والعائلات يدبرون امرها بما تعودوة من اساليب الحرب القبلية ، ولا عجب فى ذلك فقد كان العثمانيون يهتمون بالاقطار العربية التى تدر عليهم اموالا اكثر من غيرها ، فقد كان اهتمامهم بمصر مثلا اكثر بكثير من اهتمامهم بلبيا او اليمن .

سابعا : اعطاء الاوربين امتيازات اقتصادية وثقافية ودينية وقنصلية فى الاقطار العربية مما ادى الى فتح الاقطار العربية للنفوذ الاستعمارى الاوربى الذى مارس نشاطة التجارى والتعليمى فى ظل الامتيازات بانشاء الوكالات التجارية والمدارس والكنائس والادعاء برعاية المسيحيين مما كان له اثرة الخطير على اقطار الوطن العربى ادى فى النهاية الى التحقيق الاطماع الاستعمارية الاوربية عندما حانت الفرصة بضعف الدولة العثمانية وتفككها ..

ثامنا : فرض العزلة على الوطن العربى ، وحرمان الشعوب العربية من الاتصال بالحضارة الاوربية الناهضة بدعوى الخوف على الاقطار العربية من اطماع الدول الاستعمارية واذا كانت الاقطار العربية قد استفادت حقيقة ببقائها بعيدة عن اطماع الدول الاوربية قرابة ثلاثة قرون تحت الحكم العثمانى اى الى اواخر القرن الثامن عشر ، فان العزلة التى عاشتها الاقطار العربية قد جعلتها تتخلف مئات من السنين عن الاقطار الاوربية الناهضة بل وسلبتها ثقتها فى نفسها وفى قدرتها على استعادة مجدها الاول كدولة موحدة كبرى فى منطقة الشرق الاوسط سبقت حضارتها المزدهرة الحضارة الاوربية الناهضة فى القرن التاسع عشر ، ومع ذلك فالقطر الذى تهيأت له فرصة يكسر فيها نطاق العزلة المفروضة علية استطاع ان يبنى نفسه فى المجالات المختلفة على اسس حديثة ، ومصر فى مطلع القرن التاسع عشر على يد محمد على خير دليل على ذلك ..

الباب الثانى

العصبيات المحلية فى الوطن العربـــى

مقدمـــــة

اختلف المؤرخون حول اسباب وطبيعة حركات العصبيات المحلية التى قامت هنا وهناك فى انحاء الوطن العربى ، واختلفوا حول تسميتها هل هى حركات انفصالية تسعى الى اعلان الاستقلال الكامل عن الدولة العثمانية ام انها مجرد رغبة للحكم الذاتى فى ظل السيادة العثمانية . . .

فيذكر بعض المؤرخين ان اسباب هذه الحركات انما ترجع الى ظلم الولاة الاتراك وثقل وطأة الحكم التركى ورجاله على الشعوب العربية مما دفع بالبعض الى استغلال ضيق الشعوب بالعربية واظهار الرغبة فى التصدى للمظالم الواقعة على الشعوب العربية من اجل مساندته لارتقاء كرسى الولاية . .

ويذكر البعض الاخر ان اسباب هذه الحركات انما هى راجعة اصلا الى نزعات فردية ومطامع شخصية تتصل برغبة اصحابها فى السيطرة على اقليم من الاقاليم العربية لتحقيق مكاسب مادية والحصول على سلطة كاملة تحقق له املا او حلما راودة منذ صغرة كما فى حالة المماليك . . .

واما عن طبيعة هذه الحركات فيذكر البعض انها كانت تركية رغم قيامها فى ولايات عربية باعتبار ان معظم القائمين بها اتراك يعملون فى خدمة الدولة العثمانية وطمعوا فى حكم وراثى طويل ، بينا يذكر بعض المؤرخين انه مع التسليم بذلك فأنه كانت هناك حركات عربية كثورات القبائل العربية فى الولايات العربية ضد الحكم التركى وثورات دروز لبنان كالامير المعنى فحر الدين بجبل لبنان ، وحركة الشيخ ظاهر العمر فى جنوب سوريا وهذا فى نظرهم دليل على حيوية الشعب العربى وعدم إستلامه لسلبيات الحكم التركى . . ولرأى عندى انه لايمنع ان يكون حركات العصبيات المحلية فى الوطن العربى ترجع الى وجود نزعات شخصية ومطامع فردية عند بعض الموظفين الاتراك فى الاقطار العربية ، وترجع ايضا الى افساد انظمة الحكم العثمانى بصفة خاصة فى القرن الثامن عشر الذى شهد انهيار التوازن الذى حرص على وجودة السلطان سليمان القانونى فى تشريعات الحكم بين الوالى من ناحية العصبيات المحلية والأوجاقات العثمانية من ناحية اخرى . . .

كما اننا نؤيد الرأى القائل بأنة رغم ثورات القبائل العربية وظهور زعامات عربية كالشيخ ظاهر العمر والأمير فخر الدين المعنى وغيرهما فان قادة اغلب الحركات الاستقلالية كانوا من العنصر التركى الراغبين فى حكم ذاتى وراثى فى اسراتهم تحت

السيادة العثمانية وهذا ما جعل الشعوب العربية لاتعضد هذه الحركات بل طالبت السلطان العثمانى عندما فسدت الامور فى ظل هذه الحركات بعزل اصحابها ، كما سنرى فى ليبيا فى ظل حكم الاسرة القرمانلية . ولم تكن سياسة الدولة العثمانية حيال هذه الحركات سوى تعبير عن الافلاس الذى أصاب الحكم العثمانى ، فكانت تلجأ الى ارسال الحملات العسكرية للقضاء على ثورات القبائل العربية ، واذا فشلت فى ذلك لجأت الى سياسة تغيير الباشوات او تضطر الى تثبيت الباشا لمدة طويلة وتقبل حكم اسرته وراثيا اذا اثبت افراد الأسرة طاعة وخضوعا وقدموا الاموال اللازمة للسلطان ورجال دولته . .

ونتيجة لذلك قامت اسر حاكمة فى بعض الولايات العربية مثل حكم الاسرة القرمانلية فى ايالة طرابلس الغرب(ليبيا) ، وحكم ال العظم فى الشام وحكم حسن باشا والمماليك فى العراق ، وحكم اسرة محمد على فى مصر وحكم الاسرة الحسينية فى تونس . . .

كما قامت حركات فردية متعددة تحمل مشروعات ذات طابع انفصالى عن الدولة العثمانية مثل حركة الامير فخر الدين المعنى الدرزى بجبل لبنان ، وحركة الشيخ ظاهر العمر فى فلسطين وجنوب سوريا ، وحركة على بك الكبير فى مصر .

هذه امثلة لحركات العصبيات المحلية فى اقطار الوطن العربى تحت الحكم العثمانى نسوقها لنتعرف من خلالها على تاريخ هذه الاقطار الخاضعة للسيادة العثمانية ، وسوف نسوقها حسب ترتيب حدوثها زمنيا ، ولكن يجب ان نلاحظ ان معظم هذه الحركات حدثت فى القرن الثامن عشر وهو القرن الذى شهد انهيار التنظيمات العثمانية بصورة افضت الى حدوث هذه الحركات . .

مصـــــادر الكتـــــاب

الفصل الثالث

الأسرة المعنية فى لبنـان

- لبنـــان.
- الأمير فخـر الدين الاول.
- الأمير فخـر الدين الثانى.
- الأسرة الشهـابية.
- لـبنـان بـعـد الشهابيـين.

لبـــنـــان

لبنان ذلك القطر العربى المستقل تحت اسم الجمهورية اللبنانية الان كان عند الزحف العثمانى على اقطار الوطن العربى عبارة عن قضاء من اقضية بلاد الشام وقد قسم الحكم العثمانى بلاد الشام الى ثلاثة باشويات هى :

١ - باشوية الشام ومقرها دمشق وتضم معظم بلاد الشام .
٢ - باشوية حلب وتشمل شمال سوريا .
٣ - باشوية طرابلس(بلبنان) وتشمل الساحل .

ولبنان له وضع جغرافى وتاريخى خاص ، ذلك ان ثلثى اراضية عبارة عن جبال عالية بينها وديان تتصف بالعمق والضيق ، كما ان السهول الواقعة بين الجبال نجدها محدودة الامتداد فى الغرب حيث تكاد الجبال ان تصل الى مياة البحر المتوسط ، فيما عدا سهل البقاع الخصيب الذى يفصله عن البحر جبال عالية تحجل الامطار التى تسقط قليلة الى حد ما .

وعلى هذا نجد ان الجبال والوديان التى تتخللها حيث تكثر الامطار ذات موارد اكثر من السهول الداخلية ، وينتج عن ذلك تركز السكان حيث تتوافر الموارد ، على ان الشرائط الطبيعية وحدها لاتكفى لتعليل التكاثف البشرى الشديد فى الجبال اللبنانية ، بل هناك الاسباب التاريخية والطائفية التى حملت الدروز الموازنة على الاعتصام بالمرتفعات الأمينة حفاظا على كيانهم (١)

وسكان لبنان لهم وضعهم الخاص من حيث تركيبهم الاجتماعى والدينى الا ان فكرة العروبة عندهم تتجلى فى منازع الشعب ومشاعرة اكثر مما تتجلى فى النصوص التشريعية والاحكام الدستورية ، إن إيمان الشعب اللبنانى بثقافة العربية وحرصه على القيام بواجباته نحو إخوانه فى الاقطار العربية لا يقلان عن إيمانه بالحقيقة اللبنانية (٢)

وإذا كان العثمانيون قد استولوا على لبنان عام ١٥١٦م بالاضافة الى المناطق الجبلية من سوريا وفلسطين ، فان وضع لبنان الخاص كان يستدعى من الدولة العثمانية . تعاملا خاصا ، ذلك انه كان هناك تركيب اجتماعى يقسم السكان الى قيمة ويمنية ، وتركيب دينى يقسمهم الى مسلمين ومسيحيين ، بل كان التقسيم الدينى اكثر تفصيلا فوجدنا بين المسلمين دروزا ، وسنيين وشيعة ، ووجدنا بين المسحيين موازنة كاثوليك وأرثوذكسى

---

(١) د. عزة النص : احوال السكان فى العالم العربى ص ٥٦ .
(٢) د . جميل صليبا : الاتجاهات الفكرية فى بلاد الشام ص ١٣ .

وغيرهم ، وإذا كان الحكم العثمانى لم يفهم طبيعة الشعب فى لبنان ومن ثم جهل بكفية حكمه الحكم الحكم السليم فلا عجب ان نرى لبنان يكون اول قطر عربى يثور ضد الحكم العثمانى بعد ان تم فتح الاقطار العربية وخضوعها للدولة العثمانية .

الأمير فخر الدين الأول

عهد السلطان سليم الاول العثمانى بأمر لبنان والمناطق الجبلية سوريا وفلسطين الى الامير فخر الدين المعنى الدرزى الأول الذى ينتمى الى الاسرة المعنية من الدروز فى لبنان - مقابل ان يعترف هذا الامير بالسيادة العثمانية ويقدم للدولة فى استانبول الجزية السنوية ، ومعها دلائل خضوعه لها .
الا ان إشتطاط الدولة العثمانية فى طلباتها قد دفع الامير فخر الدين الى ان يعلن العصيان ضد الدولة ويثير القبائل فى لبنان مما عجل بالصدام بين الدروز بقيادة الامير فخر الدين والدولة العثمانية التى هالها ان يخرج عن طاعتها حاكم معين من قبلها يحكم باسمها ويخضع لها وقد ظل هذا الصراع بين الطرفين طويلا والحرب فيه سجال بين الجانبين حتى انتهت حياة الامير عام ١٥٤٤م فى بلاط باشا الشام بدمشق .
ولكن موت الامير فخر الدين لم ينه الصراع بين الاسرة المعينة والدولة العثمانية إذا واصل ابنه قرقماس الكفاح ضد حملات التنكيل التركية التى ارسلت لابادة الدروز من والاهم من اهل لبنان ، ولكن قرقماس لقى حتفة عام ١٥٨٥م مع كثيرين من زعماء لبنان وقادته اثناء حرب القوات التركية الكبيرة التى نزلت الى لبنان للتنكيل بأهله .

الأمير فخر الدين الثانى

لم يكن مقتل قرقماس فى ساحة المعركة ضد الأتراك نهاية للصراع بين الطرفين لان ابنة فخر الدين الثانى تولى الزعامة من بعدة ، وبالتالى واصل الصراع ضد الاتراك . وقد امتاز هذا الامير بالحنكة السياسية ، فرغم انه كان درزيا الا أنه كان يتقنع بقناع المسيحية امام المسيحيين ، ويدعى الانتماء للمسلمين السنين امامهم وذلك لكسب ود كل هولاء وليستطيع تحقيق اهدافه بدأ الأمير فخر الدين الثانى زعامتة عام ١٩٩٠م ؟؟ فأخذ يبث عيونه فى الأستانة وعند كبار الزعماء وقصور الباشوات ، وذلك لكى يقف على اسرار الجميع ومن ثم يستطيع تدبير المؤامرات للتخلص من منافسيه ومعارضيه وليوقع الفرقة فى صفوف اعدائه ، وقد كانت صفاته هذه سببا فى ان اعتبرة بعض المؤرخين تلميذا مخلصا لميكافيللى الاديب الايطالى صاحب كتاب الأمير .

ورغم ان الامير فخر الدين الثانى كان قد شارك جان بلاط الكردى الثورة على الباب منذ سنة ١٦٠٣م ولكن الدولة لم تتعرض له حتى بعد هزيمة جان بلاط بل تركت اليه حكم البلاد الواقعة فى حوزته لقاء جزية سنوية يدفعها وكانت مهارته هى سبب موقف الباب العالى الودى منه ، ذلك انه بعث للسلطان العثمانى بجزية ضخمة واعلن ان كل ما يغتنمه فى حروبة سيتقاسمه مع الباب العالى فكانت النتيجة كما رأينا موافقة السلطان على تعيينه واليا على جبال لبنان والمناطق الساحلية التابعه له وعلى قسم كبير من سوريا وفلسطين ولكن الامير فخر الدين الثانى لم يكن ليقبل الاستمرار فى الخضوع للدولة العثمانية وعمل على سيطرتها عليه جانبا حتى ولو أستدعى الامر الى تحالفه مع الدول الاجنبية .

المسيحية ، لذلك وجدنا الامير يشرع فى الثورة على تركيا عام ١٦٦٣م ؟؟ بعد ان اعد جيشا كبيرا وقوى حصون بلادة وتفاوض مع دوق تسكانيا الذى غمرت نفسه روح المغامرة وينبغى فتح اسواق جديدة لتجارة فلورنسا[1] كما تفاوض فخر الدين مع اسبانيا ومع بابا روما من اجل مساندته فى حربة ضد الدولة العثمانية .

وكان فخر الدين قد استولى على بعلبك عام ١٦١٠م واخذ يهدد دمشق ذاتها بالاحتلال مما دفع العثمانيين الى ارسال حملة عسكرية كبيرة نزلت فى لبنان واجبرت فخر الدين على الفرار من لبنان الى ايطاليا حيث مكث هناك خمس سنوات فى ضياقة كوسموس الاول بن فرديناند حاكم تسكانيا ، وقد اظهر فخر الدين اثناء مقامة فى تسكانيا من دلائل البذخ والظهور بمظهر الاثرياء مما جعل النفوس تتأثر بشخصيته ومظهرة وعندما كان عداء الأمير فخر الدين الثانى فى ايطاليا شاهد هناك محاولة تكوين حلف بين فرنسا والبابوية وفرسان القديس يوحنا فى مالطة واسبانيا وفلورنسا فى ايطاليا للعمل ضد الدولة العثمانية ، الا ان الظروف الدولية لم تكن تسمح بتكوين هذا الحلف وكان الأمير فخر الدين الثانى قد حاول لكسب تأييد هذه القوى الاوربية ان يظهر بمظهر الزعيم صاحب النفوذ الكبير الذى اتى لينال مساعدة اوربا المسيحية على استرداد الباع المقدسة فى مقابل مساعدته ـ خاصة فى البحر ـ على الاستقلال من حكم الترك ولكن اوربا المسيحية لم تتحمس للمشروع التحمس الكافى ، وخشى البابا ان لايجدى المشروع الا فى اثارة غضب الترك ودفعهم الى الانتقام من رعاياهم المسيحيين[2] وفى عام ١٦١٨م عاد الامير فخر الدين الثانى الى لبنان بعد ان عفا عنه السلطان العثمانى الجديد عثمان الثانى ،

---

(١) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ص ١٥٣

(٢) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ص ١٥٣

ليجد امه الحكيمة نسب فى اثناء غيبته استمرت تدافع عن بلادة باسم حفيدة احمد على ضد باشا دمشق[1] الا ان الامير فخر الدين اعترف بالأمير الجديد ولكنه تولى العمل الفعلى فى الامارة حيث اندفع فى العمل على فرنجة بلادة واخذ يعمل على تطوير اقتصاديتها ، وتنظيم بيروت بما يقربها من المدن الاوربية ، واهتم بالتعليم وحرص على ارسال عدد من الشباب اللبنانيين للتعليم فى ايطاليا وشجع الاوربيين على دراسة اللغة العربية وادابها ولم يكن فخر الدين الثانى ليقبل الخضوع للحكم العثمانى حتى ولو كان هذا الحكم صاحب الفضل عليه باعادته الى بلدة .

وفى عام ١٦٣٣م ارسلت الدولة العثمانية قوات بحرية الى لبنان وكلفت باشوات الشام الزحف برا الى لبنان ضد الامير فخر الدين وابنه الامير على ، والتقى الطرفان فى ١٥ نوفمبر فى معركة فاصلة دارت فيها الدائرة على المعنيين وقتل فيها الأمير على واستسلم بعدها الامير فخر الدين الى العثمانيين فأرسل الى استامبول حيث اعدم عام ١٦٣٥م واما الامارة المعنية فقد دمرت ونهبت ممتلكاته .

عادت السيطرة التركية كاملة على لبنان بعد انهيار إمارة الامير فخر الدين الثانى وحتى تحكم الدولة العثمانية سيطرتها على لبنان وعلى الدروز بصفة خاصة فان العثمانيين انشأوا عام ١٦٦٠م ايالة رابعة عاصمتها صيدا تتكون من المناطق الساحلية التى كانت تابعة لايالة الشام ، ومهمة هذه الايالة الجديدة مراقبة دروز لبنان والموازنة واخماد الثورة من جانبهم بالاستعانة بأيالة طرابلس[2]

وكانت سيطرة الاتراك عنيفة على لبنان قضت على ما اجتهد فيه الامير فخر الدين لاقامة فى امارته فقد كان لبنان فى حكومة فخر الدين المعنى يتسم حرية الحكم ريثما جاءت جيوش الترك[3] ولكن المقاومة استمرت ضد الاتراك طوال القرن السابع عشر ، واتسم الصراع بدخول فريق منافس للمعنيين فى لبنان ، ذلك ان الاسرة المعنية وتنسب الى القيسية قادت الصراع ضد اسرة علم الدين اليمنية المؤيدين من الأتراك .

وحتى عام ١٦٩٧م استمر الصراع بين الاسرتين القيسية واليمنية كانت الغلبة فى كثير من الاحيان للقيسية ، وكان يستتبع تغلبها توطيد سلطتها فى لبنان واعادة مجدها القديم حتى اذا انقرضت الاسرة المعنية فى ذلك لعام استمرت القيسية بزعامة اسرة درزية اخرى هى الاسرة الشهابية .

---

(١) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ص ٥٤

(٢) د . محمد انيس : الدولة العثمانية والشرق العربى ص ٥٤ .

(٣) د. ذكى-المحاسنى واخرون : دراسات فى النهضة العربية الحديثة ص ٤٩٣

الأســرة الشهابيــة

تسلم الامير الدرزى بشير الشهابى الاول السلطة فى لبنان ولكنه ووجه عام ١٦٩٨م بثورة قام بها المتاولة الشيعة الذين يسكنون المنطقة الواقعة بين بحر الجليل وصيدا بزعامة شيخ يمنى ولكن الامير الدرزى بشير الاول وكان من القيسية تحالف مع باشا صيدا وباشا طرابلس واخضع ثورة المتاولة ، وعين الشيخ عمر ابو ظاهر فى صفد وهو ينتمى الى اسرة قيسية تدعى بنو زيدان(١)

ولكن الصراع لم يتوقف بين الاسرة الشهابية بين الدولة العثمانية التى كانت كثيرا ما تلجأ فى صراعها الى استخدام اليمنيين فى هذا الصراع ، واذا كان التحالف العثمانى اليمنى قد نجح عام ١٧١٠م فى الاطاحة بالامير حيدر الشهابى ، فأن الشهابين لم يستسلموا وتمكنوا فى العام التالى من القضاء على كافة زعماء اسرة علم الدين اليمنية مما دفع الاتراك الى التخلى عن معاداة الاسرة الشهابية والتدخل فى شئون لبنان الداخلية لمدة طويلة .

حتى اذا تسلم القيادة بشير الثانى فى اواخر القرن الثامن عشر(١٧٩٥) عمل على وضع جميع لبنان تحت سلطتة ودخل فى صراع مع احمد باشا الجزار حاكم عكا(ايالة صيدا) المنتصر على حملة نابليون عام ١٧٩٩م ووقف الباب العالى مؤيدا لبشير الثانى ضد استفحال نفوذ احمد الجزار ، ومنح بشير الثانى حكم مناطق البقاع والجبل الشرقى وجبيل وصيدا وكان ذلك مثار خلاف وصراع بين الرجلين حتى توفى الجزار عام ١٨٠٤م ، فأخذ بشير الثانى يعمل لاصلاح الاحوال فى لبنان ويضع السلطة كاملة فى يدة بقوة مستخدما العنف والبطش بالانقساميين الطائفيين ورغم ذلك اتسم حكمة بطابع التقدم وجنى اثار النهضة الاقتصادية فى عهدة بالعيش فى ترف تجلى فى قصره المسمى بيت الدين الذى يعتبر ذا شهرة معمارية فى لبنان .

وقد استطاع بشير الثانى بالخديعة حينا وبالحرب حينا وبالمهادنة حينا اخر ان يستقطب القوى المتنافرة فى لبنان ، فمع انه كان درزيا بصفة رسمية الا ان هذا لم يمنعه ان يظهر امام الموازنة بأنه مسيحى وان يدعى اعتناقه الديانة المسيحية حتى يضمن ولاء الموارنة وخضوعهم له فى ظل وحدة لبنان ومنذ عام ١٨٢٠م بدأت متاعب بشير الثانى بسبب مطالب باشا عكا الكثيرة التى دفعت اللبنانيين الى الثورة حتى هرب بشير الثانى الى مصر عام ١٨٢٢م ، حتى اذا نجح محمد على فى الحصول على عفو من السلطان العثمانى لبشير الثانى ، عاد الى لبنان كحليف لمحمد على عام ١٨٣١م وبقى الى ١٨٤٠ عندما غادر لبنان للمرة الاخيرة .

---

(١) د . محمد انيس : الشرق فى التاريخ الحديث المعاصر ص ٦١ .

لبنـــان بـــعد الشـهابيين

استمر لبنان يعيش جوا من الانقسامات الطائفية حتى ثارت فتنة دينية عام ١٨٦٠م ، بين الدروز الموازنة كانت نتيجتها مذبحة لكلا الطرفين شملت صيدا وحاصبيا وراشيا ودير القمر وزحلة الى جانب عدد كبير من القرى المجاورة لبيروت ، وامتدت المذابح الى سوريا ويرجع المؤرخون هذه المذابح الى مؤامرات لعب فيها الدور الاول القنصل الفرنسى فى بيروت .

وكانت هذه المذابح دافعا لكى يعلن الامبراطورية الفرنسى نابليون الثالث انه سوف يتدخل لايقاف المذبحة بحجة ان فرنسا تحمى الموارنه الكاثوليك ، وبالفعل نزلت قوات فرنسية فى اواخر اغسطس ١٨٦٠م الى ميناء بيروت ولكن بعد ان التزمت فرنسا امام انجلترا وروسيا وبروسيا وتركيا بأن الاحتلال مؤقت لن يتجاوز ستة شهور ولن يزيد عدد الجيش الفرنسى عن ١٢ألف جندى ، وظل هذا الجيش حتى ٥يونيو ١٨٦١م عندما جلا عن لبنان تحت ضغط الدول الاوربية .

ونتيجة لهذه المذابح وتداخل الدول فى امور لبنان فقد وضعت لجنة دولية فى يونيو ١٨٦١م نظاما اساسيا جديدا لحكم لبنان جعل بمقتضاة جبل لبنان منطقة تحكم حكما ذاتيا تحت رئاسة حاكم مسيحى يخضع للباب العالى مباشرة ، وبالتالى يختارة السلطان العثمانى ويعينة وعرف باسم المتصرف يساعدة مجلس ادارى مكون من ١٢عضوا عضوان من كل طائفة من الطوائف الدينية الكبيرة الست وهى الدروز ، والمارونيين ، السنيين والشيعة ، الروم الارثوذكس ، الروم الكاثوليك .

وقد اعتبر النظام الاساسى منذ عام ١٨٦٤م وحتى عام ١٩١٤ دستورا دائما بعد ان صادقت علية الدول الكبرى وهى انجلترا والنمسا وروسيا وبروسيا وتركيا فى عام ١٨٦٤م وان كانت عدة تعديلات طفيفة قد ادخلت علية كانشاء منطقة مارونية اخرى وتعديل عدد ممثلى الطوائف فى المجلس الادارى المعاون للمتصرف .

الفصل الرابع

المماليك فى العراق

- احوال العراق منذ الفتح العثمانى .
- حسن باشا .
- العلاقات بين المماليك والدول الأجنبية .
- العراق بعد حكم المماليك.

احوال العراق منذ الفتح العثمانى

كان العراق قد سقط فى يد الصفويين عام ١٥٠٨م وهم شيعة ، وصادف هذا تطلع العثمانيين الى الشرق بعد ان اتسعت فتوحاتهم فى الغرب - فى اوربا عبر البلقان - ووصلت الى مداها ، ومن هنا حدث الصدام بين الصفويين الشيعة والعثمانيين السنة على ارض العراق عام ١٥١٤م ، وكانت العراق بذلك اول قطر عربى تدخله القوات العثمانية غازية .

وكان سقوط العراق فى يد الصفويين على يد زعيمهم الشاة اسماعيل الصفوى الذى يعتبر المؤسس الحقيقى للدولة فى فارس - ايران الحالية والذى استمر فى الحكم من ١٥٠٠ الى ١٥٢٤م ويذكر بعض المؤرخين وعلى رأسهم المؤرخ البريطانى توينبى Toynbceان الشاة اسماعيل الصفوى مسئول عن تحول العثمانيين فى فتوحاتهم نحو الاقطار العربية وهو التحول الذى ادى الى صدام بين الصفويين الشيعة والعثمانيين السنة ، وذلك بمحاولات إسماعيل إثارة العثمانيين بشتى الطرق .

ورغم انتصار القوات العثمانية بقيادة سليم على القوات الصفوية بقيادة إسماعيل فى سهل جالديران عام ١٥١٤ ودخول السلطان سليم الى العاصمة الصفوية تبريز واستيلائه على اموال وكنوز الشاة ونسائه ، فأن الانتصار لم ينه العداء بين الفريقين ، بل استمر طويلا وكان العراق ميدانا للصراع والمعارك بين الطرفين ، مما جعل العراق موزعا توزيعا متوازنا بين السنة والشيعة .

ورغم حملة سليم لم يخضع العراق كله للحكم العثمانى ، بل خضع شماله فقط فى الموصل وديار بكر وحتى فى هذه المناطق لم يكن الحكم العثمانى مستقرا كل الاستقرار أما العراق الاوسط والجنوبى فقد ظل فى يد الفرس وكان هذا الإنقسام من اسباب استمرار الصراع بين الاتراك العثمانيين والصفويين ، واستفاد المغامرون وقبائل الاكراد وحكام الولايات التركية المجاورة للدولتين من هذا الصراع لمصالحهم الشخصية ، وفى عام ١٥٣٣ قاد السلطان العثمانى سليمان القانونى حملة عسكرية استولى فيها على بغداد وانضمت البصرة انذاك الى العثمانيين طواعية ، وبذلك اصبح العراق كله تقريبا خاضعا للدولة العثمانية حتى عام ١٦٣٣ عندما اعاد الصفويون الكرة واستولوا عليه وبقوا به لمدة خمس سنوات الى ان قاد السلطان العثمانى مراد حملة عسكرية عام ١٦٣٨م استولى بها على العراق واعادة الى حظيرة الدولة العثمانية .

ولم تكن حملة مراد على العراق اخر مراحل الصراع بين الفرس والعثمانيين حول العراق ، اذ انه بعد سقوط الأسرة الصفوية فى فارس على يد نادر شاة عام ١٧٣٣ الى

عام ١٧٤٧م عندما توفى نادر شاة ، وعقدت بين فارس وتركيا معاهدة جددت الحدود والتقليدية بين الدولتين مع دخول العراق فى حوزة الدولة العثمانية ، وبهذة المعاهدة انتهت فترة الصراع الطويلة بين الفرس والعثمانيين والتى كان العراق ميدانها . مما يجب الاشارة اليه ان البصرة كان لها وضع خاص ، فقد استولى عليها الفرس - الصفويون اولا فى سنة ١٦٩٧ ثم تركوها بعد عامين ، ثم أغار عليها نادر شاة عام ١٧٤٣م ثم ارتد عنها وكانت البصرة بحكم موقعها على شط العرب على راس الخليج مصدر اهتمام الدول الاوربية وقد إستفادت العشائر العربية هناك الى جانب استفادتها من الصراع الفارسى العثمانى .

حسن باشا

وفى ظل الصراع الفارسى العثمانى حول العراق كانت حاجة الدولة العثمانية الى إقرار الامور فى العراق دافعا لكى تظهر اسرة حاكمة تحكم العراق منذ اوائل القرن الثامن عشر وتستمر حتى عام ١٨٣١م هذه الأسرة حسن هى اسرة باشا الذى تعين واليا على العراق فى عام ١٧٠٤م ، فقد نجح حسن فى كسر شوكة القبائل العربية المتمردة حتى لم يعد فى استطاعة الباب العالى ان يستغنى عن خدماته . ظل حسن باشا فى الحكم متخذا من بغداد مقرا له ونادرا ما كانت كل اقاليم العراق تخضع لحكمه ، إذ كانت والبصرة كثيرا ما يعلن حكامها عدم خضوعها لباشوية بغداد ، وبقى حسن باشا فى الحكم حتى عام ١٧٣٤م حيث خلفه ابنه احمد فى الباشوية . وكان حسن باشا ومن بعدة ابنه احمد قد نجحا فى البقاء فى الباشوية بسبب تكوين قوة عسكرية من المماليك تحت امرة كل منهما - وكان لهؤلاء منزلة كبيرة عند حسن باشا واحمد باشا بسبب دورهم فى القضاء على الثورات المستمرة للقبائل العربية ، مما دفع احمد باشا الى اتخاذ قائد الفرقة المملوكية كتخداله - اى وكيلا او نائبا - وزوجه من ابنته ويدعى سليمان اغا . وعندما توفى احمد باشا عام ١٧٤٧م وكان سليمان اغا يقوم بحملة عسكرية فى البصرة حاولت الدولة العثمانية انهاء حكم هذه الاسرة واعادة العراق الى الحكم العثمانى المباشر ولكن جند الانكشارية فى بغداد رفضوا قبول الباشا الجديد الذى ارسله السلطان العثمانى وزحف سليمان اغا من البصرة ودخل بغداد بالقوة واعلن انه الباشا الشرعى ،

---

(١) د. احمد عبد الكريم : دراسات فى النهضة العربية الحديثة ص ٢٣٠

(٢) د. محمد انيس : الدولة العثمانية والشرق العربى ص ١٥١

وطلب من السلطان العثمانى إصدار فرمان بذلك ، وقد ساعده على بلوغ هدفه تقديمه الهدايا وحاجة الدولة العثمانية الى استمرار استقرار الامور فى العراق على الحدود مع فارس ، فى نفس الوقت الذى كانت قد عقدت فيه معاهدة بين فارس وتركيا لانهاء النزاع بينهما .
وبصدور فرمان من السلطان العثمانى بولاية سليمان اغا عام ١٧٤٩م تبدا سلسلة الباشوات المماليك فى العراق التى استمرت حتى عام ١٨٣١م ولكن مما تجدر الاشارة اليه ان الدولة العثمانية حاولت اكثر من مرة إنهاء حكم المماليك فى العراق ولكن محاولتها لم تكن تستمر حتى يعود الباشوات المماليك الى الحكم مرة اخرى ومن امثلة ذلك سليمان باشا الكبير(بويوق سليمان) زعيم المماليك الذى ساعدته شركة الهند الشرقية البريطانية فى تولية باشوية بغداد وبقى بها من ١٧٨٠ الى ١٨٠٢م .
ومما يذكر حول تولية سليمان الكبير ان المقيم البريطانى فى بغداد وسط سفير دولته فى الاستانة لصالح الباشا ، فأناب الباشا الشركة الانجليزية على ذلك بالرعاية والعطف اللذين اسبغهما عليها وعلى نشاطها فى العراق فى مدى عشرين عاما وقد اجابته الشركة الى ماطلبه فى سنة ١٧٨٢م من سلاح وعتاد فجبلتهما له من بومباى ، ثم اردفت ذلك بعدد من المدربين الانجليز جاءت بهم من الهند(١) وكان اخر الباشوات المماليك واعظمهم فى العراق هو داود باشا الذى حكم من عام ١٨١٧ الى ١٨٣١م .

وكان داود باشا من جورجيا وبيع فى طفولته الى سليمان باشا الكبير ، وقد استطاع بمهارته وتعلمه ان يصبح مستشارا السليمان باشا ثم زوجا لابنته ، وبعد وفاة سليمان باشا غضب عليه وعمل معلما بأحد مساجد بغداد فكون علاقات مع رجال الدين وافراد الشعب العراقى الى جانب تكوينة اتباعا من المماليك وهذه القوى ساعدته على ارتقاء الولاية .

وقد حكم داود باشا العراق حكما مطلقا لمدة ١٤سنة وكان يعاصر محمد على فى مصر وحاول تقليده فى سياسة القائمة على تركيز السلطة فى يده واحتكار تجارة الاستيراد والتصدير وزراعة اصناف جديدة من المحصولات كالقطن وقصب السكر ، وقد ادى داود لسياسة تمركز السلطة فى يدة الى خوض معارك طويلة ضد القبائل العربية وضد اكراد شمال العراق ، واذا كان قد استطاع اخماد ثورات القبائل العربية فأن اخضاع الاكراد قد ادى به الى الصدام مع الفرس الذين يؤيدون الاكراد ضد داود باشا .
وقد كان العداء بين داود باشا والفرس عنيفا انقلب اثرة المدمر على الفرس الشيعة

---

(١) د . احمد عزت عبد الكريم : مرجع سبق ذكرة ص ٤٥

المقيمين بالعراق والمصالح الفارسية فى العراق ، وانتهى هذا العداء بتوقيع صلح ارضروم فى مارس ١٨٢٣م الذى انهى اجراءات داود ضد الفرس فى العراق واعاد منطقة كردستان الى الحكم التركى .
وفى وعهدة ساءت العلاقة بينة وبين الانجليز ، وعندما صدر الامر بحل فرق الانكشارية عام ١٨٢٦م وأخذ الباشا يدرب جيشا جديدا رفض الانجليز مساعدته فى تدريب هذا الجيش وامداده بالضباط والفنيين والاسلحة مما اضطر الباشا الى استخدام ضابطين من فرنسا لتدريب جيشه وانشأ بعض الصناعات الحربية التى عهد بالاشراف عليها لخبير وفى سويسرى ، وعهد داود . باشا بدا الحديث عن فتح مواصلات سريعة بين اوربا والهند عن طريق الفرات ، وذلك بأستخدام السفن التجارية فى دجلة والفرات ، واتى الى العراق جماعة من الفنيين الانجليز لعمل مسح هذا الطريق والوقوف على مدى امكانياته (١) .
وبسبب صدام داود باشا الانجليز كاد له هؤلاء فى البلاط العثمانى وبسبب هزيمة الاتراك فى حربهم ضد روسيا عامى ١٨٢٨ / ١٨٢٩م وفرض غرامة حربية كبيرة عليهم يدفعونها للروس طلب السلطان محمود الثانى مساهمة باشواته فى دفع هذه الغرامة ، ولكن داود باشا رفض دفع اية اموال بل وقتل المبعوث التركى الذى وصل الى بغداد فى ديسمبر ١٨٣٠م مما جعل الباب العالى يعلن تمرد داود باشا ويرسل جيشا لمحاربته .
ارسل السلطان محمود الثانى عام ١٨٣١م قوة عسكرية عثمانية الى العراق دخلت بغداد ـ التى كانت تعانى من انتشار مرض الطاعون بها ـ ولم يستطيع داود المقاومة بل استسلم للقوة حيث نفى الى الجزيرة العربية حيث عمل شيخا للحرم النبوى الشريف فى المدينة المنورة الى ان مات هناك ، وبنفيه انتهت اسرة حسن باشا والمماليك فى العراق ليعود الحكم العثمانى المباشر الى هذا القطر العربى الذى كان اول قطر عربى تغزوه القوات العثمانية .

العلاقات بين المماليك والدول الأجنبية

ونتسأل قبل الاسترسال فى الحديث عن الحكم العثمانى فى العراق بعد حسن باشا والمماليك فى العراق ، ماذا كانت علاقات هذه الاسرة بالدول الاجنبية ؟ لقد كان الاهتمام الانجليزى بالعراق سببه اتخاذ الخليج والعراق وشمال بلاد الشام طريقا

(١) نفس المصدر ص ٢٣٤

للمواصلات السريعة بين لندن والسلطات البريطانية فى الهند وهذا الى جانب الاهمية العسكرية للخليج العربى بالنسبة للهند ، وان كان هذا الاهتمام العسكرى لم يظهر بشكل واضح الابعد الحملة الفرنسية على مصر[١]

وكانت انجلترا فى سبيل ذلك قد تحالفت مع فارس عى طرد البرتغاليين من الخليج (من هرمز) وورثت الامبراطورية الهولندية فى جزر الهند الشرقية ، وفى الوقت الذى كان الانجليز يبدون اهتمامهم بالعراق كانت اسرة حسن باشا والمماليك تحكم ذلك القطر العربى فى ظل تبعية اسمية للسلطان العثمانى بينما ينفردون بالحكم فى العراق ويدعمون استقلالهم الفعلى عن الدولة العثمانية ، وهم فى ذلك فى حاجة الى تأييد دولة اجنبية قوية ضد محاولات السلطنة العثمانية انهاء حكمهم وضد شاهات فارس للاغارة على ملكهم . وكانت انجلترا هى تلك الدولة الاجنبية التى سارعت الى تاييد هؤلاء الباشوات .

وقد احتلت التجارة الانجليزية فى العراق وفارس الاهتمام الاكبر عند انجلترا ، وكانت شركة الهند الشرقية البريطانية تعد وكالتها التى انشأتها بالبصرة عام ١٦٤٣م مركز تجارتها الرئسى ، ولكنها لم تنشىء لها تمثيلا فى بغداد الا فى سنة ١٧٥٥ وجعلته اولا تابعا للبصرة[٢] وقد شجع الحكومة البريطانية على انشاء هذه الوكالة ما تمتع به العراق من استقرار واصلاح فى عهد الباشوات المماليك الذين كانوا فى حاجة الى علاقات طيبة مع الانجليز .

وكان هذا التقارب بين الباشوات المماليك والانجليز لمصلحة الطرفين ، ففى الوقت الذى أيد الانجليز الباشوات المماليك امام اطماع شاهات ايران وامام محاولات السلطان العثمانى إنهاء سيطرة الباشوات المماليك على العراق ، رضى هؤلاء الباشوات بتطبيق قاعدة الامتيازات التى كانت تمنحها الدولة العثمانية للاوربيين وهى ٣٪ الأمر الذى أدى الى نشاط التجارة البريطانية فى الخليج العربى[٣]

ولكن العلاقات الطيبة بين الطرفين شابها فتور بل وعداء ، بعد ان اصبح فى بغداد مقيم بريطانى ثابت اصبح له اختصاصات فنصلية عام ١٨٠٢ واصبحت بغداد منذ هذا التاريخ القاعدة الاولى للنفوذ الانجليزى فى العراق بعد ان كانت البصرة تحتل هذه المكانة ، وعلى الرغم من ان الباشا استمر يرعى المصالح البريطانية فى العراق ويقدم

---

(١) د . محمد انيس ، الشرق العربى ص٩٩

(٢) د احمد عزت عبد الكريم . مرجع سبق ذكرة ص ٢٣٢

(٣) د . محمد انيس : الشرق العربى ص ١٠٠

التسهيلات للرعايا البريطانيين حتى فى وجود حالة حرب بين انجلترا والدولة العثمانية عام ١٨٠٧م . رغم كل ذلك فقد اتخذ داود باشا اخر الباشوات المماليك منذ عام ١٨١٧ موقفا عدائيا من النشاط الانجليزى الذى كان على قمتة القنصل الانجليزى جيمس ريتش richمنذ عام ١٨٠٨م . ويبدو ان نشاط القنصل المتزايد واتصالاته الواسعة مع الموظفين الاتراك والاشراف وشيوخ البادية قد اثار مخاوف داود باشا حتى انه لم يتورع عن ان يعلن فى عام ١٨٢٠م انه لاتوجد حقوق اوربية فى بغداد . واردف ذلك بزيارة الرسوم الجمركية على البضائع البريطانية واصبح داود باشا واثقا انه لن يستطيع الاعتماد على شركة الهند الشرقية او السفارة البريطانية فى الاستانة ، بل تاخذت هذه السفارة على عاتقها ان تكبد لداود باشا فى الدوائر العثمانية حتى نهاية حكمة عام ١٨٣١م[١] وعلى الرغم من ان العلاقات بين فرنسا والدولة العثمانية كانت فى مجملها علاقات طيبة وودية الا انه بالنسبة للعراق فى عهد اسرة حسن باشا والباشوات المماليك لم تسطيع فرنسا ان تنافس بريطانيا فى هذه الولاية العثمانية ، ورغم انه كان لفرنسا قنصل فى البصرة الا ان المصالح الفرنسية فى العراق لم تكن كبيرة ، وكان الوكلاء الفرنسيون لايلقون رعاية ولا اهتماما من السلطات الحاكمة بسبب ما عرف من انهيار النفوذ الفرنسى فى الهند ، وانعدام اى نفوذ لهم فى الخليج[٢] ومع ذلك ورغم اعتقال الفرنسيين فى جميع انحاء الدولة العثمانية ومنها العراق عقب غزو بونابرت لمصر عام ١٧٩٨م الا ان باشوات العراق إستخدموا بعض الفرنسيين ، فقد استخدم سليمان باشا طبيبا فرنسيا واستخدام داود باشا ضابطا فرنسيا ايضا لتدريب جيشه بعد ان اختلف مع انجلترا كما سبق ان ذكرت .

العراق بعد حكم المماليك

عاش العراق بعد حكم المماليك تابعا تبعية كاملة للدولة العثمانية ، وحرص الولاة الذين حكموة بأسم السلطانى من عام ١٨٣١ الى ١٩١٤م على اخضاع العراق للحكومة المركزية باستانبول والقضاء على اثار استقلال العراق الذى عمل له الباشوات المماليك وقد أدت سياستهم هذه الى ان تصبح سلطتهم على العراق وهمية وضعيفة عجزت عن القضاء على القبائل العربية المتحاربة فيما بينها او المحاربة للباشوات الاتراك ، وهذه القبائل ساندها محمد على والى مصر الذى كان يتطلع فى ضم العراق الى

---

(١) د. احمد عزت عبد الكريم : مرجع سابق ٢٣٣
(٢(نفس المصدر ص ٢٣٢

الكتلة العربية التى حرص على إقامتها فى المنطقة بعد ان ضم بلاد الشام والحجاز والسودان الى مصر وكانت سلطة الباشوات الاتراك ضعيفة ايضا فى مواجه اكراد شمال العراق الذين يؤيدهم شاهات فارس ، وقد استمرت الحرب دائرة بين الباشوات الاتراك وبين الاكراد من عام ١٨٣١م الى ١٨٤٢م حتى عقدت فى مايو عام ١٨٤٧م. معاهدة ارضروم الثانية بين تركيا وفارس حددت الحدود بين الدولتين تنازلت بمقتضاها فارس عن السليمانية ومناطق اخرى مقابل تنازل تركيا لفارس عن الساحل الايسر لشط العرب ومناطق اخرى ، ولكن هذه المعاهدة لم تنه الانتقاضات الكردية ضد الحكم التركى المباشر الذى بقيت سلطته وهمية وقد شهدت العراق عهدا من الاصلاح فى عهد ولاية مدحت باشا(١٨٦٩ - ١٨٧١) حيث شمل الاصلاح نواحى متعددة كالتعليم ونظام الحجر الصحى ومع ذلك بقى نظام الطابو[1] أو إدارة تسجيل الاراضى ، من اهم الاعمال التى تمت على يد مدحت باشا وهو نظام كان يهدف الى استقرار القبائل فى الاراضى الزراعية[2] هذا الى جانب اهتمامه بربط العراق بحريا بكل من استانبول ولندن بعد ان فتحت قناة السويس للملاحة العالمية ، وغير ذلك من مشروعات المواصلات لربط اجزاء العراق بعضها ببعض وربطها مع سوريا وتركيا ، وأدخال الخدمة العسكرية ولكن هذه المشروعات لم يقدر لها التنفيذ حيث نقل مدحت باشا عام١٨٧١ الى ادرنة وقد استمر الوضع غير مستقر فى العراق بسبب انقسام العراق الى سنة وشيعة استغلة سلاطين ال عثمان لبقاء نفوذهم فى العراق مع محاباة للسنة العراقية ، وانقسام العراق الى غرب واكراد على استعداد للثورة مستمدين للتأييد من قوى خارجية ، وانقسام العراق الى حضر وبادية مع اختلاف التكوين الثقافى والاجتماعى بين سكان المدن والقبائل والعشائر العربية المتمسكة بتقاليدها البدوية الراسخة فى القدم .

حاول الولاة اقتفاء اثر مدحت باشا ولكنهم فشلوا فى تحقيق اية برامج اصلاحية فى العراق وذلك لانشغال الدولة بأحداثها الداخلية المتمثلة فى الصراع بين السلاطين وبين العثمانيين الجدد(يكى عثمانلر) وهم جماعة من الضباط الاتراك والمواظفين والمثقفين الاحرار ، وذلك الصراع الذى انتهى بحدوث انقلاب مايو عام ١٨٧٦ ضد السلطان

---

(١) يعنى الطابو قيام إدارة التسجيلات ببيع اراضى الحكومة بأقساط صغيرة سهلة لدفع ومنح هذا الحق بصفة خاصة لشيوخ القبائل بحيث تسع قطعة الارض القبيلة التى يتولون رئاسها وقد ادى هذا النظام الى ان اصبح الكثر من شيوخ القبائل ملاكا زراعيين وإقطاعيين كبار .

(٢) د . محمد انيس : الشرق العربى ص ٥٠ ص ص ١٣١

عبد العزيز ، وانقلاب اغسطس من نفس العام ضد مراد الخامس وكانت نتيجته المناداة بعبد الحميد سلطانا فى ظل دستور وضعه مدحت باشا الذى اختارة السلطان وزيرا ثم انقلاب عام ١٨٧٧م ضد الدستور ونفى مدحت باشا وترك العراق نهبا لاطماع الدول الاوربية وصراعها ، فبينما حصل الألمان على امتياز مد خط سكة حديد من برلين الى بغداد ، وقفت انجلترا امام هذا المشروع لانه يهدد المصالح البريطانية فى العراق والخليج والهند ، وحصلت انجلترا على احتكار التجارة مع العراق ، واحتكار نقل البضائع بين العراق وانجلترا .

استمر الوضع فى العراق على هذا النحو فى ظل حكم السلطان عبد الحميد الذى حاول التأثير فى الأقطار العربية عن طريق الترويج لفكرة الجامعة الاسلامية التى تعيد له السيطرة الكاملة على تلك الاقطار لتقف ضد النفوذ الاجنبى المتزايد فى ولايات الدولة وخاصة الولايات العربية .

استمر هذا الوضع حتى ثورة ١٩٠٨ بقيادة جماعة الاتحاد والترقى او تركيا الفتاة ضد استبداد السلطان عبد الحميد ، ورغم فرح العراقيين وبقية بهذة الثورة ومؤازرة العرب للقائمين بها ، الا ان العراقيين شاركوا مع اخواتهم العرب فى تشكيل الجمعيات السرية المناهضة لسياسة التتريك التى اتبعتها حكومة الاتحاديين والمعادية للعروبة ٠٠٠ تلك الجمعيات التى كانت مقدمات لصدام بين العرب والأتراك فى الحرب العالمية الاولى انتهت بأنحسار الحكم التركى عن العراق وغيرة من اقطار المشرق العربى .

الفصل الخامس

الأسرة الحسينية فى تونس

- تونس قبل الأسرة الحسينية .
- الأسرة الحسينية .
- تونس بعد احتلال الجزائر .

تونس قبل الأسرة الحسينية

كان اتجاه الدولة العثمانية إلى بسط نفوذها فى أقطار الشمال الأفريقى مما يكمل سلسلة الفتوحات العثمانية فى الشرق العربى ، وفى نفس الوقت لأحكام الحلقة حول البحر المتوسط ، بالاضافة الى مطاردة الأسطول الأسبانى وفرسان القديس يوحنا الذين طردهم العثمانيون من جزيرة رودس وأستقروا فى جزيرة مالطة ، مطاردة هؤلاء بسبب إغاراتهم الصليبية ضد الأقطار الأسلامية فى شمال أفريقية .

واذا كان النفوذ العثمانى قد وجد طريقة إلى الجزائر باعلان خير الدين بارباروسا عام ٥١٨ م ولائه للسلطان سليم الأول الذى سارع بالأنعام عليه بلقب بك وتعيينه « بجلربك » أى أمير الأمراء . فأن النفوذ العثمانى قد وجد طريقة إلى تونس عام ١٥٧٤ م بأنتصار سنان باشا قائد الأسطول التركى على التحالف الصليبى المكون من فرسان القديس يوحنا وأسبانيا والبندقية

ومنذ عام ١٥٧٤ م صارت تونس باشوية عثمانية خاضعة مباشرة للسلطان العثمانى ، وطبق عليها نظام الحكم الذى وضعته الدولة العثمانية لحكم ولاياتها ، وكان الى جانب الباشا وقادة الفرق العثمانية الانكشارية ورؤساء القرصان أى رجال البحر ، قوة أخرى لها مكانتها وهى سلطة أغوات القوات غير النظامية الذين عرفوا بالدايات حتى تغير الأسم عام ١٧٠٥ إلى لقب الباى .

ومنذ عام ١٦١٢ ، إلى ١٧٠٢ ، حكمت تونس أسرة الدايات المعروفين بالأسرة المرادية نسبة إلى مؤسسها الأول المعروف بأسم مراد بك الذى حكم من ١٦١٢ — ١٦٣١ م ، وتلاه آبنه حموده من ١٦٣١ — ١٦٥٩ م الذى استطاع إقرار الأمور فى تونس بالقضاء على ثورات القبائل العربية وصد هجمات فرسان القديس يوحنا على السواحل التونسية .

وخلف حموده بك مراد بك الثانى من ١٦٥٩ — ١٦٧٥ م الذى اشتهر بقسوته ، ولكنه ترك أبناءه بعده يتصارعون مع عمهم على منصب الداى حتى انتهت الأسرة المرادية عام ١٧٠٢ م بقتل جميع أفرادها على يد أغا إبراهيم .

وعادت تونس إلى الحكم المباشر العثمانى حتى استطاع زعيم الفرسان ألاغا حسين بن على أن يستغل فترة الفوضى والخلاف التى أعقبت أنتهاء حكم الأسرة المرادية ، والتنازع على السلطة فتحبب إلى أهل البلاد والى بعض قادة الجند حتى نادوا به بايا على تونس عام ١٧٠٥ م ، لكنه لم يكن من ذلك النوع من الرجال الذى يقبل أن يعيش تحت رحمة قوى أخرى يمكنها أن تعزله متى شاءت .

الأسرة الحسينية

استطاع حسين بن علي مؤسس الأسرة الحسينية أن يجعل حكمه في تونس وراثيا منذ عام ١٧١٠ م واستمرت الأسرة تحكم حتى حدث الاحتلال الفرنسي لتونس عام ١٨٨١ م ، وقد عمل مؤسس الأسرة على المحافظة على الحكم الوراثي ووقف ضد كل تدخل من دايات الجزائر ومن الدول الأوربية ، وضمن في تونس عهدا من الامن والاستقرار والتقدم الاقتصادي ، والازدهار العمراني وتعاون مع الدول الأوربية على قدم المساواة بعقد المعاهدات التجارية التي تدر دخلا لبلده ورواجا لأهلها .

وتوالى أفراد هذه الأسرة على الحكم كان منهم محمد بك بن حسين مؤسس الأسرة الذي حكم لمدة ثلاث سنوات ١٧٢٦ ــ ١٧٢٩ م ، وخلفه أخوه علي بك الذي حكم فترة طويلة من ١٧٢٩ ــ ١٧٨٢ م والذي شهد عهده سلاما مع الدول الأوربية خاصة أنجلترا وفرنسا ، كما شهد استقرارا للأمور في تونس ، وخلفه حموده بك بن علي من ١٧٨٢ ــ ١٨١٤ م الذي استطاع حل فرق الأنكشارية وتشتيت أفرادها بتأييد التونسيين ، كما استطاع إنهاء العلاقة الخاصة التي تربط تونس بالجزائر وواصل سياسة عقد المعاهدات التجارية والسياسية مع الدول الأوربية ، كما واصل سياسة مؤسس الأسرة في الناحية العمرانية .

وخلف حمودة بك بن علي الباي محمود بن محمد بك من ١٨١٤ ــ ١٨٢٤ م ، وبعده حسين بك من ١٨٢٤ ــ ١٨٣٥ م ، الذي واجه التنافس الانجليزي الفرنسي للأستئثار الأعلى في تونس ، كما شارك أسطول الباي حسين بك في معركة نوارين البحرية ببلاد اليونان ودمر هناك مع الأس طولين التركي والمصري وذلك أستجابة منه لطلب السلطان العثماني ، كما أنه حفاظا على كرسي الحكم وعلى تونس وقف موقف الحياد من الغزو الفرنسي للجزائر عام ١٩٣٠ م . وجاء للحكم الباي أحمد من ١٨٣٥ ــ ١٨٥٥ م في وقت تعيش فيه تونس أزمة مالية وقوة عسكرية ضعيفة بعد تحطم الأسطول التونسي في نوارين دون تعويض من السلطان العثماني ، ولذلك وجدنا الباي يستسلم لنفوذ الدول الأوربية الكبرى وخاصة انجلترا وفرنسا ، فظهرت المدارس والكنائس الأجنبية ، ومع ذلك ظل مستعدا للأعتراف بالسيادة العثمانية ، بل ولم يتقاعس عن المشاركة في حر القرم في صف السلطان العثماني .

وجاء بعده الباي محمد الصادق عام ١٨٥٥ ، الذي استمر في الخضوع للنفوذ الفرنسي بصفة خاصة حتى زادت الامتيازات الفرنسية في تونس بصورة كبيرة وأن كانت المصالح الأيطالية في تونس قد وجدت طريقها هي الأخرى للانتشار في تلك

البلاد ، ولاغرو فى ذلك فكلا الدولتين كانتاتطمعان فى الإستيلاء على تونس بل وتتنافسان على ذلك تنافسا حادا .

ولكن الباى فى نفس الوقت يبدى أعترافه بالسيادة العثمانية على تونس ، بل ويساهم فى الحرب التركية بتقديم مساعدات غذائية للقوات التركيةالمحاربة ، وفى نفس الوقت كان يبدى قلقه من الأطماع الفرنسية ولأيطالية اسافرة لاحتلال تونس .

وجاء بعد محمد الصادق الباى محمد الذى حكم من ١٨٦٤ م الى مجىء الاحتلال الفرنسى عام ١٨٨١ م ، الذى اشتهر عهده بأزمة مالية أدت الى تدخل انجليزى فرنسى فى شئون تونس الداخلية أفضى فى النهاية بالاحتلال الفرنسى .

واذا كان الحكم فى الاسرة الحسينية كان حكما وراثيا فأنه كان لأكبر أفراد الاسرة ولم يكن ليصبح سارى المفعول الا بعد صدور فرمان من السلطان العثمانى بتعيين الباى الجديد ، ونظرا لموقع تونس بل والجزائر فى مواجهة أوربا كانت الفرمانات السلطانية تسمح للبايات فى تونس وللدايات فى الجزائر بعقد المعاهدات التجارية والمالية بما يدعم الاستقلال المالى لهذه الولايات .

وكان الباى هو رئيس الدولة ، وبالتالى فهو قائد عام للقوات المسلحة ، وان كان الباى يستعين بوزراء فى تصريف الشئون الداخلية ، وإن كان يقلل من سلطة الوزراء وجود امتيازات ضخمة للأجانب أدت الى خراب البلاد الاقتصادى بسبب تهرب الاجانب من المساهمة فى الاقتصاد التونسى رغم ضخامة مايملكونه من أملاك واسعه ، وبسبب مقاومتهم لكل اصلاح مالى أو دستورى والاحتماء بالقناصل وعدم المثول أمام القضاء الوطنى .

تونس بعد احتلالا الجـــزائر

كان احتلاك فرنسا للجزائر عام ١٨٣٠ م مقدمة طبيعية لاحتلالها لتونس وقد حاول بآيات تونس كسب ود فرنسا لتأجيل الاحتلال الفرنسى لبلادهم من ذلك أن الباى حسين الذى حكم من ١٨٢٤ م الى ١٨٣٥ م سارع الى القنصل الفرنسى « ماثيو دليسبس » ليبدى له موافقته على مافعلته فرنسا بجارته ، ويبدى استعداده لتموين جنود الحملة باللحوم اللازمة ، بل أرسل رجلا من خاصته الى الجنرال بورمون Bourmont قائد حملة الاحتلال الفرنسية للجزائر ليهنئه بالنصر الذي كسبه [١]

ومن ذلك الحين عاش بايات تونس تحت تهديد وخوف من احتلال فرنسى

---

(١) د . زاهر رياض / شمال أفريقيا فى العصر الحديث ص ١٨٣

مرتقب ، ولذلك لم يستطيعوا الوقوف أمام المطالب الفرنسية المتزايدة التى أدت الى مزيد من الامتيازات الفرنسية فى تونس فى مجالات السياسة والاقتصاد بل وحتى فى النواحى الروحية كاجبار الباى على بناء كنائس وأقامة تماثيل للقديسين كتمثال القديس لويس . وكانت نتيجة هذه الامتيازات أن إرتبكت أحوال البلاد السياسية والاقتصادية ، وكان نتيجة لهذا الارتباك تدخل أجنبى للاشراف على الشئون المالية لتونس .

ونتيجة لضعف البايات وتخاذل تركيا ، وزيادة أمتيازات فرنسا ، أن فتح باب التدخل والتنافس الاجنبى فى تونس بصورة وضعت البلاد تحت أشراف دولى على الاقل من الناحية المالية ذلك أن انجلترا لم تكن لتقبل أمتداد النفوذ الفرنسى من الجزائر الى تونس ، كما أن ايطاليا تطمع منذ زمن طويل أن تحذو فى تونس حذو فرنسا فى الجزائر ، وأن كانت لم تجرؤ على أن تخطوا خطوة حاسمة فى هذا السبيل خشية أن تخلق بذلك أزمة دولية .[1]

وأنتهى الامر بتونس الى الوقوع تحت الاحتلال الفرنسى ، الذى حدث بصورة تدريجية فزحفت القوات الفرنسية من الجزائر الى الاراضى التونسية بحجة بحجة تأديب بعض القبائل التى تعرضت للمصالح الفرنسية ، ولم تفرض الحماية الفرنسية مباشرة ، وأنما فرضت على الباى معاهدة يضع نفسه تحت وصاية فرنسا مع بقائه فى كرسى الحكم مسلوب السلطة .

الفصل السادس

الأســرة القـرمـانـلـيــــــة

- أحوال ليبيا .
- أمراء الأسرة القرمانلية.
- تقييم للحكم القرمانلى.
- العصر العثمانى الأخير.

أستولى الأسبان على طرابلس الغرب (ليبيا) عام ١٥١٠ م وأستمروا بها حتى عام ١٥٣٥ م حينما تنازلت عنها أسبانيا لفرسان القديس يوحنا الذين كانوا يتخذون من جزيرة مالطة مقرا لهم بعد أن طردهم الأتراك العثمانيون من جزيرة رودوس ، والذين كانوا ــ كما ــ كان ــ الأسبان ــ يشنون حربا صليبية ضد الاقطار الاسلامية العربية المطلة على البحر المتوسط . وقد ظل فرسان القديس يوحنا يحتلون طرابلس حتى عام ١٥٥١ م عندما قدم الأتراك العثمانيون وأخذوها منهم بناء على استنجاد بعض آهلها بهذه القوة الاسلامية الفتية وأعنى قوة الأتراك العثمانيين .

ورغم أن الأسبان ثم فرسان القديس يوحنا لم يستولوا على كل ليبيا وآقتصر آستيلاؤهم على مدينة طرابلس وما جاورها ، فأن هذه المدينة قد نبعت أهميتها من آتصالها بمصر وموقعها الجغرافى على طريق الحج العظمى من المغرب الى مكة ثم الطرق التجارية بين أفريقيا وأوربا ، فمن طرابلس كان هنالك طريق بحرى قصير نسبيا ولهذا فهو أمين ــ إلى أوربا مارا بجزيرة مالطة ثم صقلية[١]
الى جانب طرق القوافل التى تربط طرابلس بالاقاليم الأفريقية عبر الصحراء الكبرى .

كانت هذه الظروف دافعا للأسبان ثم فرسان القديس يوحنا الأستيلاء على طرابلس والبقاء بها ، كما كان من أسباب هذا الأستيلاء أيضا أن أهلها بعد دخولهم فى طاعة الموحدين كثرت أموالهم وتجارتهم وآطمأنوا ولم يشتغلوا بالحرب حتى لم تكن لهم به خبرة[٢]

وكان أستيلاء العثمانيين على طرابلس الغرب يمثل أكمال الحلقة فى أملاك الدولة العثمانية بعد استيلائهم على العراق ومصر والشام فى أوائل القرن السادس عشر ، وبعد

---

(١) ريتشلرد تولى : عشر سنوات فى بلاط طرابلس ص ٨
(٢) ابن غلبون ، تاريخ طرابلس الغرب ص ٩٢

آن أمتد نفوذهم بصفة فعلية على الجزائر عام ١٥١٨ م ولذلك كان مجيئهم الى طرابلس الغرب أمرا طبيعيا يتسق مع تطور الحوادث التى مرت بأقطار الوطن العربى الذى أخذت آجزاؤه تخضع للقوة العثمانية الواحدة بعد الأخرى .

كما كان استيلاء العثمانيون على طرابلس الغرب يمثل قمة الصراع البحرى بين الاسطول العثمانى وأساطيل الدول الأوربية المنافسة المتمثلة فى الأسطول الأسبانى وأسطول فرسان القديس يوحنا تلك الأساطيل التى مارست نشاطا صليبيا ضد الأراضى العربية الاسلامية .

أستمر تسلط فرسان القديس يوحنا على طرابلس حتى وصول حملة عسكرية عثمانية بقيادة « سنان باشا » قائد الأسطول التركى الى طرابلس فى ١٣ شعبان ، ٩٥٨ ه الموافق ١٦ أغسطس ١٥٥١ م ، ومن هذا التاريخ أصبحت طرابلس الغرب ولاية عثمانية كغيرها من الولايات العثمانية فى الوطن العربى الكبير .

استمر الحكم العثمانى المباشر لليبيا من ١٥٥١ م حتى عام ١٧١١ م فيما عرف بالعصر العثمانى الأول الذى أنتهى ليبدأ حكم الأسرة القرمانلية ، وقدعاشت ليبيا أثناء العصر العثمانى الأول وبصفة خاصة أواخر القرن السادس عشر وطول القرن السابع عشر تعانى من الفوضى الشاملة التى حلت بالبلاد نتيجة سوء الحكم والأدارة وقيام الثورات الشعبية فى مختلف أنحاء البلاد ، والفتن بين الجند الانكشارية والقولوغلية[١] الذين أنصرفوا عن مهمتهم الأصلية وهى الدفاع عن البلاد الى مهمة أخرى سعوا من ورائها الى الكسب والشهرة وهى عزل الولاه أو الثورة عليهم والسلب والنهب من الأهالى ، وتولية من يشاؤن فى منصب الوية حتى وجدنا ترزيا يتولى منصب الولاية لمدة سبعة أشهر عام ١٠٩٧ ه يدعى ابراهيم الترزى[٢] ووجدنا بائعا للقهوة هو عثمان

---

(١) القولو أو غلية طبقة اجتماعية جديدة نتجت من أن درغوث باشا ثانى الولاء الأتراك أحضر معه عدة الاف من جند الأنكشارية ، وبمرور الزمن اختلطت بالاهالى وتناسلت فتكونت طبقة القول أو غلية التى كانت قليلة العدد فى أول الأمر ثم سرعان ماتكاثرت وزاد نفوذها بما حصلوا عليه من امتيازات عسكرية ومالية .

(٢) طاهر الزاوى : ولاة طرابلس ص ٢٠٤ .

القهوجى يتولى الولاية لمدة ثلاثة أشهر وخمسة وعشرين يوما . وقد وصفه ابن غليون[1] بأنه كان يطبخ القهوة بسوق الترك ويصفه أحمد النائب[2] بأنه كان فظا ذا جفاء وغلظة عاجزا عن القيام بأعباء الولاية ، بايعه الجند فى الليلة التى خلعوا فيها سلفه محمد الامام عام ١٩١٢ م . ١١١٢هـ

وقد تولى حكم ليبيا فى أوائل القرن الثامن عشر من ١٧٠١ الى ١٧١١ م تسعه ولاة انصرف الكثير منهم كغيرهم من الولاة الذين سبقوهم إلى الاشتغال بمصالحهم الشخصية دون القيام بأى عمل للقضاء على حالة الفوضى التى كانت تعم البلاد ، وكانت هذه الحالة تستلزم وجود شخصية قوية تستفيد من هذه الحالة لتظهر أمام الناس كمنقذ من هذه الحالة التى تعانى منها البلاد .

ويمكن أن نلخص الظروف التى عاشتها ولاية طرابلس الغرب(ليبيا) أثناء العصر العثمانى الأول والتى أدت فى النهاية الى ارتقاء أحمد القرمانلى للحكم فى طرابلس واليا فيما يأتى :

أولا : موقع هذه الولاية من الممتلكات العثمانية وبعدها عن الأستانة ، وعدم تصور الحكومات العثمانية المتعاقبة لحقيقة الوضع فيها[3] جعل هذه الولاية لاتأخذ من اهتمام الدولة العثمانية الشىء الكثير ، هذا الى جانب أن هذه الولاية لم تكن تدر اموالا كثيرة على الدولة ، ولذلك لم يكن لولاية طرابلس الغرب ولا لشعبها صوت مسموع عند الباب العالى ،

ثانيا : رغبة الحكومة العثمانية فى بقاء ليبيا عثمانية أدى الى عدم ابقاء الوالى فى مركزه لفترة طويلة مخافة أن يستقل بالبلاد مما أدى الى أن جميع الولاة الذين تولوا حكم البلاد لم يكن لهم سياسة واضحة ومحددة فى استغلال الاراضى الزراعية أو تشجيع الصناعات المحلية أو التجارة الداخلية والخارجية كما لم تكن لهم سياسة

---

(١) ابن غلبون : مرجع سبق ذكره ص ٧٠
(٢) أحمد النائب : المنهل العذب فى تاريخ طرابلس الغرب
(٣) محمد مصطفى بازامة : بداية المأساة أو التمهيد السياسى للاحتلال الأيطالى لليبيا ص ٣٠

معينة فى نشر التعليم والعناية بالصحة ، ولم تكن هذه السياسة العثمانية خاصة بولاية طرابلس الغرب فقط بل كانت سياسة عامة[1] خضعت لها كل الولايات العربية .

ثالثا : سعة رقعة البلاد وقلة عدد السكان فيها وانعدام المواصلات وبطء الحركة كل ذلك أخر سيطرة العثمانيين على كل ليبيا بل أدى الى أن تكاد سيطرة الوالى العثمانى تقتصر على المدن الساحلية فقط ، بينما البلاد الداخلية لاتخضع لهذه السيطرة ، وكثيرا ما أعلنت الثورة عليها ، ولقد ظهرت ثورات كثيرة من الليبين ضد هذه السيطرة وصعب على الولاة أخضاعها .

رابعا : التمسك بأحتلال ليبيا وأستمرار هذا الأحتلال كهدف أستراتيجى يسهم فى تأكيد سيطرة العثمانيين على البحر المتوسط ومعظم البلاد المطلة عليه وخصوصا فى قارتى آسيا وأفريقيا ، وقد أستدعى هذا أن جاء احتلالهم لطرابلس قاصرا على الساحل دون النظر كثيرا للداخل ، بل آن اخضاع فزان وبدقة جاء متأخرا بعد احتلال طرابلس بسنوات كثيرة ، ونتيجة لذلك انحدرت هيبة الوالى والدولة وكثرت الفتن المتلاحقة وثورات القبائل[2] فى الداخل .

خامسا : كان اهتمام الدولة العثمانية بولاية طرابلس الغرب عسكريا أكثر منه مدنيا واقتصرت عناية بعض الولاة على المدن الساحلية ، ولذلك لم تنتعش ابلاد فى أيامهم بل بالعكس تجمدت حيث كانت مما جعلها مسرحا للفوضى وسوء الحكم ، كما تعيد هذا العصر العثمانى الأول بسياسة المحافظة على الوضع القائم كما هو دون تغيير والحرص على أستمرار بناء البلادتدين بالولاء للسلطان العثمانى ، وقد دفع هذا الحرص الولاة على عدم أدخال تغييرات أساسية فى نظم البلاد الداخلية ولا فى حياة أهلها .

---

(١) د . رأفت الشيخ : تطور التعليم فى ليبيا فى العصور الحديثة ص ٣٤

(٢) محمود الشنيطى : قضية ليبيا ص ٢٤

« أمراء الأسرة القرمانليـــة »

أدى ضعف الدولة العثمانية وانهيار تنظيمات الحكم العثمانية فى أوائل القرن الثامن عشر الى أستئثار الكثيرين من قادة الجند أو زعماء العصبيات المحلية بالسلطة المحلية فى بلادهم ومن بين هؤلاء كان أحمد القرمانلى وهو أحمد بن يوسف بن محمود بن مصطفى القرمانلى نسبة الى القبيل (القبيلة) المشهورة بالأناضول ؛ كان أبوه عاملا وبعده ولى خليل باشا والى طرابلس الغرب أبنه أحمد القرمانلى عمل أبيه على ساحل المنشية[1] .

وكان أحمد القرمانلى سليل أسرة تركية جاء مؤسسها الأول كأحد جنود ال قائد التركى درغوت باشا فى عام ١٥٥٣ م الى طرابلس وتزوج زوجة عربية ليبية ، ثم تدرج أفراد هذه الأسرة فى المناصب المختلفة فى ولاية طرابلس الغرب حتى تولى أحمد عمالة المنشية وهى ضاحية من ضواحى مدينة طرابلس تقع على الساحل من قبل الوالى . ويذكر المؤرخون أن أسم القرمانلى يرجع الى انتماء الى بلدة قرمانيا الواقعة جنوبى هضبة الأناضول بآسيا الصغرى ، فهو تركى الأصل .[2]

كان أحمد طموحا واسع الحيلة ولذلك وقف موقف المتفرج من الخلافات التى كانت قائمة بين الباشا والديوان وجند الأنكشارية والقول أو على غليه ، وأظهر أنه لايخاز لأى فريق ، أنه الشخصية التى يمكن لها السيطرة على الموقف ، وذلك حتى يفوز برضاء الجميع ، وكان موقفه حكيما اذ كفى نفسه شر الأنغماس فى هذا الصراع مؤقتا حتى يضعف أطراف الصراع فيسهل أمامه طريق الوصول الى كرسى الولاية .

وقد استطاع أحمد بهذه السياسة أن يستقطب كثيرا من جند الأنكشارية وأعضاء الديوان بل ومعظم أعيان طرابلس ، وأن يؤثر فيهم حتى أجمعوا على توليتة واليا على

---

(١) ابن غلبون : مرجع سبق ذكره ص ١٩٠

(٢) حسن محمود : ليبيا بين الماضى والحاضر ص ١٨٠

طرابلس الغرب[1] وكانت بيعته على يد أهل البلدين الساحل والماشية ضحوة الثلاثاء ثالث عشر جمادى الآخر عام ١١٢٣ هـ [2] وقد كان أخلص المؤيدين له طوائف القولوغلية وعرب الجبل[3] وكان عمره آنذاك خمس وعشرون سنة .

بعد أن أستقر الحكم لأحمد القرمانلى تخلص من القرى التى ساعدته فدبر مذبحة ثتل فيها ثلاثمائة من قادة الجند الأنكشارية ، وأهمل رأى أعيان طرابلس ، زأخمد الثورات والفتن القبلية ، ثم استرضى السلطان العثمانى بالهدايا حتى يضمن بقاؤه فى الولاية .

وقد أهتم أحمد القرمانلى بالأسطول واعلن الجهاد الاسلامى ضد السفن الأوربية فيما عدا السفن التى تعهدت بلادها بدفع الأتاوة السنوية له ، واهتم بتجارة القوافل بين الولاية ووسط وغرب أفريقيا مما يساعد على توفر الأموال فى خزينة الباشا فاتجه الى الأنشاءات الدينية كامساجد والتعليمية كالمدارس الدينية . والعمرانية كالقلاع والحصون والبناء .

وقد تولى أحمد القرمانلى فترة أمتدت لمدة ٣٤ عاما من ١٧١١ الى ١٧٤٥ م استطاع خلالها تثبيت حكم الأسرة القرمانلية وأن يجعل ولاية طرابلس وراثية لبنيه من بعده ، ولذلك بعد وفا ته ولى ابنه محمد والبلاد مستقرة والأموال متوفرة فسار على نهج ابيه فى مهاجمة سفن الد ول الأوربية فى البحر المتوسط .

وبعد محمد تولى ابنه على الأول عام ١٧٥٤ م الذى شهدت البلاد فى اول عهده حالة من الأستقرار والانتعاش الأقتصادى ، ولكن فى نهاية عهده ساءت الأحوال نتيجة الثورات الداخلية وشيوع النهب والسلب حتى اغتصب الولاية منه المغامر على برغل عام ١٧٩٣ م ففر على القرمانلى وأسرته الى تونس ولكنه لم يكن أحسن من سابقه مما جعل الأسرة القرمانلية تستعيد حكم الولاية مساعدة والى تونس عام ١٧٩٥ م .

---

(١) د . رأفت الشيخ : مرجع سبق ذكره ص ٣٨
(٢) ابن غلبون : مرجع سبق ذكره ص ١٦١
(٣) أحمد الدجانى : أحاديث عن تاريخ ليبيا فى القرنين ١٨ ، ١٩ ص ٢٥

تولى مقاليد الولاية أحمد الثانى القرمانلى بن على الأول ولكنه لم يلبث أن هرب أمام بطن أخيه الأصغر يوسف الذى تولى مقاليد الولاية عام ١٧٩٦ م وقد قضى سنوات حكمه الأولى فى كسر شوكة جند الأنكشارية والقول أو غليه ، ومحاربة القبائل العربية الثائرة فى أقاليم الولاية الداخلية ، والأسراف فى عمليات الجهاد البحرى بمهاجمه سفن الدول الأجنبية فى البحر المتوسط ، مما أدى فى النهاية الى صدامه مع سفن الولايات المتحدة الأمريكية وغيرها كانت النتيجة فى غير صالحه .
استاء الطرابلسيون من حكم الأسرة القرمانلية نتيجة مساوىء حكم يوسف فتنازل يوسف عن حكم الولاية لابنه على الثانى عام ١٧٣٢ م ولكنه لم يستمر طويلا اذا أرسل السلطان العثمانى عام ١٨٣٥ م باشا من استانبول أنهى حكم الأسرة القرمانية .

تقييم للحكم القرمانلى

حكمت الأسرة القرمانلية ولاية طرابلس الغرب حكما وراثيا مدة مائة وأربعا وعشرين سنة (١٢٤) من ١٧١١ الى ١٨٣٥ م (١٢٨ سنة هجرية من جمادى الاخر ١١٢٣ مهـ الى المحرم ١٢٥١ هـ) حكم خلالها ستة من أمراء الأسرة ومع ذلك لم يستطيعوا الاحتفاظ بالبلاد لأنه لم تكن لهم ــ شأنهم فى ذلك شأن الولاة الأتراك فى العصر العثمانى الأول ــ سياسة واضحة ومرسومة لحكم لبلاد وتنميتها والمحافظة عليها والأخذ بيدها ، كما حدث لمصر فى عهد محمد على الذى عاصر يوسف باشا وعلى باشا الثانى ، ولذلك لم تكد ولاية طرابلس الغرب تشعر بشىء من الأستقرار فى بداية حكم الأسرة القرمانلية حتى عادت الى حالة الفوضى الشاملة التى كانت عليها البلاد فى العصر العثمانى الأول .
وكانت السياسة الوحيده التى حرص على اتباعها أمراء الأسرة القرمانلية هى الحصول على الأموال بكل وسيلة للصرف منها على حياة البذخ التى كانوا يحيونها فى قصورهم الفخمة ، وكانت سياستهم هذه ذات شقين الأول فرض الضرائب على الناس واتخاذ الأساليب التعسفية فى جمعها على يد جند الانكشارية والقول أو غلية الذين كانوا من أدوات الأمراء القرمانليين فى حكم البلاد .

وأما الشق الثانى من سياسة الأمراء القرمانليين فى حكم ليبيا فكانت اتباع أسلوب الجهاد البحرى فى البحر المتوسط . حقيقة كان هذا الأسلوب سائدا فى تلك العصور فى البحر المتوسط ، ولجوء الأمراء القرمانليين الى المغالاة فى هذا الأسلوب ، وان كان فى البداية در عليهم الأموال الطائلة وأوقع الرعب فى قلوب الأوربيين الا أنه أدى فى النهاية الى التحالف بين الدول الأوربية ضد هذا العمل ومن يقوم به .

فقد قررت الدول الأوربية فى مؤتمراتها — كما أشرت سابقا — محاربة أعمال القرصنة أى الجهاد البحرى ولذلك وقفت من الولاية موقف العداء بل وحاولت كل دولة أوربية أن تفرض على الولاية أواخر عهد الأسرة القرمانلية الأتاوات والشروط كما كانت هى تفعل ذلك مع الدول الأوربية . ولعل فشل يوسف باشا فى فرض سياسته البحرية على الولايات المتحدة ثم احتلال فرنسا للجزائر عام ١٨٣٠ م قد أدى الى ضعف ليبيا بحريا بل والى القضاء على سيطرة الأسطول الليبى .

ونخلص من كل ذلك الى أن ولاية طرابلس الغرب فى عصر الأسرة القرمانلية لم تستفد شيئا ذا بال نتيجة لتلك السياسة غير المرسومة ونتيجة استمرار الفوضى والثورات والحروب الأهلية التى شهدتها البلاد والتى كان أهل الولاية ضحيتها الأولى اللهم الا ماقام به مؤسس هذه الأسرة أحمد باشا من إشتراك بعض الوطنين فى الجيش وفى إدارة البلاد ليستجلب محبة الناس ، خاصة بعد أن جعل اللغة العربية هى اللغة الرسمية ، وان كانت اللغة التركية لم تختف تمام ، الا أن هذا العمل من جانبه كان سنة طيبة نسج على منوالها من جاء بعده من أبناء أسرته[١]

العصر العثمانى الأخير

عاد الحكم العثمانى المباشر الى ولاية طرابلس الغرب بانتهاء حكم الأسرة القرمانلية عام ١٨٣٥ م واستمر حتى عام ١٩١١ م عندما احتل الايطاليون البلاد وأنهوا الحكم التركى الذى حكم ليبيا ٣٦٠ سنة .

جاء هذا الحكم العثمانى المباشر بعد أن ضاق المواطنون ذرعا بما ساد بلادهم من فتن واضرابات حرمتهم الاستقرار المنشود لينصرفوا الى حياتهم العادية ، وجاء — كما حدث فى منتصف القرن السادس عشر بعد أن طلب بعض المواطنين من السلطان العثمانى تخليص البلاد من الفوضى والانقسامات التى حدثت فى عهد الاسرة القرمانلية وبصفة خاصة فى أواخر حكمها[٢]

(١) د . حسن سليمان محمود : مرجع سبق ذكره ص ١٨٥

(٢) د رأفت الشيخ : مرجع سبق ذكره ص ٤٤

وان كان بعض المواطنين فى الولاية قد شعروا بالفرح لمجىء الحكم العثمانى الذى أنهى السيطرة القرمانلية فأن غالبية أهل الولاية نظروا الى مجىء الولاة العثمانيين من استانبول نظرة شك وتردد حيث لم يتم نظراؤهم قبل عصر الأسرة القرمانلية ــ بما يرضى أهل الولاية من أعمال مفيدة تأخذ بيدهم الى التقدم والازدهار ، ولذلك سرعان ماناصب أهل الولاية الدولة العثمانية العداء وأبوا الخضوع للسلطة الحاكمة ، لأن الحكم العثمانى عاد للبلاد وأعاد معه النظام الفاسد السابق ولم يحاول تغيير ما أدى الى سخط الشعب قبلا .

لقد بقى العصر العثمانى الأخير فى ولاية طرابلس الغرب مايقرب من سبعة وسبعين عاما تولى الحكم خلالها ثلاثة وثلاثون واليا تراوحت مدة ولاية بعضهم بين سنة وستة عدة شهور ، وكان أول هؤلاء الولاة هو رءوف باشا[1] الذى جاء بعد أن أنهى نجيب باشا حكم الأسرة القرمانلية واستبعدها الى الأستانة وقد أبقى بطرابلس يوسف باشا لكبر سنه مع أفراد أسرته ، وتوالى مجىء الولاة بعد رءوف باشا وكان كل منهم يأتى ولا يكاد يستقر حتى يصدر فرمان بعزله وبتولية غيره فى ولاية ليبيا ، ولذلك كان الوالى يسعى بمجرد وصوله الى البلاد فى جمع أكبر مبالغ من المال ممكنة لأنه يعلم مسبقا أن بقاؤه فى منصبه لوقت قصير .[2]

لقد صرف الولاة العثمانيون كل وقتهم فى ولاية طرابلس الغرب فى محاولات مستمرة للقضاء على ثورات أهل البلاد ، تلك الثورات التى قامت فى معظم أنحاء الولاية فكان يتزعم الثورة فى مصراته « عثمان أغا » وفى « يفرن » بالجبل الغربى « غومة المحمودى » وفى « فوان » عبد الجليل سيف النصر ، وفى برقة « عا دل » ولم تكن هذه الثورات مجرد فردية بل كانت مظهرا لما طبعت عليه القبائل من حب للحرية و ـ م الخضوع للسيطرة الأجنبية ، ونجحت هذه الثورات فى إجهاد سلطة الحكومة العثمانية فى الولاية وإضعافها ، وإن كانت هذه الثورات قد فشلت فى تحقيق أملها وهو التخلص من العثمانيين وإقامة حكومة محلية من بين أهل البلاد فان ذلك يرجع الى التنافس والصراع الذى كان يحدث بين زعماء هذه الثورات وجهلهم بالطرق الكفيلة بنجاحهم وتحقيق أهدافهم الى جانب المجاعات التى كانت تصيب البلاد فتحد من هذه الثورات ومن ولاء الناس لها والتفافهم حولها .

ومما تجدر الأشارة إليه أن الولاية فى أثناء هذا العصر قد شهدت أحداثا لها دلالتها منها ثورات قومية عام ١٨٨١ م احتجاجا على الغزو الفرنسى لتونس عام ١٨٨٢ ضد

---

(١) تذكر بعض المصادر اسمه محمد . رائف . بدل رءوف

(٢) د . حسن محمود : مرجع سابق ص ١٩٢

احتلال الانجليزى لمصر ، وان أهل الولاية كان ولاؤهم عربيا لا عثمانيا ، فعلى سبيل المثال وعلى ماروى الرحالة الأوربيون كان غومة المحمودى يعتبر أحد الناطقين باسم القومية العربيبة المقاومين للاحتلال التركى[1]

كما ان بعض الليبين فكروا عندما قامت الحرب بين الدولة العثمانية وروسيا عام ١٨٥٣ م رأوا أن الفرصة سانحة لأعلان استقلال بلادهم فأشترت بعض القبائل السلاح وطلب بعض الزعماء مساعدة فرنسا عن طريق قنصلها[2] ولئن كانت هذه الفكرة لم تأخذ طريقها الى التنفيذ فلأن يد الليبين لم تجتمع كلها على هذه الفكرة ثم أنه حدث فى عهد السلطان عبد الحميد أن طلبت الحكومة من الوالى تجريد الأهالى فى ولاية طرابلس الغرب من السلاح وتفتيش الزوايا السنوسية لضبط ماعسى أن يوجد بها من أسلحة ، وكان ذلك من الأسباب التى دفعت السيد المهدى السنوسى الى الانتقال من واحة الجغبوب الى واحة الكفرة والايغال فى الصحراء .[3]

وإذا كانت الولاية لاقت الأهمال من جانب الدولة العثمانية وولاتها فى النواحى الاقتصادية والعمرانية ، ونواحى العدل فأنها لاقت الأهمال فى نواحى الصحة والتعليم أيضا ، وصدق من قال « أما العلوم والمعارف العصرية فلا توجد عندهم بل لايشمون لها رائحة » .[4]

انتهت مأساة الحكم العثمانى لليبيا عام ١٩١١ لتبدأ مأساة الحكم الأيطالى للبلاد الذى جاء نتيجة حتمية لسياسة الحكم العثمانى حتى صدق القول بأنه ما من بلاد عربية كانت تحت الحكم العثمانى استطاعت آن تحكم نفسها بنفسها بعد انفصالها عنه ، بل انتقلت من حكم العثمانيين الى حكم أجنبى أخر قبل آن تصل الى الاستقلال .[5]

---

(١) د . نقولا زيادة : مرجع سبق ص ٥٦
(٢) نفس المرجع : ٥٧
(٣) مصطفى بعيو : مرجع سابق ١٠٧
(٤) رحلة الحشائشى الى ليبيا ص ١٩٠
(٥) مصطفى بعيو : مرجع سابق ص ٦٥

الفصل السابع

حـركة علـى بـك الكبيـــر
فــى مصـــر

- أحوال مصر.
- على بك .
- على بك واستقرار الأمور.
- على بك والدولة العثمانية.
- على بك والدول الأجنبية.
- تقييم حركة على بك.
- مصر بعد على بك.

انطلاقا من نظام الحكم العثمانى فى مصر استمرت الخلافات بين هيئات الحكم الثلاث ، ورأينا فى أوائل القرن الثامن عشر انهيار سلطة الباشا أمام سيطرة وقوة الأوجاقات العثمانية ، بينما عاشت مصر فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر عهدا من سيطرة البكوات المماليك على مقدرات الأمور فى الوقت الذى ضعفت فيه سلطة الباشا والأوجاقات العثمانية .

ولكن ممازاد من قوة البكوات المماليك أن المماليك يشترون صغارا ويعتنقون الدين الأسلامى ويخضعون لتربية عسكرية قاسية ، بالاضافة الى استمرار تدفقهم من خارج مصر ، وعدم انصهارهم فى المجتمع المصرى ، وكل ذلك أدى الى أن طوائف المماليك ظلت محتفظة ببقائها وذاتيتها الخاصة وكان منصب شيخ البلد وهو حاكم القاهرة أعلى المناصب التى يتقلدها البكوات المماليك حيث كان يتولاه زعيمهم وأكثرهم عصبية وأكبرهم قوة عسكرية ، يليه منصب أمير الحج ، وكثيرا ماكان الخلاف يقع بين البكوات المماليك ، حول هذين المنصبين ، فاذا تولاه أحدهم أخذ فى التنكيل بمنافسيه وخصومه من البكوات المماليك ، وأغدق الهبات والوظائف على أنصاره ومؤيديه ، فعندما قتل حسين بك القازوغلى المعروف بالصابونجى وتعين فى الرياسة بعده على بك الكبير (عام ١١٧٢ هـ الموافق ٤ سبتمبر ١٧٥٨ ٢٤ أغسطس ١٧٥٩) أحضر خشدا شينة [1] المنفيين واستقروا أمرهم [2]

ولقد وصف الرحالة والكتاب الأجانب الذين زاروا مصر فى القرن الثامن عشر أحوال مصر وما أصابها من اضطرابات نتيجة الخلافات بين البكوات والمماليك إلا انهم كانو يتحدثون ضد باشا لايرغبون وجوده فى القاهرة فيروى الجبرتى فى عام ١١٧٤ هـ الموافق ١٣ أغسطس ١٧٦٠ م ، الى ٢١ أغسطس ١٧٦١ م ، أن الباشا كان يدعى مصطفى باشا ، ويبدو أن البكوات المماليك كانوا عنه راضين ، حتى اذا عينت الدولة آخر العام واليا أخر يدعى « أحمد باشا كامل المعروف بصبطلات » ، وكان ذا نهامة وقوة رأس فدقق فى الأحكام ، وصار يركب وينزل ويكشف عن الأنبار والغلال ، فتعصب عليه الأمراء ، وأصعدوا مصطفى باشا المعزول ، وعرضوا فى شأنه الى الدولة [3]

---

(١) خشداشينة جمع خشداش أى زميل فى الرق
(٢) عبد الرحمن الجبرتى : عجائب الآثار ص ٧١
(٣) عبد الرحمن الجبرتى : نفس المرجع ص ٧٢

واذا كان الشعب المصرى الذى يقع عليه عبء هذه الخلافات يثور هنا وهناك فى أنحاء مصر فقط عندما تمر حياته بصورة يهتز لها مفهوم العدل والحكم العادل عند المصريين ، فأن الحكومة العثمانية كانت تلجأ الى عدة إجراءات عقابا للبكوات المماليك ، من أمثلتها إغلاق أسواق الرقيق فى المناطق المحيطة بالبحر الأسود وبصفة خاصة فى البلقان حتى تحرم البكوات المماليك من مصادر قوتهم العددية ، كما كانت الحكومة العثمانية تلجأ وخاصة فى الأوقات التى لاتكون فيها مشغولة بحروب خارجية الى ارسال حملات تأديب الى مصر يقابلها البكوات المماليك بالفرار الى الصعيد ثم يعودون الى القاهرة متى سحبت الحكومة العثمانية هذه الحملات .

ومن الطبيعى أن تتأثر أحوال المصريين بهذه الظروف ، فالزراعة مضطربة والتجارة كسدت والنواحى الثقافية تجمدت ، فى الوقت الذى زادت فيه سلطة شيخ البلد الى حد الطغيان ، وفى الوقت الذى زادت فيه الضرائب على المصريين لمواجهة الشروعات الكبيرة التى يعمل شيخ البلد على تنفيذها ، ولمواجهة إغلاق أسواق الرقيق أمام البكوات المماليك باستخدام جنود مرتزقة من البدو النوبيين واليونانيين الذين استخدموا فى الحرب المدافع التى اشتراها شيخ البلد .

على بـــــــــك

ذكر المؤرخ الأوربى ستافرو لانسيانStafro lanspan وكان معاصرا لعلى بك وعاشره وعمل له ، ى » بك ابن قسيس رومى أرثوذكس من قرية أماسا فى الأناضول اسمه القسيس « داود » وأنه أى على بك ولد فى سنة ١٧٢٨ م ثم خطف فى الثالث عشرة وبيع فى القاهرة وكان اسمه يوسف ، وأنه تزوج يونانية مسيحية أظهرت ألاسلام وبقيت على دينها اسمها مريم(١)

وكان على بك مملوكا لابراهيم كتخدا ، والاثنان من مماليك مصطفى كتخدا القازوغلى ولما بلغ على طور الشباب ظهرت شخصيته بكل مكوناتها من شجاعة وقوة وطموح وقسوة ، ثم تقلد الأمارة والصنجقية بعد موت أستاذه وسيده ابراهيم كتخدا عام ١١٦٨ هـ (١٧٥٤ ــ ١٧٥٥ م) ثم كان أميرا للحج وكبيرا للمماليك وشيخا للبلد فى عام ١١٧٧ ه (١٧٦٣ م) .

---

(١) محمود الشرقاوى : مصر فى القرن الثامن عشر جـ ٢ ص ٧٣

وعرف على بك بأكثر من اسم ، فقد عرف بعلى بك القازدغلى ، و « جن على » و « بلوط فين » أو « بلوقيطان » ، ثم عرف بأسم على بك الكبير بعد أن اتسعت فتوحاته خارج مصر وذاع صيته . وقد مارس منازعات وحروب قاسية بينه وبين خصومه ومنافسيه من البكوات والمماليك وكان قوى المراس ، شديد الشكيمة ، لايرضى لنفسه بدون السلطنة العظمى بديلا ، فمما قال : أنا لاأتقلد الامارة إلا بسيفى لابمعونة أحد[1] .

أراد على بك أن يستخلص مصر لنفسه فقتل منافسيه من الرؤساء والأقران وباقى الأعيان ، وفرق جمعهم فى القرى والبلدان ، وتتبعهم خنقا وقتلا ، وأبادهم فرعا وأصلا ، واستأصل كبار خشداشيته وقبيلته ، وأخرم القوانين الجسيمة ، والعوائد المرتبة ، وحارب كبار العربان[2] .

وقد استخدم فى ذلك الأعداد الكثيرة من المماليك الذين اشتراهم والجند الذين استخدمهم من جميع الأجناس ، وكان يطالع الكتب التى تحوى التاريخ والسير ويشيد بدولة المماليك فى مصر وزعمائها مثل الظاهر بيبرس وقلاوون وغيرهم ويفخر بانتسابه لهم ، وكان عظيم الهيبة ، فقد اتفق لأناس أن ماتوا فرقا من هيبته ، وكان صحيح الفراسة ، شديد الحذق ، ولايحتاج فى التفهيم الى ترجمان أو من يقرأ السكوك والوثائق ، بل يقرأها بنفسه .[3]

على بك واستقرار الأمور

واجه على بك مصاعب كثيرة من قوى متعددة فى مصر تعوقه عن تحقيق مشروعاته وعن التمتع بمصردون منافس ، فلم يكد على بك يعتلى كرسى مشيخة البلد بالقاهرة عام ١٧٦٣ م حتى اضطره أعداؤه ومنافسوه الى الفرار من القاهرة الى الصعيد تارة والى الحجاز تارة أخرى والى الشام طورا ثالثا ، حتى إذا عاد الى منصبه عام ١٧٦٧ م أنتقم من أعدائه وأنزل العقاب بمثيرى الفتن والاضطراب .

وكان على بك قد تخلص من عبد الرحمن كتخدا الذى كان أكبر منافس له ، بنفيه الى الحجاز ، وقد اشتد ساعد على بك بعد استبعاد عبد الرحمن كتخدا وأنصاره من

(١) عبد الرحمن الجبرتى : نفس المرجع ص ٩٧
(٢) الجبرتى : نفس المرجع ص ٩٧
(٣) نفس المرجع ص ٩٧

القاهرة ، فأخذ يؤلب بعض البكوات على بعض حتى أضعف شوكة الأقوياء منهم ، وقد ارتجت مصر (القاهرة) فى ذلك اليوم وخصوصاً لخروج عبد الرحمن كتخدا ، فأنه كان أعظم الجميع وأكبرهم وابن سيدهم . وله الصولة والكلمة والشهرة وكان له عزوة كبيرة ومماليك واتباع وعساكر مغاربة وغيرهم حتى ظن الناس وقوع فتنة عظيمة فى ذلك اليوم فلم يحصل شيء من ذلك سوى مانزل بالناس من البهتة والتعجب[1] وكان ذلك عام ١١٨٨ ه (١ يوليو ١٧٦٤ الى ١٩ يونيه ١٧٦٥ م) .

كما تخلص على بك فى ١٨ ربيع الآخر ١١٨٢ ه الموافق أول سبتمبر ١٧٦٨ م من صالح بك بقتله وبذلك تخلص على بك من آخر سنجق كان منافسا له فى مشيخة البلد ، وقبل ذلك بشهرين كان على بك قد نفى عددا من البكوات المماليك الى الصعيد ، والى الحجاز والى الفيوم .

وقد تابع على بك سياسته هذه بالقتل والنفى والمصادرة حتى وصفه الجبرتى بأنه هو الذى ابتدع المصادرات وسلب الأموال من مبادىء ظهورة واقتدى به من بعده[2] وقد استخدم على بك عددا من أتباعه أشهرهم محمد بك أبو الدهب . وأحمد الجزار الذى عرف بذلك بسبب ما أظهره من بطش وقسوة ضد بدو الدلتا الثائرين وهم الحبايبة بشرق الدلتا ووسط الدلتا ، والهنادى بأقليم البحيرة .

وكان سويلم بن حبيب زعيم عرب الحبايبة بالشرقية فى نشر نفوذه وسيطرته على بلاد إقليس الشرقية والقليوبية ، وقطع الطريق بين القاهرة والوجه البحرى ، فلما أرسل اليه على بك التجريدات انضم الى عرب الهنادى بالبحيرة ، وانضم اليهم كذالك أعداء على بك من البكوات المماليك واستولوا على الأقاليم وقتلوا السنجق الموالى لعلى بك .

وقد أرسل على بك الى أقليم البحيرة حملتين للقضاء على هذه الفتنة المضادة له ، ونجحت حملات على بك فى القضاء على هؤلاء المناوئين ، وحتى سويلم من حبيب قتلوه وقطعوا رأسه ورفعوها على رمح واشتهر ذلك فارتفع الحرب من بين الفريقين ، وتفرق الهنادى ، وعرب الجزيرة والصوالحة وغيرهم وراحت كسرة على الجميع ، ولم يقم لهم قائم من ذلك اليوم[3]

وبعد أن دانت بلاد الوجه البحرى لعلى بك تطلع الى الوجه القبلى الذى كان سيده وزعيمه شيخ العرب همام بن يوسف الهوارى ، وبقدر ماكانت هيبة سويلم بن

---

(١) نفس المرجع ص ٥٧

(٢) ا[illegible]ق نفس المرجع ص ٧٦

(٣) نفس المرجع ص ٨٧

حبيب فى الوجه البحرى تقوم على الرهبة من طغيانه وفجوره ، كانت هيبة همام بن يوسف فى الوجه القبلى تقوم على الأعجاب بشهامته وتقرير مجموعة الصفات النادرة التى كونت شخصيته الفذة[1] .

فلم يكن همام قاطع طريق أو طاغية بل كان مجيرا من يستجير به ويحمى من يطلب حماه ويمد بالمال والسلاح من طلب منه المدد ، ولم يكن على بك يخشى من ازدياد نفوذ همام واتساع أملاكه ، لأن همام لم يأت أمرا يخل بالأمن ، بل كان حريصا على إرسال الميرى بأنتظام ، كما كان يرسل بين الحين والآخر الهدايا للباشا العثمانى وشيخ البلد بالقاهرة ، وكذلك لكشاف الأقاليم الخاضعة لسلطته ، ولكن الذى ضايق على بك هو تحول الصعيد الى وكر تنبت فيه الفتن ومورد يمد منافسيه على مشيخة البلد بالمؤن والعتاد والسلاح[2] .

استقر رأى على بك على ضرورة التخلص من همام ، فأرسل جيشا بقيادة مملوكه محمد بك أبو الدهب ولكن همام صالح أبو الدهب على أن يكون له التزام البلاد جنوبى برديس ، ثم عاد محمد أبو الدهب الى القاهرة فأرسل على بك الى همام بأن الصلح يعتبر لاغيا إذا لم يطرد أعداء على بك من البلاد التى فى حوزته ، فطلب منهم همام الخروج الى أسيوط وتملكها ، وبالفعل ملكوا أسيوط بالقوة وتحصنوا بها وهرب من كان بها من أتباع على بك ، وكان ذلك فى صفر ١١٨٣ ه يونيو ١٧٦٩ م ، فخرجت حملة أخرى بقيادة أبو الدهب وصلت الى أسيوط والتحمت مع المتملكين أسيوط فى معركة ضارية انتهت بأنتصار أبو الدهب وجيشه وتشتت أعدائه وأنضمامهم الى عرب الهوارة فى الجنوب ، وفى الواقع كانت معركة أسيوط من أحسم المواقع فى تاريخ على بك ، وهى التى أكدت له النصر فأصبح سيد الوجهين وصاحب النفوذ المطلق فى جميع أنحاء مصر[3]

ولم يتوقف محمد بك أبو الدهب فى أسيوط ولكنه زحف جنوبا لملاقاة همام وعرب الهوارة ، واستطاع استمالة ابن عم همام ويدعى أبو عبد الله ، ومن ثم زحف الجيش الى فرشوط دون مقاومة عنيدة ، حتى دخلها ليجد همام قد تركها ومات كمدا قرب إسنا ، ومن ثم تملك الجيش فرشوط ونهبوها وأخذوا جميع ماكان بدوائر همام وأقاربه وأتباعه من ذخائر وأموال وغلال وزالت دولة شيخ العرب همام من بلاد الصعيد من ذلك التاريخ كأن لم تكن[1] وخلصت مصر بوجهها البحرى والقبلى لعلى بك وأتباعه رغم وجود الباشا العثمانى والاوجاقات ، العثمانية ، وهذا دليل على قوة المماليك وضعف العثمانيين أصحاب السيادة الرسمية على مصر .

---

(١) د . السيد رجب حراز : المدخل الى تاريخ مصر الحديثة ص ٢٥

(٢) رفعت رمضان : نفس المرجع ص ٥٢

(٣) الجبرتى : المرجع ص ٨٩

على بك والدولة العثمانية

فى الثانى من شهر جمادى الآخرة(٢٦ اكتوبر ١٧٦٧.م) كان على بك قد استطاع بحد السيف العودة الى القاهرة من الصعيد الذى كان به مقيما هربا من خصومه الأقوى بالقاهرة ، ثم طلع ومعه اتباعه الى الديوان بالقلعة ، فخلع الباشا على على بك واستقر فى مشيخة البلد كما كان ، وخلع على صناجقة خلع الاستمرار أيضا فى إمارتهم ، كما كانوا ونزلوا الى بيوتهم . وثبت قدم على بك فى إسارة مصر ورئاستها فى هذه المرة ، وظهر بعد ذلك الظهور التام ، وملك الديار المصرية والأقطار الحجازية والبلاد الشامية ، وقتل المتمردين وقطع المعاندين ، وشتت شمل المنافقين ، وخرق القواعد ، وخرم العوائد ، وأخرب البيوت القديمة ، وأبطل الطرائق التى كانت مستقيمة"[2] .

وماكان يتم ذلك دون نزاع مع الدولة العثمانية ودون صدام مع الباشا العثمانى بالقاهرة ، واذا كانت الدولة العثمانية يهمها الا ينفرد شخص بالامور فى مصر وتقف أمام ازدياد سلطة البكوات المماليك ، فقد كانت تعمل على ايقاد نار الفتنة بين البكوات حتى يقضوا على بعضهم البعض ، وأما الباشا القائم بالولاية آنذاك) ١٧٦٧ م) وهو محمد راقم باشا فقد كان هو الآخر يعضد خصوم على بك ، ويساعد على إرسا ل حملة لمقاومته تحت رياسة حسين بك كشكش[3] ويجمع لهذه الحملة المال . كما نجده يقابل على بك بعد انتصارة على جيش حسين بيك كشكش ويخلع عليه ويقره شيخا للبلد[4] .

وكان على بك يدرك موقف الباشا محمد راقم ، وموقف الدولة العثمانية منه بعد ان دانت له الأمور فى مصر ، ولذلك فأن على بك انتهز فرصة ضيق بعض أتباعه من تحركات الباشا حتى أصدر على بك أوامره لأنصاره بالتعامل مع الباشا بما يتفق مع تحركاته المشبوهة ، فأصبحوا وملكوا الأبواب ، والرميلة ، والمحجر[5] وحوالى القلعة وأمر بالنزول ، فنزل من باب الميدان الى بيت أحمد بك كشك وأجلسوا عنده الحرسجية[6] .

---

(١) الجبرتى : المرجع ص ٨٩

(٢) نفس المرجع ص ٨٥

(٣) من زعماء المماليك المعادين لعلى بك ، وكان قد فر الى غزة ومن هناك حيث مكث ثمانية شهور أعد جيشا من فرسان المماليك والدروز ومشاة المغاربة للزحف على مصر ومنازلة على بك

(٤) حافظ عوض : فتح مصر الحديث ص ٢٩

(٦ ، (٥) المقصود بالأبواب أبواب القلعة ، والسيطرة على الجانب الغربى للقلعة (الرميلة) والجانب الشرقى (المحجر) ، وتعنى الحرسجية رجال الحرس .

وكان ذلك فى ١٧ رجب ١١٨٢ هـ الموافق ٢٧ نوفمبر ١٧٦٨ م وبعد أسبوعين تقلد على بك قائمقامية عوضا عن الباشا[٣] وكان ذلك فى غرة شهر شعبان ١١٨٢ هـ الموافق ١١ ديسمبر ١٧٦٨ م .

وأما موقف على بك من الدولة العثمانية فقد تمثل فى أنه عندما وصل الى القاهرة فى ٢٥ نوفمبر ١٧٦٨ م أغا من الديار الرومية ، وعلى يده مرسوم يطلب عـ كر للسفر ، فأجتمعوا بالديوان وقرأوا المرسوم[٤] أدرك على بك مدى حاجة الدولة العثمانية لقوات إضافية تأتيها من مصر لتواجه الحرب التى شنتها روسيا ضدها وبصفة خاصة فى حوض الدانوب وشبه جزيرة البلقان ، فضرب على بك ضربته بعد وصول الرسول العثمانى بيومين بعزل الباشا وبعد أسبوعين أعلن نفسه قائمقاما عن الباشا أى قائما بعمل الباشا لخلو المنصب ممن يشغله .

ويتبع على بك ذلك بوسائل كسب المواقف فى كل زمان وهى تقديم الهدايا والأموال فجهز فى أوائل يناير ١٧٦٩ م رسول الدولة العثمانية بما يلزمه من دلائل التكريم والتقدير وصفها الجبرتى بقوله « فى تجمل زائد لينقل الى السلطان طلبات على بك الكبير فى أن يظل متوليا باشوية مصر فلا ترسل الدولة باشا من استانبول ، وأتبع ذلك أيضا فى الشهر التالى (فبراير) باعداد هدية حافلة تضمن أموالا وخيولا مصرية للسلطان العثمانى ورجال دولته وأشفعها مكاتبات منه لهم ومكاتبات من علماء مصر ومشايخها وعلى رأسهم الشيخ حسن الجبرتى ، وتمثلت طلبات على بك هذه المرة فى مكاتباته المطعمة بالهدايا والتى حملها الشيخ عبد الرحمن العريشى ومحمد أفندى البردلى ، فى أن على بك يطمع أن تكون له بلاد الشام الى جانب مصر فيزداد ملكه ، وحجته فى ذلك أن عثمان العظم والى الشام يعادى على بك ويآوى المصريين الفارين من حكم على بك بل ويعاونهم للعودة الى مصر وطرد على بك .

وكان على بك قد بدأ بالفعل منذ وصول رسول الدوله ، استنادا الى طلب الدولة العثمانية أو قل هى حجة استند اليها فى تجييش جيش يكون عدة على بك فى تحقيق مشروعاته الطموحة التى عبر عنها بضم الشام الى مصر ، وكان إعداد هذا الجيش المطلوب بداية للصدام العلنى بين على بك والدولة العثمانية ، ذلك آن على بك قد أخذ فى إعداد جيش كبير بكل همة ونشاط أثارت مخاوف رجال الدولة العثمانية من احتمال أن يستخدم على بك هذا الجيش لتحقيق أهدافه بمعاونة الروسيا التى كانت جيوشها منتصرة على طول الخط ضد القوات العثمانية ، والتى أى روسيا كانت تشجع القوى المحلية فى الولايات التركية على الثورة ضد الحكم العثمانى .

---

(١) الجبرتى : نفس المرجع ٨٥ — ٨٦

(٢) نفس المرجع ص ٨٥ ، وتعبير الديار الروسية كناية عن مقر الدولة العثمانية .

وبناء على هذه الشكوك أرسلت الدولة العثمانية الى رجالها بمصر أمرا بقتل على بك ، ولم يكن على بك يغافل عن تحركات الدولة العثمانية ولا عن مدى التعارض مع أهدافه ومصالحها ، ولذلك فقد عرف بالأمر وكلف رجالة بقتل رسول الدولة العثمانية ، ثم جمع المماليك وأعلن أمامهم أن الأوامر العثمانية تطلب قتل جميع المماليك ، فأنه أى على بك استطاع أن يقتنص هذا الأمر وحامله [1] وكان على بك خطيبا مؤثرا استطاع أن يستميل الزعماء المماليك إلى صفه ، فلما ضمن ذلك أعلن استقلال مصر عن الدولة العثمانية ، وطلب من السلطان العثمانى عدم تعيين باشوات وأرسالهم الى القاهرة .

ويشهد عام ١٧٦٩ م خطوات على بك الأستقلالية بمصر والتى كانت دلائل متتالية عن تصاعد العداء بين على بك والدولة العثمانية . ذلك أن على بك أتبع إعلان رفضه لقبول باشا من استانبول : منع الأموال (الميرى) المقررة سنويا على مصر من الوصول الى الدولة العثمانية ، وضرب النقود فى مصر باسمه وعليها تاريخ استقلال مصر ١١٨٢ هـ: وأتبع ذلك بطرد كل من يظهر ميلا للدولة العثمانية من موظفى الدواوين .

واستمر على بك فى خطواته لتحقيق مشروعاته التوسعية وقد سار فى طريق العداء للدولة العثمانية شوطا بعيدا ، فتطلع الى ضم الحجاز لتأمين الحج للمصريين والمغاربة والسودانيين والشوام بما يعود على على بك بالشهرة والتقدير من كل هؤلاء ، وفى نفس الوقت ليحقق مشروعاته التوسعية ، وليعمل بمشورة صديقه كارلوروستى Carlo Rosetti تاجر البندقية المشهور لتحويل تجارة اشرق الأقصى الى البحر الأحمر فالسويس بدلا من مرورها عن طريق رأس الرجاء الصالح .

وكانت فكرة روستى دافعا لكى يركز على بك فى ضم البلاد الحجاز الى ملكه على ميناء جدة ليجعل منها مركزا للتجارة مع الهند ولمراقبة الملاحة فى البحر الأحمر فلما فتحها عزل واليها العثمانى الذى نصبته تركيا ، وجعل ولايتها المملوك من أتباعه يعرف فيما بعد باسم حسن بك الجداوى [2] .

---

(١) محمود الشرقاوى : مصر فى القرن الثامن عشر ص ٢ ، ص ٧٠

(٢) نفس المرجع ص ٧١ ولقب الجداوى أضيف الى صاحبه بعد أن أصبح حاكما لجدة ولم يكن له هذا اللقب قبل ذلك . . . وذلك أمر شائع عند المماليك . . .

انتهز على بك فرصة الخلاف حول الشرافة الحجازية بين الشريف القائم بالحكم الشريف أحمد وابن عمه الشريف عبد الله الذى جاء الى مصر واستنجد بعلى بك وقد وافق ذلك غرضه الباطنى كما يقول الجبرتى وهو طمعه فى الاستيلاء على المماليك[1] أى على الحجاز وبعد أن أعد على بك حملة لإرسالها الى الحجاز أنزلها فى السويس فى صفر ١١٨٤ هـ الموافق يونيو ١٧٧٠ م فى تجمل زائد ، ومهيأ عظيم وسارى عسكرها محمد بيك أبو الدهب ، وصحبته حسن بيك ومصطفى بيك وخلافهم[2]

وقد نجح جيش على بيك فى مهمته بالاستيلاء على الحجاز وإقصاء الشريف أحمد الموالى لتركيا وإحلال الشريف عبد الله الموالى لمصر ، ونودى بعلى بك فى الحرمين الشريفين : سلطان مصر وخاقان البحرين ، وذكر اسمه ولقبه هذا على منابر المساجد فى الحجاز[3] وقد استغرقت هذه الحملة حوالى خمسة شهور من يونيو ١٧٧٠ م وهو تاريخ خروج الجيش من مصر الى ٢٨ أكتوبر من نفس العام عندما عاد الجيش وعلى رأسه قائده محمد بك أبو الدهب ودخل الى مصر فى موكب عظيم وأتت اليه العلماء والاعيان للسلام وقصدته الشعراء بالقصائد والتهانى[4] .

وقد شجع نجاح حملة الحجاز على بك فى أن يتطلع الى إرسال حملة اى بلاد الشام التى كانت انذاك تعيش مماثلة لحركة على بك بقيادة الشيخ ظاهر العمر ، وهنا يثور سؤال هل كان على بك يتطلع الى ضم الشام الى ملكه وإقامة سلطنة قلبها مصر وجناحها الشرقى الحجاز وجناحها الشمالي سوريا ؟ أم كان تقدم جيوش على بك الى الشام لنصرة صديقه ظاهر العمر ضد الباشوات العثمانية .

وإذا كان البعض يعتقد فى الرأى الأول القائل بأن على بك كان يتطلع الى توسيع ملكه بضم بلاد الشام والوصول الى بلاد الأناضول والقسطنطينية عن طريق سوريا كما ذكر كل من المؤرخ شارل دو[5]) والجبرتى[6] .

كما قيل عن نابليون بونابرت ومحمد على فيما بعد . . وإذا كان البعض الآخر يعتقد فى الرآى الثانى القائل بأن تحرك جيش على بك الى الشام كان يهدف مساعدة صديقه الشيخ ظاهر العمر . . فان الرأى عندنا هو أن حملة على بك على الشام كانت

---

(١) الجبرتى : نفس المرجع ص ٩
(٢) نفس المرجع ص ٩١
(٣) محمود الشرقاوى : نفس المرجع ص ٧١
(٤) الجبرتى : نفس المرجع ص ٩١
(٥) د . السيد حراز : المدخل الى تاريخ مصر الحديث ص ٢٧
(٦) عبد الرحمن الجبرتى : المرجع السابق

لتحقيق هدفين الأول تأمين مصر من ناحية الشام بالقضاء وبالتعاون مع الشيخ ظاهر العمر الذى كان له نفس الهدف على خطر الباشوات العثمانيين هناك ، حتى تبقى مصر فى مأمن من أى خطر عثمانى يأتى عن طريق الشام ، والهدف الثانى هو مساعدة : حليفه الشيخ ظاهر ضد التهديد العثمانى بالقضاء على القوات العثمانية التى تتجمع حول باشوات دمشق وحلب وطرابلس العثمانيين وبهذا القضاء يتسع سلطان على بك ويمتد نفوذه ليصل الى بلاد الشام .

فالوجود العثمانى المعادى فى بلاد الشام لحركة على بك الاستقلالية فى مصر وحركة الشيخ ظاهر العمر الأنفصالية فى جنوب سوريا هو الدافع الحقيقى لأهداف على بك من حملته على الشام التى تتركز كما رأينا حول مساعدة الشيخ ظاهر العمر من ناحية ومد نفوذ على بك وملكه الى بلاد الشام من ناحية أخرى .

وكان السبب الذى أعلنه على بك كدافع له لحملته على بلاد الشام وهو إيواء « عثمان العظم » والى الشام (دمشق) لخصوم على بك وأعدائه وإعدادهم للأغارة على مصر ، وأن هذا الوالى يسىء الحكم فى بلاد الشام مما جعل السوريين يتذمرون من حكمه . . وتبعا لذلك قام على بك بالحملة على الشام وهى أساسا . دفاعية اتخذت شكلا هجوميا لكى يقيم حول نفوذه بمصر سياج أمان دائم (١) .

ومنذ منتصف رجب عام ١١٨٤ هـ الموافق ٤ نوفمبر ١٧٧٠ م بدأت الاستعدادات فى مصر لاعداد قوات الحملة على الشام ، فيذكر ، الجبرتى (٢) أنه فى هذا اليوم زاد اهتمام على بك بالتحرك على جبهة الشام ، فلما تكامل الجيش بعدته وعتاده وعدده اقاموا بالعادلية (٣) أياما حتى قضوا لوازمهم وارتحلوا وسافروا الى جهة الشام . وأصدر على بك أمرا بأن يكون على رأس هذه الحملة المسافرة برا اسماعيل بك وبعد أسبوع برزت تجريدة أخرى وعليها سليمان بك وعمر كاشف وجملة كثيرة من العساكر ، فنزلوا من طريق البحر على دمياط وفى منتصف ذى القعده ١١٨٤ هـ الموافق ٢ مارس ١٧٧١ م خرجت تجريدة أخرى وسافرت عن طريق البر على النسق وفى عام ١١٨٥ هـ أخرج على بك تجريدة عظيمة وسر عسكرها وأميرها محمد بك أبو الدهب وأيوب بك ورضوان بك وغيرهم .

---

(١) د . السيد حراز : نفس المرجع ص ٢٧

(٢) الجبرتى : نفس المرجع السابق ص ٩٢

(٣) العادلية بمركز بلبيس باقليم (محافظة) الشرقية

أستطاع محمد بك أبو الدهب قائد عام الحملة على الشام أن يحرز انتصارات عديدة . وقد لقى ابا الدهب معاونة صادقة من الشيخ ظاهر العمر ، ومن ثم سقطت فى يده أو قل فى يد الجيش المشترك كلا من غزة ويافا ونابلسى ، واللد والرملة وصيدا ، وسقطت دمشق ذاتها فى شهر أبريل ١٧٧١ م ، وقد حاربهم النواب والولاة وهزموهم وقتلوهم وفروا من وجوههم واستولوا على المماليك الشامية الى حد حلب .

عندما طلب على بك محمد أبى الذهب الاستمرار فى الزحف بعد دمشق بدأ النزاع بين الرجلين وهو النزاع الذى أرجعه البعض الى رغبة محمد أبو الدهب فى السيطرة على الممليك فى مصر ، وأرجعه البعض الآخر الى اسماعيل بك لميله الى الدولة العثمانية وحسده لأبى الدهب فحرضه على عدم إطاعته لأوامر على بك [1] وأرجعه البعض الثالث الى استمالة الدولة العثمانية لمحمد أبى الدهب وإغرائه بملك مصر إذا خرج على سيده وقضى عليه .

أيا كان سبب النزاع بين الطرفين ، فان محمد أبا الدهب وهو فى دمشق جمع أمراءه وخشداشيته الكبار فى خلوة وعرض عليهم الأوامر التى أصدرها على بك باستمرار الزحف فضاقت نفوسهم ، وسئموا الحرب والقتال والغربة ، وذلك مافى نفس محمد بك أيضا . . وأصبحوا راحلين وطالبين الى مصر [1]

عاد محمد أبو الدهب منسحبا بجيشه من بلاد الشام فأساء هذا التصرف الشيخ ظاهر العمر الذى كان عليه نتيجة لهذا الانسحاب أن يتلقى وحده ضربات البشوات العثمانيين العائدين الى المدن التى انسحب منها الجيش المصرى ، كما أساء الانسحاب وبدرجة أكبر الى على بك الكبير وما لبث ان اشتد النزاع بين على بك ومملوكه محمد أبو الدهب .

كان من السهل على أبى الدهب أن يتغلب على سيده الذى غادر مصر بعد أن حمل حموله وأمواله وذهب الى جبهة الشام ، وصحبته على بك الطنطاوى وباقى صناجقة ومماليكه وأتباعه وطوائفه [3] وقد لجأ على بك الى صديقه الشيخ ظاهر العمر فى عكا . ومن هنالك أخذ يفكر فى العودة الى مصر وقد أبدى صديقه ظاهر استعداده لأمداده بقوة من جيشه ترافقه الى مصر ، كما وعده الكونت ألكسيس آرلوف Alexis Arlof قائد الأسطول الروسى فى البحر المتوسط بأمداده ببعض الأسلحة لاستخدامها فى الزحف الى مصر

---

(١) رفعت رمضان : على بك الكبير ص ١٧٤

(١) الجبرتى : نفس المرجع ص ٩٣

(٣) نفس المرجع ص ٩٦ وكان ذلك فى ٢٥ المحرم ١١٨٦ هـ الموافق ٢٨ أبريل ١٧٧٢ م

أسرع على بك الى الزحف صوب مصر حتى إذا وصل الى الصالحية بالشرقية فى ١٥ صفر ١١٨٧ هـ الموافق ٢٦ أبريل ١٧٧٣ م التقى مع جيش يقوده محمد أبو الدهب فى معركة كان النصر فيها حليف الأخير ، وكان لخيانة المرتزقة من مشاة المغاربة أثر أساسى فى هزيمة الصالحية ، التى تعتبر أهم المواقع الثلاث الحاسمة فى تاريخ على بك [1] وجرح على بك وتلقاه مملوكه أبو الدهب وحمله الى القاهرة وأخذ يقدم له الرعاية الطبية إلا أنه مالبث أن مات فى ٢٥ صفر ١١٨٧ هـ الموافق ٨ مايو ١٧٧٣

وبموت على بك خلصت مصر لمحمد بك أبو الدهب الذى رغم وصول الوز. خليل باشا والي على مصر فى ٨ يونيو ١٧٧٣ م إلا أن هذا الوالى لم يكن له فى الولاية إلا الأسم على الأوراق ، والتصرف الكلى للأمير الكبير محمد بك أبو الدهب والأمراء وأعيان الدولة مماليكه واشرافه [2]

على بك والدول الأجنبية

تمثلت صلات على بك الكبير بالدول الأجنبية فى علاقاته بكل من روسيا والبندقية وانجلترا ، فروسيا عدوة تقليدية للدولة العثمانية التى خلع على بك طاعتها ، والبندقية بلد صديقة كارلو روستى ولها مصالح اقتصادية عبر مصر ، وانجلترا مهتمة بتأمين طريقها الى الهند عبر مصر والبحر والأحمر . أذن دفعت المصالح المتبادلة بين على بك وهذه الدول الى توثيق العلاقات بينه وبينها ضد الدولة العثمانية .

انتهز على بك فرصه أنشغال الدولة العثمانية فى معارك الحرب الروسية العثمانية منذ عام ١٧٦٨ م ليوطد علاقته بالروس ، وكان على بك تربطه بروسيا روابط العداء المشترك للدولة العثمانية وقد نشبت الحرب بين الأتراك والروس بسبب ماعرف بالمسألة البولندية عام ١٧٦٨ م فى عهد الأمبراطورة كاترين ومنذ بداية الحرب ظهرت علامات أنتصار الروس على الأتراك فى البحر والبر خاصة فى البحر المتوسط وفى رومانيا ، وأحدث ظهور الأسطول الروسى فى البحر الأبيض دويا كبيرا فأتصل بالعناصر السلاقية والأرثوذكسية الثائرة على الدولة انعثمانية بل والعربية الثائرة فى الولايات العربية مثل على بك الكبير فى مصر والشيخ ظاهر العمر فى فلسطين [3] .

---

(١) رفعت رمضان : المرجع السابق ص ١٩٦ ، والمعركتين الأخريين هما المعركة ضد حسين بك كشكش فى ١ يونيو ١٧٦٨ م ومعركة أسيوط فى يونيو ١٧٦٩ م ضد أنصار همام الهوارى .
(٢) الجبرتى : نفس المرجع ص ٩٩
(٣) د . محمد أنيس : الدول العثمانية والشرق العربى ص ١٦٧

وكانت مرابطة الأسطول الروسى فى بحر الأرخبيل بقيادة الكونت الكسيس أورلوف Aexis Arlow مشجعا لعلى بك لكى يتصل بقائده ويطلب مساعدته بتأمين وصول أسلحة ومعدات روسية لقوات على بك فى مصر ، خاصة بعد أن تم تدمير الأسطول التركى بمعرفة الأسطول الروسى فى موقعة جشيمة الشهيرة فى ٢٥ / ٢٦ يونيو ١٧٧٠ م وبعد أن أظهرت مساعدة الأسطول الروسى للثوار اليونانيين فعاليتها وبعد أن اتخذ الكونت أورلوف من جزيرة باروس مقرا لقيادة الأسطول .

وقد عرض على بك أن يعقد مع الروس اتفاقية تتضمن أن يقوم الروس بتزويد جيشه بالاسلحة والعسكرين المدربين ، وأن يكون الأسطول الروسى حاميا للشواطىء المصرية ضد أية محاولات هجومية عثمانية ضد مصر عن طريق البحر المتوسط .

وأبدى على بك مقابل ذلك أن يتعهد بخلع طاعة الدول العثمانية وأن يرسل قواته لمهاجمة بلاد الشام والاستيلاء عليها ، وأن يعطى تسهيلات للسفن الروسية فى الموانى المصرية حتى تتمكن هذه السفن من الحصول على المؤن ومحطات للأصلاح .

وأكبر الظن أن على بك كان مستعدا ليعقد مثل هذه الاتفاقية مع أية دولة أوربية أخرى ، تمكنها سياستها إزاء الدولة العثمانية وظروفها فى البحر الأبيض المتوسط من ذلك تدعيما للخطة العامة التى سار عليها فى بعث الدولة المصرية واقتباس الوسائل الفنية الكفيلة بهذا البعث وخاصة فى الناحية العسكرية[1]

وقد رد الكونت أورلوف على عرض على بك بأنه على استعداد لأجابة طلبات على بك وحثه على الاستمرار فى موقفه من الدولة العثمانية ، وأنه بخصوص عقد الاتفاقية فقد ذكر أنه سوف يرجع الى حكومته والى الأمبراطورة « كاترين » بشأنها وأنهى رده بتقديم الشكر لعلى بك على عرضه بالتسهيلات فى الموانى المصرية ، وأنه سوف يطلبها متى وجد نفسه فى حاجة اليها ،

إلا أن عهد على بك لم يطل بسبب خروج مملوكه محمد أبو الدهب عليه ، فى الوقت الذى لم تصله فيه المساعدات الروسية التى وعد بها ، ولكن عندما فر على بك الى صديقة الشيخ ظاهر العمر أرسل اليه الكونت آورلوف وفد برئاسة الملازم « بليشييف » يحمل كمية من الأسلحة والذخائر استخدمها على بك فى قتال أبى الدهب ، هو الذى انتهى بهزيمه على بك فى الصالحية وخسرت روسيا بسبب تباطؤها فى نصرة على بك لاستعادة مركزه فى مصر .

إلا أن انتهاء الحرب الروسية التركية وتوقيع معاهدة الصلح المعروفة باسم « كجوك قينارجى » عام ١٧٧٤ م قد أدى الى توقف مشروع التحالف الروسى

---

(١) د . أحمد عزت عبد الكريم : دراسات فى النهضات العربية الحديثة ص ٤٤٠

المملوكى ، وان لم تتخل روسيا نهائيا عن سياسة الكيد للدولة فى ولاياتها والاصال بالامراء والزعماء فى مصر والشام [1]

ومما يجب الأشارة اليه أن التحالف الروسى مع على بك وظاهر العمر وسيطرة الاسطول الروسى على الحوض الشرقى للبحر المتوسط ، قد أضاف عاملا جديدا بالأضافة الى العوامل المحلية الأخرى لاضطراب التجارة الخارجية لمصر والشام وبقية أقطار المشرق العربى . رغم أن على بك والشيخ ظاهر العمر كانا يقدران أهمية هذه التجارة لرخاء بلادهما بما يجيىء من رسوم عليها [2]

وكان اتصال على بك بجمهورية البندقية عن طريق صديقه المسمى كارلوروستى Carlo Rosetti وهو ايطالى من البندقية ، وقد كلفه على بك بتنظيم التجارة الخارجية والعلاقات الدولية ، وبقى روستى بعد ذلك قنصلا لألمانيا حتى قدوم الحملة الفرنسية ، وكان صديقا لمراد [3]

وقد عول على بك على نفوذ صديقه « روستى » لكى تقف البندقية الى جوار مشروعاته التوسعية فى الشام والبحر المتوسط ضد الدولة العثمانية ، حتى أنه أرسل الى البندقية يعرض محالفته ومساعدته لها لكى تمتلك الجزر المملوكة للدولة العثمانية فى البحر المتوسط ، لتكون قاعدة حربية له ولكن جمهورية البندقية ردت شاكرة ومعتذرة ، وقام بهذه الرسالة من على بك للبندقية يعقوب الأردنى أحد معاونى على بك الكبير [4] .

ورغم أن الدولة العثمانية كانت منشغلة بالحرب مع روسيا ، فان جمهورية البندقية بلغت إذا ذاك من الضعف حدا جعلها عاجزة عن أن تبذل أى نشاط عدائى ضد السلطنة العثمانية فى البحر المتوسط ، فلم تستطع لهذا أن تقدم أيه مساعدة عملية لعلى بك [5]

كما أن اتصال على بك بانجلترا إنما جاء نتيجة تشابه المصالح بين الطرفين ، فعلى بك كان يطمع فى أحياء التجارة الهندية عن طريق مصر والبحر الأحمر ، وهو الطريق المعروف بالطريق البرى تمييزا له عن الطريق البحرى الذى تحولت اليه التجارة الهندية الى أوربا بالدوران حول أفريقيا مرورا برأس الرجاء الصالح .

---

(١) نفس المرجع ونفس الصفحة

(٢) نفس المرجع ص ٢١٤

(٣) محمود الشرقاوى : مصر فى القرن الثامن عشر ص ٧١

(٤) رفعت رمضان : على بك الكبير ص ١٦٠

(٥) د . أحمد عزت عبد الكريم : نفس المرجع ص ٢٤٤

وأما انجلترا فكانت مهتمة كثرا بتأمين الطريق البرى لتجارتها باعتباره أقصر من الطريق البحرى وأوفر فى النفقات مما يزيد الربح فى التجارة ، ومن هنا كانت استجابة السلطات البريطانية فى الهند لما أبداه على بك من استعداد لاستقبال سفنها فى موانيه ، كما تعهد ببسطه حمايته على المسافرين والتجار الأجانب الذين ينزلون فى بلاده . [1]

ذلك أنه كان هناك عاملان يحكمان العلاقات الأنجليزية المصرية فى القرن الثامن عشر بصفة خاصة هما التجارة البريطانية الهندية مع مصر ، والآخر استخدام الطريق البرى عبر مصر للمواصلات الى الهند ، وهو مايعرف بالعامل الهندى Indan Facter [2]

وبسبب هذا العامل الهندى اهتمت انجلترا بمصر ، كما أنها اهتمت بمصر بسبب موقعها الجغرافى ويجب أن يكون معلوما فى المقام الأول أن انجلترا وليس الفرنسيين هم الذين تولوا زمام المبادأة فى هذا الأتجاه ، وفى المقام الثانى فأن الأنجليز من ناحية ثانية هم الذين أخذوا على أنفسهم مهمة المبادرة فى تقريب مصر من الاستقلال غير مبالين بالسيادة العثمانية . [3]

ومن ثم رأينا انجلترا تشجع على بك ومن جاء بعده من البكوات المماليك على الوصول الى درجة أكثر من الاستقلال عن الدولة العثمانية ، ولذلك لكى يعترف هؤلاء الحكام بما أسرته لهم انجلترا من جميل فى سعيهم للحصول على مكاسب استقلالية من الباب العالى .

تقييم حركة على بك

لتقييم حركة على بك الكبير فى مصر لابد أن نتناول شخصية على بك وما أثير حولها من جدل ، كما نتناول طبيعة حركته فى مصر تلك الحركة التى اختلف حول طبيعتها المؤرخون .

إن تعدد تسميات على بك دليل على شخصيته ، فا ا كان المصريون قد لقبوه « بالجن على بك » فهذا يعنى عندهم الشخص النشيط الذى لايهدأ ويتغلب على خصومه ، وإذا كان الرحالة الأوربيون قد لقبوه بعلى بك الكبير فمرجع ذلك الى ماتسمت به شخصيته من قوة وعزيمة حققت الكثير حتى ذاع صيته فى مصر وبقية أقطار المشرق العربى وفى كل من فرنسا وانجلترا والبندقية والروسيا .

(1) نفس المرجع ونفس الصفحة

(2) Anis. M . England and the Suez Route in the 18 th Century. P . 17

(3) Anis. M . The development of British interest in Egypt in the 18 th Century

وان تعدد ألقاب على التي اشتملت الى جانب ماذكرنا الأسم الرسمي « ميراللوا على بك » وتسمية العثمانيين له « على بك بلوت قبان » ليس سوى مظهر من مظاهر نشاطه الجم وكفايته المتعددة ، فقد كان على بك كبير النفس كبير القلب كبير المطمع ، ظهر في عصر اضطراب وفوضى ، وفى وقت كانت مصر فى أمس الحاجة الى رجل مثله ، وقد أتقن على بك دوره وأخذ فى تنفيذه مضحيا بكل مايملك من صحة ومال . . . مادام يجد منفذا الى غرضه المزدوج : أن يجمع فى يده بصفته قائمقام ماتشتت من سلطة الباشا العثمانى وأن يخلق من الفوضى نظاما يمكنه من استغلال تلك السلطة لمصلحته ومصلحة مماليكه [1]

وكان على بك لايميل الى الهزل والمزاح ، ويجالس العلماء أهل الأحترام مثل الشيخ حسن الجبرتى والشيخ أحمد الدمنهورى وغيرهم ، وكان يطالع كتب التاريخ والأخبار ، وسير ملوك مصر من المماليك ويقول لخاصته . أن هؤلاء الملوك كانوا من جنسنا مثل السلطان بيبرس ، والسلطان قلاوون وأولادهم وكذلك ملوك الجراكسة ، ولم يستول العثمانيون على مصر ويقهروا هؤلاء المماليك إلا بالقوة ونفاق أهل البلد [2] .

ومع صفات على بك الطيبة وتحرية العدل فقد اشتهر بالقسوة التى لاتعرف الرحمة مع خصومه ومعارضيه فلا زالت عشرات الأرواح التى أمر بإزهاقها ليعبد بها سبيل مجده تنعى وسائله التى تقوم على القوة والغدر ، وهذه بلاشك نقطة سوداء تشوب نقاء صحيفته البيضاء [3] .

وإذا كان الجبرتى رغم ماورد من شواهد على قوة على بك قد أشاد فى أكثر من موضع بأمراء المماليك وسماهم الأمراء المصرية إشادة علمة ، إلا أنه أثنى كثيرا على حكومة على بك الذى جعل من مصر مدنها وريفها بلدا آمنا رخى العيش ، حتى كان المسافر يسير بمفرده ليلا راكبا أو ماشيا ، ومعه حمل الدراهم والدنانير إلى أى جهة ، ويبيت فى الغيط أو البرية [4] .

وقد أشاد الجبرتى باصلاحات على بك وانشاءاته سواء بالنسبة لدراوين الحكومة ليضمن انتظام الأمور وتحقيق العدالة ، أو إنشاء المساجد والأسبلة والعمائر ، وقلاع الأسكندرية ودمياط وتجديد مساجد الأمام الشافعى والسيد البدوى بطنطا ، وغير ذلك من شئون التعمير التى مازالت شاهدا على اتجاهات على بك للبناء

---

(١) رفعت رمضان : نفس المرجع ص ٢٠٢
(٢) محمود الشرقاوى : مصر فى القرن الثامن عشر جـ ٢ ص ٧٤
(٣) رفعت رمضان : نفس المرجع ص ٢٠٥
(٤) الجبرتى : نفس المرجع

وقد شارك بعض الرحالة الأوربيون الجبرتى فى الأشادة بحكومة على بك ، فالمؤرخ الفرنسى « سافارى » Savary آشاد بعدل على بك وكرمه ، واعترف كل من فولنى Volney وأوليفييه Olivierأنه سمع أثناء مستطابا عليه من التجار الفرنسيين الذين تفيئوا ظلال عدله وحكمه الرشيد [1]

ورغم أن الرحالة الأنجليزى « جيمس بروس » James Bruce قد حمل بشدة على البكوات المماليك واتهمهم بأنه ربما لايوجد فى العالم رجال أجلاف جائرون طغاة ظالمون جشعون يمثل ال درجة التى عليها أولئك الأشرار الذين يقبضون على حكومة القاهرة ، فانه أتصف حكم على بك بقوله ولحسن الحظ عندما كنت بالقاهرة لن أصادف ذلك النوع المشوش من الحكومات ، بل كان على بك الشهير يحكم بنفسه أو بوساطة عماله (٢) .

ورغم ذلك كان لعلى بك سلبيات أفضت فى النهاية الى فشله فى تحقيق مشروعاته ، من بينها قلة حظه من الثقافة واعتماده على التنجيم والفلك حتى أسير ماتشير اليه النجوم وحتى خضع للمنجمين وقربهم منه ، ومنها أن حاشيته لم يكن فيها الناصح الأمين الذي يستند الى خبرة سياسية وعلمية .

ومن سلبيات على بك الكبير أنه لم يشرك الشعب المصرى فى تحقيق مشروعاته وتطلعاته ، وبذلك رأينا المصريين يأخذون من حركته منذ بدئها موقفا سلبيا يدافعوا عنها عندما انهارت بمقتل على بك نفسه على يد مملوكه محمد أبو الدهب ، واكتفى على بك بتحميل المصريين نفقات حروبه الخارجية ومشروعاته الداخلية .

ويأتى الشق الثانى من تقييم حركة على بك الكبير ، وهو طبيعة هذه الحركة ذلك أن بعض المؤرخين ذهبوا الى أن على بك يهدف من حركتة الاستقلال التام عن الدولة العثمانية وإقامة سلطة مصرية مستقلة تخضع لسيطرته ، وتعود امصر شخصيتها المستقلة التى كانت لها قبل الاحتلال العثمانى .

بينما ذهب البعض الأخر من المؤرخون الى أن على بك إنما كان يهدف فقط الى الأنفراد بالحكم فى مصر تحت السيادة العثمانية دون أن يفكر فى خلع طاعتها ، على اعتبار أنه أدرك أن مثل هذا الخلع لطاعة الدولة العثمانية قد لايكون مقبولا من الشعب المصرى بل ومن المؤكد أن الدولة العثمانية ستقف بحزم ضد هذا الاتجاه فى الوقت الذى توجد اتجاهات عند بعض الزعامات المملوكة للانقضاض على على بك وتخليص مصر من حكمه .

(١) رفعت رمضان : نفس المرجع ص ٢٠٨
(٢) نفس المرجع ونفس الصفحة

وقد استند أصحاب الرأى الأول القائل بان على بك كان هدفه الاستقلال بمصر استقلالا تاما عن الدولة العثمانية الى عدة أدلة منها توافق أنزال على بك للباشا محمد راقم من القلعة عام ١٧٦٨ ، مع اشتعال الحرب الروسية التركية مما يدفع الى الاعتقاد بأن على بك أراد انتهاز هذه الفرصة لمصلحته الخاصة وعزز اعتقادهم هذا بأنه بعد الحجر على الباشا تولى على بك منصب قائمقامية مصر حتى أخر عهده ولم يسمح للبشوات العثمانيين بالقدوم الى مصر .

ويرى الرحالة الانجليزى جيمس بروس قصة تؤيد هذا الاعتقاد ملخصها أن على بك سأل بروس فى أول مقابلة بين الرجلين فى شهر يوليو ١٧٦٩ م عقب اشتعال الحرب الروسية التركية عن نهاية الحرب فلما أجابه بروس بأنه . سيعقد صلح بعد أن تسيل دماء كثيرة ولن يكسب أحد الطرفين كثيرا من هذه الحرب . فضرب البك كفا على كف وقال بالتركية لاحول ولا قوة إلا بالله ، ثم التفت الى رزق (١) الذى كان واقفا وقال له : لاشك فى أن ذلك سيكون من قلة حظنا ، ولكن ماقدر يكون إن الله بنا رءوف رحيم (٢)

كما يؤيد الاعتقاد بأن حركة على بك كانت حركة استقلالية بمصر عن الدولة العثمانية ماذكره الجبرتى من أنه بعد أن خلع على بك الباشا العثمانى وطلب من الدولة عدم إرسال ولاه أوقف إرسال الجزية السنوية ، وكانت آخر خزنة رأيناها سافرت الى إسلامبول على الوضع القديم (٣) ، عام ١١٨٠ ه حملها عثمان بك أبو سيف ومات هناك فى نفس السنة . كما أن قنصل فرنسا السير دى جونفيل M . De Jqbville استشف نيات على بك فكتب يقول أن ، غرضه جعل مصر دولة مستقلة قوامها قوة المماليك المطلقة (٤)

وفى مقالب هذا الاعتقاد رأينا اعتقادا آخر يدافع عنه كثير من المؤرخين مؤداه أن على بك لم يكن يسعى الى فصل مصر عن الدولة العثمانية ، وحجتهم فى ذلك أن على بك منذ توليه مشيخة البلد عام ١٧٦٧ م كان حريصا على إظهار الطاعة للسلطان العثمانى ، وقد أدى الجبرتى شواهد كثيرة على هذا الحرص منها أن على بك عام ١٧٦٨ م ارسل للسلطان رسولا يحمل لعلى بك مرسوما وقفطانا وسيفا إظهارا للرضاء السلطانى .

---

(١) هو المعلم رزق الذى اتخذه على بك وزيرا ومستشارا . . ولم يعد يصدر فى حركة من الحركات إلا بعد أخذ رأى المعلم رزق القبطى أو أتباعه لنصيحته نظرا لخبرته فى النواحى المالية والتنجيم .

(٢) رفعت رمضان : نفس المرجع ص ٥٥

(٣) الجبرتى : نفس المرجع

(٤) رفعت رمضان : نفس المرجع ص ٥٧

ويضيف الجبرتى الى ذلك أن على بك كان حريصا على أن يكون تحركه بفرمان من الباشا . وأن يعلن فى حروبه ضد منافسيه أنه يحاربهم باسم السلطان ومن أجل إعلاء سلطته ، كما أن الجبرتى أراد فى أحداث عام ١١٨١ هـ (١٧٦٧ - ١٧٦٨ م) أن محمد باشا راقم نزل الى بيت على بك باستدعائه فتغدى عنده ، وقدم له تقادم بهدايا ، وكان ذلك فى ١٢ ربيع الأول الموافق ٢٧ يوليو ١٧٦٨ م [1]

كما أورد الجبرتى قصة فى أول رمضان ١١٨٣ هـ الموافق ٢٩ ديسمبر ١٧٦٩ م جاء فيها أنه اتفق أن على بك صلى الجمعة الأولى من رمضان بجامع الداودية ، فخطب الشيخ عبد ربه ودعا للسلطان ، ثم دعا لعلى بك ، فلما انقضت الصلاة وقام على بك يريد الانصراف أحضر الخطيب . وكان رجلا من اهل العلم يغلب عليه البله والصلاح ، فقال له من أمرك بالدعاء باسمى على المنبر ؟ اقيل لك أنى سلطان ؟ فقال نعم أنت سلطان وأنا أدعو لك ، فاظهر الغيظ وأمر بضربه ، فبطحوه وضربوه بالعصى ، فقام بعد ذلك متألما من الضرب ، وركب حمارا وذهب الى داره وهو يقول فى طريقه : بدأ الأسلام غريبا وسيعود كما بدأ ثم أن على بك أرسل اليه فى ثانى يوم بدراهم وكسوة واستسمحه [2]

ومما ذكره الجبرتى ندرك مدى حرص على بك على استمرار الخطبة للسلطان العثمانى باعتباره سلطانا لكل الدولة بما فيها مصر ، ولا يعنى ماذهب اليه البعض من أن على بك كان حريصا على أخفاء أهدافه الانفصالية ، ذلك أن هذه الحادثة وقعت بعد مرور أكثر من عام على بدء حركة على بك بانزال الباشا من القلعة التى تمت - كما رأينا فى ١٧ رجب ١١٨٢ هـ الموافق ٢٧ نوفمبر ١٧٦٨ م .

وأما عبارة سلطان مصر وخاقان البحرين فلم تكن هناك أدلة على أن على بك تلقب بها ، قد يكون شريف مكة عبد الله قد لقب على بك بهذه العبارة ، وقد يكون دعا له على منابر الحجاز اعترافا بفضله عليه فى تقلده شرافة مكة . وأما توقف الخزنة الرسمية عن الذهاب من مصر الى اسلامبول فلا تعتبر دليلا على انفصال على بك بمصر عن الدولة العثمانية ، لأن الدعاء للسلطان العثمانى - وهو المظهر الثانى للسيادة العثمانية - على المنابر فى صلاة الجمعة بقى قائما طول سنوات حكم على بك . بالاضافة الى أن العملة — وهى المظهر الثالث للسيادة العثمانية — الفضية والذهبية التى أمر على بك بسكها منذ عام ١٧٦٩ م قد نقش على أحد وجهيها اسم السلطان العثمانى مصطفى الثالث (الذى حكم من عام ١٧٥٧ الى ١٧٧٣ م) وعلى الوجه الآخر نقشت عبارة « ضرب فى مصر » ولايقلل من قيمة ذلك ودلالته ظهور عملة جديدة تحمل طابعا مميزا عن العملة المتداولة فى مصر قبل ذلك ،

(١) الجبرتى : نفس المرجع ص ٨٣
(٢) نفس المرجع ص ٩٠

هذا الى جانب أن جميع الأوامر والفرمانات وتقاسيط الالتزام التى كانت تصدر بتوقيع باشا مصر أصبحت تصدر باسم : حضرة على بك ميرالوا قائمقام محروسة مصر كما كانت تقاسيط الالتزام تختم بخاتمه الخاص دون أى اشارة الى الباشا وذلك فى المدة الواقعة بين عامى (١١٨١ – ١١٨٦ هـ الموافق ١٧٦٨ – ١٧٧٢ م) [١]

والرأى عندى هو أن على بك فى حركته لم يهدف الى الانفصال التام بمصر عن الدولة العثمانية وكل ماكان يطمع اليه هو أن تكون له مقاليد الأمور فى مصر ، وأن على بك لم يكن أبدا يرمى الى إعلان العداء للدولة العثمانية أو محاربتها رغم أنه لجأ الى ضم الحجاز الى مصر وهو أمر حيوى لمصر وحكامها من الناحية الدينية والسياسة . ورغم أنه استعان بصديقه الشيخ ظاهر العمر ، والأسطول الروسى فى البحر المتوسط لأن هذه الاستعانة حدثت بعد أن رأى عين الغدر من الدولة العثمانية ضده وضد صديقه الشيخ ظاهر العمر الذى كان يشارك على بك الشكوك من أن الدولة العثمانية رغم محاولاتها لأرضاء قادتها بالهدايا والأموال وترسل رضاها الى الرجلين ، سرعان ماكانت تنقض هذا الرضاء وتحرص للقضاء عليهما .

مصر بعد على بك

بعد وفاة على بك تسلم زمام الأمور فى مصر محمد بك أبو الدهب مع وجود باشا عثمانى هو خليل باشا الذى ذكر الجبرتى أنه « محجوز ليس له فى الولاية الا الاسم والعلامة على الاوراق » . والتصرف الكلى للأمير الكبير محمد بك أبو الدهب[1] حتى إذا توفى أبو الدهب عام ١٧٧٥ خلفه فى مشيخة البلد خشداشه إسماعيل بك . وبعده إبراهيم بك ومراد بك مملوكا أبو الدهب .

وقد شارك أبو الدهب فى القضاء على إمارة الشيخ ظاهر العمر فى عكا بتحريض من السلطان العثمانى الذى أغرى أبا الدهب بالأمارة على الشام مع مصر ، ولكن ابا الدهب توفى فى نفس العام الذى قضى على إمارة الشيخ ظاهر فى عكا وهو عام ١٧٧٥ م

ولقد ساءت الأمور فى مصر فى عهود كل من إسماعيل بك وابراهيم بك ومراد بك ، وعمت الاضطرابات والقسوة والظلم ، كما حدثت خلافات بين اسماعيل من ناحية وبين ابراهيم بك ومراد بك من ناحية أخرى دعت الدولة العثمانية الى التدخل عام ١٧٨٦ م بحملة عسكرية اضطر أمامها كل من ابراهيم بك ومراد بك الى الفرار من القاهرة الى الصعيد ، حتى إذا توفى اسماعيل بك بالطاعون عام ١٧٨٨ م عاد الرجلان وتقلدا مشيخة البلد وإمارة الحج بالتناوب فيما بينهما وظلا على هذا الوضع حتى فاجأتهما الحملة الفرنسية بقيادة نابليون بونابرت عام ١٧٩٨ م .

ولم تستفد مصر بتات من حكم هؤلاء البكوات ، بل تحمل شعبها عبء الأرهاق وشظف العيش لدفع الأموال المطلوبة للصراع بين البكوات ، وحتى التجار الأجانب عانوا من تعسف المماليك الذين أساءوا معاملتهم وارهقوهم بالضرائب مما أدى الى اغلاق البيوت التجارية الاجنبية فى كل من القاهرة والاسكندرية هذا على الرغم من محاولات الدول الأوربية وخاصة انجلترا وفرنسا والروسيا التى تنافست لعقد معاهدات مع ابراهيم ومراد من أجل إحياء الطريق البرى عبر مصر والمساعدة على استقلال مصر لمصلحة الأميرين المملوكين على نفس النسق الذى كانت عليه مصر فى عهد على بك الكبير .

---

(١) د . رفعت رمضان : نفس المرجع ص ٥٩

(٢) يروى عن أبو الدهب أنه عندما تقلد إمارة الحج لأول مرة عام ١١٧٨ هـ ولبس خلعتها فى القلعة نزل يفرق نقودا ذهبية ، وينثر الذهب على الفقراء حتى دخل بيته وهو يقول أنا أبو الدهب

وكان عقد معاهدة بين مراد » وترجويه » القنصل الفرنسى عام ١٧٨٥ م دافعا لعقد معاهدة بين القنصل الانجليزى بالدوين George Baldwin وكل من ابراهيم ومراد عام ١٧٩٤ م كما كانت دافعا لنشاط روسى لعقد معاهدة مع البكوات المماليك فى مصر ، وقد قيل إن مراد عرض على روسيا أن يعطيها ــ وقت الحرب مع الدولة العثمانية ــ حق إقامة حاميات بالاسكندرية ورشيد ودمياط فى مقابل اعترافها باستقلال مصر وفى العام التالى جاء من روسيا لفحص هذه الأماكن تمهيداً لأنزال حاميات روسية بها ، واستقبل مراد قنصلا لروسيا بالاسكندرية .

وقد أهملت الزراعة وشئون الرى مما أدى الى ضغيان رمال الصحراء على الترع والقنوات ، وإتلاف قسم كبير من الأرض الصالحة للزراعة ، وفضلا عن ذلك أهملوا فى تحصين البلاد التى تسلموا زمامها واضمحلت فى عهدهم الاسكندرية ، وهكذا كانت مصر ضعيفة عسكريا لاقدرة لها على المقاومة ومدافعة الغزو الأجنبى ، وظهر هذا الضعف واضحا عندما حضرت الى البلاد الحملة الفرنسية فى عام ١٧٩٨ م[٢]

---

(١) د . أحمد عزت عبد الكريم : المرجع ذكره ص ٢٤٦
(٢) د . السيد رجب حراز : نفس المرجع السابق ص ٣١

الباب الثالث

الاستــعمــار والأقطــار العربيـــة

مقدمـــــــة

الفصل الثامن : الاستعمار الانجليزى.

الفصل التاسع :الاستعمار الفرنسى.

الفصل العاشر : الاستعمارالايطالى.

توفرت ظروف وعوامل ساعدت على زحف الدول الاستعمارية : نحو أقطار الوطن العربى أثناء الحكم العثمانى لهذه الأقطار . كما توفرت ظروف وعوامل أدت الى قيام حركات العصبية المحلية فى أنحاء من الوطن العربى متفرقة ، وكما توفرت كذلك ظروف وعوامل ساعدت على ظهور دعوات الاصلاح الدينى المعروفة بالحركات السلفيه ، فكان من الطبيعى أن نجد الزحف الاستعمارى فى أقطار الوطن العربى نتيجة ظروف وعوامل يمكن تصنيفها على النحو الاتى :

أولا

عوامل تتعلق بالدولة العثمانية صاحبة السيادة ونظام حكمها فى الأقطار العربية ، فقد كانت الدولة العثمانية ذات الأمبراطورية المترامية الأطراف فى الغرب والشرق ـ فى أوربا وآسيا وأفريقيا ـ تضم شعوبا مختلفة عنها وفيما بينها من النواحى الجنسية والثقافية ، ومن الطبيعى أن يحدث تحلل لهذه الأمبراطورية عندما تضعف وعندما تنضج الشعوب الداخلة فى حوزة الامبراطورية ومن ثم وجدنا أنه فى الوقت الذى كانت فيه الدولة العثمانية فى القرن السادس عشر أقوى دول أوربا والعالم من الناحية الحربية أخذت هذه القوة فى الاضمحلال لانحلال نظمها الداخلية من ناحية وعدم مجارتها روح العصر ولظهور الروح القومى ونموه وللحروب الكثيرة التى خاضتها وللعداء المقيم بينها وبين روسيا والنمسا[1] وعلى هذا أصبحت الدولة العثمانية منذ النصف الثانى للقرن الثامن عشر رجل أوربا المريض ، وأصبحت معظم ولاياتها شبه مستقلة عن الدولة أو خاضعة للنفوذ الاجنبى حتى يمكن القول أنه لم يكن للدولة من سلطة فعلية الا فى العاصمة (الاستانية) وما حولها فى كل من أوربا وآسيا الصغرى .

ولقد ساعدت الدولة العثمانية بضعفها على انتزاع أقاليم من ولاياتها لصالح النفوذ الأجنبى اقتصاديا وثقافيا وذلك نتيجة لما منحته للقوى الأوربية فى الولايات العثمانية حققت قدرا كبيرا من السيطرة فى تلك الولايات وبالتالى حققت لهذه القوى الاوربية مصالحها على حساب المصالح العثمانية للدولة أو الولايات .

---

(١) د . محمد مصطفى صفوت : مؤتمر برلين ١٨٧٨ م وأثره فى البلاد العربية ص ٥

ثانيا

عوامل تتعلق بالاقطار العربية ، ذلك أن معظم أقطار الوطن العربي خضعت للسيطرة العثمانية منذ أوائل القرن السادس عشر اثناء قوة الدولة ، فلما ضعفت ظهرت حركات عصبيات محلية فى أنحاء من الوطن العربي ساهم بعضها الى جانب التنظيمات العثمانية للحكم فى وقوع الاقطار العربية كلها فى النهاية فى يد القوى الأوربية الاستعمارية كما أن العزلة التى فرضتها الدولة العثمانية على الأقطار العربية وخاصة العزلة الثقافية التى خلقت سلبية عند الشعوب العربية فلم ينضج فيها الوعى القومى العربى الا متأخرا جدا وبعد أن سقطت أقطار الوطن العربي الواحد بعد الأخرى فى أيدى الاستعمار الأوربي .

ثالثا

عوامل تتعلق بالدول الاوربية الاستعمارية : فقد كانت الدول الأوربية تتخذ فى مبدأ الأمر عند ضعف الدولة العثمانية سياسة المحافظة على الامبراطورية العثمانية ضد القوى الطامعة فيها أو الخارجة على سلطتها وذلك تحقيقا لمبدأ التوازن الدولى ، فى الوقت الذى تناصب فيه بعض الدول الاوربية الدولة العثمانية العداء ، فقد كانت سياسة روسيا خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر عاملة على تفويض ملك آل عثمان وتقسيم دولتهم[1] . وكذلك النمسا التى تريد ان تثأر من الدولة العثمانية التى توسعت فى اوربا حسبا الممتلكات النمسوية المجرية . بل انه بعد مؤتمر عام ١٨٧٨ م تخلت كل من انجلترا وفرنسا صاحبتا التاريخ الطويل فى سياسة التكامل السياسى للدولة العثمانية بصفة واضحة عن هذه السياسة فأخذت هاتان الدولتا تنتزعان من الدولة نفسها ولاياتها واقليمها[2] ، وبالتالى لم تنقطع الاعتداءات الاوربية على الممتلكات العثمانية حتى تم التهام كل هذه الممتلكات لمصلحة الدول الاوربية الاستعمارية

وكان مما شجع الدول الاوربية الى المسارعة باقتسام الممتلكات العثمانية ، سيطرة الدولة العثمانية على ولايات ذات موقع استراتيجى

---

(١) المرجع السابق ص ٥

(٢) د ، محمد أنيس ، د . رجب حزار : الشرق العربى فى التاريخ الحديث والمعاصر ص ٧٧

واقتصادى مهم كمصر التى تمر فى ارضها قناة السويس ذات الاهمية الكبرى فى ربط الشرق بالغرب ، وسيطرة الدولة العثمانية على .

المنطقة العربية الجنوبية المطلة على المحيط الهندى والخليج العربى ، والمنطقة العربية فى شمال افريقيا المواجهة لاوربا على الشاطىء الجنوبى للبحر المتوسط ، بالاضافة الى سيطرة الدولة العثمانية على مضيق البسفور والدردنيل وكل تلك المناطق تستهوى القوى الاستعمارية لتحل سيطرتها محل السيطرة العثمانية .

وكانت صورة اقطار الوطن العربى السياسية عقب الحرب العالمية الاولى على النحو التالى :

– مصر تخضع لاحتلال انجليزى منذ عام ١٨٨٢م ثم فرضت عليها الحماية الانجليزية عام ١٩١٤ م بسبب اشتراك تركيا صاحبة السيادة الشرعية على مصر فى الحرب الى جانب المانيا .

– السودان يخضع لاتفاقية الحكم الثنائى المصرى الانجليزى اسما والانجليزى فعلا منذ عام ١٨٩٩ م عام توقيع الاتفاقية عقب استرجاع السودان من المهديين .

– العراق يخضع لانتداب انجليزى رغم وجود نظام ملكى على راسه فيصل بن حسين ، وذلك تحقيقا لاتفاق سايكس– بيكو بين انجلترا وفرنسا وقررات مؤتمر سان ريمو عام ١٩٢٠ .
– فلسطين تخضع لانتداب انجليزى بعد طرد الاتراك منها فى معارك الحرب العالمية الاولى ومن ثم مساعدة اليهود على اقامة وطن فى فلسطين .
– اليمن الجنوبية تخضع لاحتلال انجليزى منذ عام ١٨٣٩م .
– امارات ومشيخات الخليج تخضع لسيطرة انجليزية .
– خلقت انجلترا امارة شرقى نهر الاردن ارضاء للشريف حسين ووضعت على راسها الامير عبد الله بن حسين – تحت النفوذ الانجليزى .
ـ اقتسمت كل من انجلترا وفرنسا وأبطاليا الصومال منذ أواخر القرن التاسع عشر واستمرت تجزئة الصومال تحت السيطرة الثلاثية .

- الجزائر تخضع لاحتلال فرنسى منذ عام ١٨٣٠ م .
- وتونس تخضع أيضا لاحتلال فرنسى منذ عام ١٨٨١ م
- ومراكش (المغرب) تخضع لاحتلال فرنسى منذ عام ١٩١٢ م .
- سوريا ولبنان تخضعان لانتداب فرنسى تحقيقا لاتفاق سايكس ـ بيكو ، وذلك عقب معارك الحرب العالمية الأولى . وطبقا لقرارات مؤتمر سان ريمو عام ١٩٢٠ م
- ليبيا تخضع لاحتلال إيطالى منذ عام ١٩١١

وبقيت كل من المملكة العربية السعودية واليمن تعيش مستقلة دون أن يكون للاستعمار فيهما نفوذ كبير

هذه هى الصورة الساسية لأقطار الوطن العربى فى أعقاب معارك الحرب العالمية الأولى ولكن كيف تكونت هذه الصورة ؟ الأجابه على هذا السؤال . تجدها فى الصفحات التالية .

الفصل الثامن

الأستعمار الأنجليزى

- في مصر والسودان.
- في العراق والخليج والجنوب العربي.
- في فلسطين وشرقي الأردن.

فى مصر والسودان

كانت انجلترا أسبق الدول الأوربية اهتماما بالمنطقة العربية وبالتالى فرض السيطرة الأستعمارية على أجزاء كثيرة فى الوطن العربى . ففى تم مصر تعيين أول قنصل لانجلترا عام ١٦٩٧ ، بالقاهرة ووكيلا له بالاسكندرية ، وحصل الانجليز على امتيازات من السلطان العثمانى فى مصر ، ومن ثم دخل الانجليز فى منافسة مع الفرنسيين فى مصر . وفى الثلث الأخير من القرن الثامن عشر ازداد اهتمام انجلترا بمصر على انها سوق تجارية ولكن لعاملين جديدين الأول : ضعف الدولة العثمانية وهزائمها المتكررة فى البلقان وظهور الأطماع الفرنسية فى مصر بما يوحى بقرب غزو فرنسى لمصر ، والعامل الثانى هو ظهور أهمية مصر كحلقة فى طريق المواصلات البرية والبحرية بين أوربا والهند ، فقد انتزعت انجلترا من فرنسا أكبر مستعمراتها فى الهند فى صلح باريس عام ١٧٦٣ م ، واتجه الاهتمام الى تيسير المواصلات بين انجلترا وامبراطوريتها الهندية ، ومن هنا انبعث التفكير الى إحياء الطرق البرية القديمة وأهمها طريق البحر الأحمر ، وطريق الخليج الفرات (١) ٨

وقد حاول الأنجليز أحياء طريق التجارة عبر البحر الأحمر ومصر ، وقاموا بمحاولات متعدده لذلك بعضها مع الباب العالى وبعضها مع أراء المماليك ، وبصفة خاصة على بك الكبير الذى كان قد استولى على الحجاز فرحب بالفكرة لأنها ستدر عليه دخلا كبيرا بوصول السفن التجارية الهندية الى السويس ثم تمر عبر الأراضى المصرية الى الأسكندرية حيث تحملها السفن الى انجلترا . . . وهذا المرور سوف ينعش مصر بعد أن تحولت التجارة الى طريق رأس الرجاء الصالح منذ أوائل القرن السادس عشر .

وهكذا تحكم فى السياسة الانجليزية نحو مصر والبحر الأحمر ماعرف بالعامل الهندى Indian Pactor الذى يعنى استخدام الطريق البرى عبر مصر الى الهند . وقد كان ذلك سببا يدفع السياسة الخارجية الى تقدير أهمية مصر من الناحية الجغرافية وتقدير أهمية موقعها بالنسبة للامبراطورية فى الهند (١) . ولكن اضطراب الأحوال فى مصر فى عهد سيطرة الأمويين ابراهيم بك ومراد بك على الأمور دفع الأنجليز الى التخلى مؤقتا عن الاهتمام بمصر وبالطريق البرى عبرها .

---

(١) د . عزت عبد الكريم وآخرون : دراسات تاريخية فى النهضة العربية الحديثة ص ٢٢١

(1) Dr . M . Anis : England and the Sues ' Route in the 18 th century .P . 16 .

ولكن حدوث الغزو الفرنسى لمصر عام ١٧٩٨ م الى عام ١٨٠١ م قد نبه انجلترا الى ضرورة الاهتمام بمصر ، وكلنا يذكر موقف انجلترا من هذا الغزو ومشاركتها فى إجلاء الفرنسيين عن مصر بالقوة عام ١٨٠١ م ، ثم محاولتها أن يكون لها النفوذ الأعلى فى مصر فى أوائل القرن التاسع عشر لدرجة تحتضن فيها أفريقيا من الأمراء المماليك على رأسهم محمد بك الألفى ليكونوا رجالها وعملاءها فى مصر . وقد حاول الأنجليز مع السلطان العثمانى أن يعهد بالحكم فى مصر لمحمد بك الألفى ، ولكن دون جدوى حتى توفى الألفى فى يناير ١٨٠٧ م ، ثم محاولة انجلترا احتلال مصر فيما عرف بحملة فريزر عام ١٨٠٧ م أيضا التى فشلت وانسحبت تحت ضغط المقاومة الشعبية المصرية ، ولكنها لم تقف مكتوفة اليدين أو وقفت موقف المتفرج للبناء الحديث الذى يشيده محمد على معتمدا على الخبره الفرنسية فى المقام الأول ، إذ أنها أخذت ترقب الموقف الى أن تتهيأ لها الفرصة لتضرب بضربتها .

ورغم أن محمد على شجع انجلترا على إعادة فتح الطريق عبر مصر والبحر الأحمر الى الهند ، فان ابرهيم باشا عارض مشروعات انجلترا عام ١٨٣٦ م باستخدام السفن الانجليزية فى نهر الفرات لأن ذلك سوف يحد من امتداد الحكم المصريى الى العراق ، وكان ذلك من عوامل سوء العلاقة بين انجلترا ومحمد على ، كما زاد العلاقة سوءا اتصال ابراهيم باشا بأمراء المشيخات العربية فى الخليج والجنوب العربى وحثه إياهم على توثيق العلاقات السياسيه والحربية وللاقتصادية مع مصر . ومن ثم توترت العلاقات بين الطرفين حتى أنزرت الحكومة الأنجليزية بأنها لن تقف مكتوفة اليدين إزاء أى زحف من جانب محمد على تجاه بغداد والخليج ، وأن أى اعتداء على عدن التى احتلتها ا نجلترا عام ١٨٣٩ م يعد اعتداء على جزء من ألاملاك البريطانية .[1]

وأستمرت محاولات انجلترا من أجل فرض النفوذ فى مصر ، ولم تكن هذه المحاولات تستقيم مع مشروعات محمد على الداخلية والخارجية ، ولذلك أتخذت انجلترا موقف المعارض لفكرة محمد على بأعلان الأستقلال بمصر والأنفصال عن الدولة العثمانية وأنها ترى من المستحيل تنفيذ هذه الفكرة وترى من نتائجها المحققة الدمار للباشا [2] . وقد استطاعت انجلترا أن تستعمل رغبة محمد على فى تحسين علاقته معها فى توسيع تجارتها مع مصر ، ذلك أن المصانع الأنجليزية أعتمدت على القطن المصرى منذ عام ١٨٢١ م . وقد أصبحت تجارة مصر مع انجلترا منذ عام ١٨٣٠ م تفوق تجارتها مع أى بلاد أخرى ، حتى أنه فى سنة ١٨٤٩ م ، التى توفى فيها محمد على بلغ ماأستوردته مصر من بريطانيا ٤١ ٪ من زارداتها ومأأرسلته أليها ٤٩ ٪ من صادراتها .[3]

(١) جورج كيرك : موجز تاريخ الشرق الأوسط ص ١٢٢
(٢) محمد رفعت : تاريخ مصر السياسى فى الأزمنة الحديثة ص ١٢١
(٣) جورج كيرك : نفس المرجع ص ١٢٣

ورغم ذلك وقفت انجلترا موقفا عدائيا ضد مصر فى معركة نوارين البحرية ، وفى حروب الشام الى جانب السلطان العثمانى ، وعملت على تأليب الدول الأوربية ضد مشروعات محمد على حتى أنتهى الأمر بفرض معاهدة لندن عام ١٨٤٠ م على محمد على والتى أفقدته جهوده ومشروعاته العربية بل الداخلية بتخليه على بلاد الشام والحجاز وكريت ، وبقتل التجربة الصناعية المصرية الحديثة والنهضة التعليمية العسكرية .

استطاعت انجلترا فى عهد عباس باشا أن تحصل على امتياز مد خط حديدى بين القاهرة وكل من الأسكندرية والسويس ، رغم كراهية الباشا للنفوذ الأوربى ، وواضح من هذا الأمتياز المواقع التى تهتم بها انجاترا فى مصر لتشجيع تجارتها وتسويق صناعتها ، ولكنها فقدت هذا النفوذ فى عهد محمد سعيد باشا ، ولكنها استطاعت أغراق الباشا فى الديون حتى تحكم السيطرة على مصر كما أستغلت حاجة الخديوى إسماعيل الى الأموال لتحقيق مشروعات طموحة فى مصر فزادت من إفراضه حتى جاء الوقت لتتحكم اللجان المالية الأنجليزية الفرنسية خاصة فى شئون الحكم ، وذلك التحكيم الذى أفضى فى النهاية الى حدوث الأحتلال البريطانى لمصر عام ١٨٨٢ م .

حدث الاحتلال الانجليزى لمصر بدعوة إنقاذ مصر من الفوضى التى ضربت أطنابها فى طول البلاد وعروضها ، وأعادة حياة الأستقرار والأطمئنان ، وإدخال أساليب المدنية الحديثة الى مصر ذات الحضارة القديمة ، وحماية الأقليات والجاليات الأجنبية فى مصر والمحافظة على مصالحهم ثم وهو الأهم حماية المصالح الأنجليزية الخاصة السياسية والأقتصادية والأستراتيجية ، هذه المصالح الناشئة من وقوع مصر فى ملتقى الطرق العالمية البرية والبحرية ، ثم المحافظة على قناة السويس ومصالح البريطانيين التجارية والمالية ،(١)

وسياسة الأحتلال البريطانى فى مصر قامت على قاعدتين متناقدتين فى الظاهر القاعدة الأولى أن الاحتلال مؤقت وسوف تجلو القوات البريطانية فى أقرب ؤقت تتهيأ الفرص لاستقرار الأمور فى مصر ، والقاعدة الثانية أحكام السيطرة على كل الأمزر فى مصر . ففيما يتعلق بالقاعدة الأولى لم تقم أنجلترا بالحاق مصر اليها أو فرض حمايتها عليها ، ولم تقم بتغيير وضع مصر الدولى والشرعى حتى عام ١٩١٤ م بسبب التناقضات بين الدول الأستعمارية ، وبقاء مصر جزءا من الأمبراطورية العثمانية وبقى الخديوى يترأس هيئات السلطة الرسمية فى مصر .

وفيما يتعلق بالقاعده الثانية ألغت أنجلترا المراقبة الثنائية على شئون مصر المالية ولم تشأ السماح بوجود مرا قبيين ماليين فرنسيين بعد أن أصبحت سيطرة الأنجليز على البلاد

---

(١) د . محمد مصطفى صفوت : الاحتلال الانجليزى لمصر وموقف الدول الكبرى أزاءه ص ٣١٥

كاملة ، وحولت مصر الى قاعدة لتزويد الصناعة البريطانية بالقطن ، وزاد عدد الموظفين الانجليز وزاد نفوذهم فى مصر لدرجة التعالى وممارسة الضغط بصورة وصفها للورد كرومر المعتمد البريطانى فى مصر فى تقريره سنة ١٩٠٣ م بقوله يحسن بكل بريطانى موظف فى الحكومة المصرية أن يعرف الظروف الخاصة التى يعمل بها فى هذه البلاد ، وهذه الظروف ينتج عنها بالضرورة أن يكون الأوربى متقدما والمصرى تابعا له حتى ولو كان منصب الأوربى دون منصب المصرى اسما ، زأن القيادة للموظف الأوربى بالضرورة (١)

وكانت سيطرة لورد كرومر (سير ايفلن بارنج) على مقدرات الأمور فى مصر شديدة فقد حرم المصريين من كل سلطة واتخذ مواقف متشددة من الحركة الوطنية المصرية ، ورسم سياسة إجلاء المصريين من السودان وإحلال السيطرة الأنجليزية محلها ، ولعل معنى تقديمه تقارير سنوية دورية عن الحالة فى مصر والسودان لوزير الخارجية الأنجليزى لا للسلطان العثمانى أو الخديوى خير دليل على مدى سيطرة سلطات الاحتلال الأنجليزى على مقدرات الأمور فى مصر لمصلحة الدولة التى تحتل قواتها أرض مصر .

وفى مصر عملت انجلترا على فصل السودان عن مصر منتهزة فرصة الثورة المهدية عام ١٨٨١ م وقد اتبعت أو فرضت على مصر سياسة إخلاء السودان عام ١٨٨٤ م من المصريين عسكريين ومدنيين ، ثم فرضت استرجاع السودان عام ١٨٩٦ م بقوات مصرية انجليزية مشتركة ، انتهت بعقد ماعرف باتفاق الحكم الثنائى الذى جعل السودان تحت السيطرة الكاملة للانجليز .

وقد نصت الاتفاقية على تعيين حاكم عام للسودان تختاره انجلترا ويصدر قرار تعينه من الخديوى ، وتوضع فى يد هذا الحاكم جميع السلطات المدنية والعسكرية والتشريعية والتنفيذية . ووضع موظفون انجلترا على رأس جميع مديريات السودان ، وشغل عدد من الوظفين المصريين وظائف ثانوية واحتفظت مصر بكتيبة فى السودان الى جانب القوات الأنجليزية كرمز للمشاركة فى الحكم نظير أن تدفع مصر ٧٥٠ ألف جنيه سنويا لسد نفقات إدارة السودان . . . وظلت السيطرة على السودان حتى حصل على استقلاله بضغط وجهد من ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ بمصر . . . .

وقد استمرت الدعاوى الانجليزية بأن الاحتلال مؤقت حتى شبت الحرب العالمية الأولى فأنتهزت انجلترا فرصة اشتراك تركيا الى جانب ألمانيا فى الحرب ضد الحلفاء

---

(١) تقرير عن المالية والإدارة والحالة العمومية فى مصر والسودان سنة ١٩٠٣ م رفعه الأيرل كرومر قنصل جنرال دولة انكلترا ووكيلها السايسى فى مصر الى جناب المركيز لنسدون ناظر خارجيتها

وأعلنت الحماية البريطانية على مصر وفصلت عن تركيا أى إلغاء السيادة التركية على مصر وعزلت الخديوى عباس حلمى الذى كان موجودا فى تركيا والمعين بفرمان سلطانى منذ عام ١٨٩٢ ، وعينت مكانه عام ١٩١٤ م السلطان حسين كامل حتى عام ١٩١٧ م ثم السلطان أحمد فؤاد ، وكلا الأثنين كانا ألعوبة فى يد السلطات الأنجليزية صاحبة الفضل فى تعيينهما . . .

وعندما انتهت معارك الحرب العالمية الأولى وشبت ثورة ١٩١٩ م فى مصر بسبب تعنت سلطات الأحتلال الانجليزى فى رفض سفر مندوبين عن الشعب المصرى للمطالبة بالغاء الحماية الأنجليزية وخروج قوات الاحتلال واستقلال مصر والسودان كدولة واحدة ، لجأت انجلترا الى المراوغة حتى صدر ماعرف بتصريح ٢٨ فبراير ١٩٣٢ م الذى الغى الحماية واعترف باسقلال مصر دون السودان مع عدة تحفظات تنتقض من الأستقلال . . .

"فى العراق والخليج والجنوب العربى"

أولا : العـــراق :

مقدمـــة :

يمثل العراق بحكم موقعه على طريق الهند مركز اهتمام كبير ومتزايد لانجلترا منذ وطئت أقدام الانجليز الأرض الهندية واستغلال شعبها بصورة وصفها أهل البلاد من التجار أواخرالقرن ١٨ بقولهم إن مصانع السادة الانجليز كثيرة كما أن كثيرا من مخازنهم التجارية موجـودة فى كل مكان بكل قرية ، بل تكاد تكون موجودة بكل أرجاء البنغال ، وهم يتجرون فى جميع أنواع الحبوب والمنسوجات وكل نوع آخر السلع يوجد بالبلاد.(١)

ومن الطبيعى أن يطلق الانجليز من سيطرتهم على الهند التى استغرقت حوالى مائه عام ١٧٤٨ ـ ١٨٤٨ والتى أسسوها بحد السيف ولاينازعهم فيها منازع ، وأصبحت شركه الهند الشرقية الربطانية هى المسيطر حتى عام ١٨٥٨ م عندما اضطلعت الحكومة البريطانية بالأدارة المباشرة لبلاد الهند(٢) ولما كانت حكومة شركة الهند الشرقية البريطانية قد وزعت ممتلكاتها على الحكومات الرئيسية الثلاث التى أقامتها فى الهند وهى حكومات البنغال ومدارس وبومباى ، فقد كان من الطبيعى أن يدخل النشاط البريطانى فى الخليج العربى ضمن اختصاص حكومة بومباى.(٣)

وكان النشاط الأوربى بصفة عامة يسعى إلى فتح أسواق تجارية فى أقطار الخليج العربى خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر ، ولكن ما أن نشبت الحرب الطويلة بين بريطانيا وفرنسا سنة ١٧٩٣ بقيام الثورة الفرنسية حتى تسابق الفريقان المتحاربان إلى اكتساب نفوذ سياسى وعسكرى فى بعض هذه الأقطار، واتضح هذا الاتجاه بصفة خاصة عند غزو الفرنسيين لمصـر(٤)

يمكن القول أن نشاط دبلومسى بريطانى مع عرب الخليج ومسقط بالذات جاء حيث كان يتنافس على مركز الصدارة فيها الفرنسيون والانجليز ، أى حين صار الخطر الفرنسى واضحا على طريق وعلى الهند ذاتها فى الفتره النابليون ١٧٩٨ ـ ١٨١٠ م ، وتمثل فى سفن القرصنة الفرنسية التى كانت تعمل فى أعالى البحار فى طريق الهند

---

(١)ك . م . بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ص ١٠٤ .
(٢) نفس المرجع ص ١٠٧ .
(٣)د . محمد أنيس ود . رجب حراز : المرجع السابق ص ٩٨ .
(٤)د . صلاح العقاد : التيارات السياسية فى الخليج العربى ص ٦٠ .

ومحاولات فرنسا لكسب نفوذ سياسى ظهر فى كتابات نابليون من مصر - ١٧يناير ١٧٩٩ م - إلى كل من صاحب مسقط سلطان بن أحمد ، وإلى تبو صاحب فى الجنوب العربى .[١]

ومنذ أواخر القرن الثامن عشر كانت شركة الهند الشرقية البريطانية قد أنشأت خطوطا بريدية منتظمة عبر العراق ، وكان البريد ينقل بواسطة السفن البحرية من بومباى إلى البصرة ومن هناك يمر بمدن بغداد فحلب حتى إلى استانبول عن طريق البر على ظهور الدواب . ومن ثم اهتم الانجليز بأن يكون لهم النفوذ الأعلى فى العراق . واستطاعوا بالفعل منافسة النفوذ الفرنسى هناك ويرغمـوا الباشوات المماليك فى العراق على إعطاء الشركة امتيازات واسعة بل وعدم التدخل فى نشاطها فى العراق .

ومنذ عام ١٧٦١ انتقل المركز الرئيسى للتجارة الانجليزية فى الخليج إلى البصره حيث رفع المقيم الممثل لشركة الهند الشرقية إلى مرتبة قنصل . وقد أصبح مركز بريطانيا التجارى فى الخليج لايضارع وأخذت تجنى من ورائـه نفوذا سياسيا أيضا ازداد على مر الايام[٢] وهى فى هذا قد ورثت النفوذ البرتغالى والهولندى والفرنسى ، وقد وجد الانجليز فى العراق والخليج وبلاد العرب الجنوبية الخط الأمامى الذى يمكن بالمحافظة عليه أن يدرؤا به الخطر عن الهند كما يمكن أن يكون نقطة خطر عليها إذ كان النفوذ فيه لأمة أخرى تطمع أن تنتزع تلك الدرة - الهند - من التاج البريطانى[٣]

وكان مما ساعد على تقوية نفوذ شركة الهند الشرقية البريطانية فى العراق والخليج والهند أيضا أفول نجم الامبراطورية الهولندية وانحسار نفوذها فى جزر الهند الشرقية وكذلك انهيار النفوذ الفرنسى فى الهند بمعاهدة باريس عام ١٧٦٣ م وهى المعاهدة التى تخلت بمقتضاها فرنسا عن أغلب ممتلكاتها فى الهند[٤] حتى أن نائب الملك فى الهند يكتب بعد مائة عام - ١٨٦٢ م يقول : تدخل بغداد بصورة غير مباشرة ضمن قواعد الخليج ، ويجب أن تضم إلى منطقة النفوذ البريطانى المطلق[٥]

وكتبت جريدة الديلى ميل الانجليزية فى ٢٩ مارس عام ١٩١٥ م تقول : أن حوض ما بين النهرين يجب أن يكون ملكا لبريطانيا ومنفذا طبيعا للانتقال من الهـند .

---

(١) د . أحمد أبو حاكمة : تاريخ شرق الجزيرة العربية فى العصور الحديثة ص ١٨٠ .
(٢) جورج كيرك : المرجع السابق ص ١٠٦ .
(٣) د . عزت عبد الكريم وآخرون : المرجع السابق ص ٩٩ .
(٤) د . محمد أنيس ود . رجب حراز : المرجع السابق ص ٩٩ .
(٥) د . حسين فوزى النجار : الشرق العربى بين حربية ص ٥٤ .

وعندما ظهرت المشاريع الألمانيه فى العراق ذكرت صحيفة التايمز فى نفس الشهر ونفس العام تقول أن من الوجبات الأولى لأجل المحافظة على الهند ألا نرى فى الخليج قوة مسلحة ماعدا القوة البريطانية ، ويجب أن نعلم أن جميع الدلائل تهدينا إلى أن نوايا خط بغداد ليست اقتصادية وإنما هى سياسية صرفة(١)

وبهذا الفهم دخلت كل مناطق العراق لا البصره فقط فى نطاق الاهتمام الاستراتيجى لانجلترا ومن ثم حرصت على ان تؤكد فى اتفاق سايكس ـ بيكو مع فرنسا عام ١٩١٦ م على دخول العراق تحت الانتداب الا نجليزى بعد انتهاء معارك الحرب العالمية الأولى ـ لأن العراق بموقعة مركز هام فى شبكة المواصلات البرية والجوية بين الشرق والغرب ، ثم كان ظهور البترول وماله من اهمية استراتيجية كمادة أولى فى تيسير آلة الحرب الميكانيكية الحديثة ، وأهميتة اقتصادية فى استثمار رؤس الأموال الانجليزية ، والعراق خزان هائل لهذه المادة الهامة التى تعتبر وحدها عصب الحضارة فى القرن العشرين .

ثانيا : الخليج :

أخذ الانجليز منذ أواخر القرن الثامن عشر يمارسون أنواعا من التدخل فى شئون امارات الخليج ، وجعلوا من مكافحة عمليات الجهاد البحرى وسيلة لعقد معاهدات مع شيوخ المقاطعات هناك ، وأهم مايذكر فيها أنهم لا يتنازلون عن شبر من أرضهم لأية دولة كانت ولا يسمحون بأعطاء أى حق فى أراضيهم لأحد ماعدا بريطانيا(٢) ومن أمثلة تلك المعاهدات المعاهدتين اللتين وقعتهما انجلترا مع سلطان بن أحمد صاحب مسقط فى اكتوبر ١٧٩٨ ، ويناير ١٨٠٠ م التين نصتا على انشاء وكالة تجارية فى بندر عباس (وكانت تابعة لحاكم مسقط) ، وتخلى مسقط عن أى اتصال بالفرنسيين أو السماح لهم أو لسفنهم بالنزول فيها فى حالة نشوب الحرب بين فرنسا وانجلترا ، وسماح سلطان بن أحمد للأنجليز بأرسال وكيل سياسى لهم فى مسقط ، وعلى هذا يكون سلطان بن أحمد أول أمير عربى يدخل فى معاهدة مع الانجليز(٣) .

وقد اتخذ الأنجليز فى الخليج سياسة عنيفة لمقاومة عمليات الجهاد البحرى العربية هنال ضد السفن الأوربية ، ومن أمثلة ذلك ارسال حملة بحرية الى الخليج أجبرت القواسم فى رأس الخمية على توقيع معاهدة مجحفة بهم فى ٦ فبراير ١٨٠٦ م تضمن عدم مهاجمتهم السفن الانجليزية ، ومن أمثلة ذلك أيضا الحملة البريطانية التى هدفت الى

---

(١) د . عزت عبد الكريم وآخرون : المرجع السابق ص ٢٦٥

(٢) د . عزت عبد الكريم وآخرون : المرجع السابق ص ٢٦٦

(٣) د م . أحمد مصطفى أبو حاكمة : تاريخ شرقى الجزيرة العربية فى العصور الحديثة ص ٨١

تدمير رأس الخمية والقضاء كليا على نشاط القواسم فى مياه الخليج عام ١٨٠٩ م ، وحملة عام ١٨١٨ م على رأس الخيمة وكان هدفها القضاء على عمليات الجهاد البحرى أولا فى الظاهر ثم مراقبة التحركات المصرية فى الباطن ، وابرام معاهدة ١٨٢٠ م مع رأس الخيمة .

الانتـــــداب : -

خلال القرن التاسع عشر وقعت فيالعراق تطورات رئيسية أثرت على تطوره فى الفترة التالية ، وهذا بالأضافة الى أن التوزيع المذهبى بين سكان العراق كان ولايزال من العوامل الرئيسية التى تؤخذ فى الأعتبار عند تناول تاريخه المعاصر .

فهناك مقولة عامة أن العراق ينقسم الى سنة وشيعة ، والى عرب وأكراد . ولكن يجب أن يكون نصب أعيننا دائما أن السنة كانوا عربا وأكراد وأن الأغلبية من الأكراد سنة ، وأن الشيعة أكثربين العرب بالقياس الى السنة ، وأن التركيبات العشائرية هى الأقوى سواء بين العرب أو الأكراد . والى جانب ذلك توجد تجمعات مذهبية ودينية لها شأن ، مثل النساطرة المسيحيين ، واليزيدية ، الذين يطلق عليهم (عبدى شيطان) والصائبة وغير ذلك من الطوائف والنحل ، الا أنها طوائف لم تشارك بقوة فى تطور العراق وان كان لها مشكلات حادة قصيرة الأمد ، بينما كانت للعشائر الشيعة وللأكراد أدوار رئيسية فى تاريخ العراق المعاصر .

وعندما وقعت الحرب العالمية الأولى كان العراق لايزال تحت الحكم المباشر العثمانى ، ولبى كثيرة من العراقيين نداء الجهاد الذى أطلقه السلطان العثمانى عندما أعلن دخول الدولة العثمانية الحرب ، فكان المقاتلون العراقيون يدعمون الجيش العثمانى فى العراق ضد الغزو الانجليزى ولكى بدأت بوادر تحول لدى العراقيين عن الاتراك عندما فاض بهم بسبب سوء معاملة الجند التركى للشعب الأمر الذى عمق فى العراقيين - مخاوف من زيادة طغيان الأتراك على البلاد فى حالة انتصارهم . ولا يكاد يأتى عام ١٩١٧ حتى وقع العراق فى يد القوات البريطانية وفرضوا عليه فى أول الامر حكما مباشرا ووعدوا الأكراد بنوع من الحكم الذاتى ، ومنحوا شيوخ العشائر سلطات أكثر أتساعا .

كان الجنرال ويلسون - المسئول الانجليزى عن ادارة العراق - من ذلك الطراز الاستعمارى البريطانى الذى يسعى الى توسيع رقعة الامبراطورية البريطانية بضم مستعمرات جديدة ولذلك سار فى طريق أستعمارى يتناقض مع ما سبق ووعد به الانجليز العراقين من أنهم جاؤا ليحرروا العراق ، والواقع أنهم جاؤا ليحرروا العراق من الترك وليس لأعطاء العراقيين حقا ما من حقوق تقرير المصير .

وتحركت مشاعر العراقيين أكثر عندما فرض الانجليز عليهم الانتداب ، وعندما تواترات الأنباء عما فعله الفرنسيون بحكومة فيصل فى دمشق ، وتيقن العراقيون أن الانجليز جاؤا ليقوا ، ولذلك كانمن الطبيعى أن ينفجر الموقف عندما تندلع شرارة ، وهذا ما حدث فعلا فى أعقاب صدام بين الأنجليز وأحد الزعماء العشائر بين ، وانتشرت الثورة فى البلاد عام ١٩٢٠ وخاصة فى المناطق العشائرية الشيعية .
أما كبريات المدن فقد كانت قبضة الانجليز عليها قوية . وهكذا أنعكس الوضع الاجتماعى فى العراق على الثورة ، فقد كانت قوتها الضارية عشائرية عربية ، بينما لم تشارك المدن الا بقدر محدود بينما وقف الأكراد بعيدا عن المشاركة .
كانت الثورة عنيفة ولكن التفوق العسكرى الانجليزى كان ساحقا ، ولذلك أخمدت الثورة . وما كان أخمادها ليعنى أن الأمور ستعود الى أوضاعها السابقة فأن الثورة أقنعت الانجليز أنهم يقميون على أرض معادية وأنه لابد من الاستجابة لبعض المطالب الوطنية ولكن على أن تظل يد الانجليز هى العليا . ولذلك عملوا على اقامة حكومة ملكية برلمانية دستورية تعمل فى إطار صك الانتداب البريطانى على البلاد .

وفعلا تشكلت حكومه وطنية برئاسة عبد الرحمن النقيب وكلفت هذه الحكومة بأجراء استفتاء على اعلان فيصل بن الشريف حسين ملكا على البلاد ، فكان الأمر أقرب الى فرضة على البلاد، وفعلا تولى فيصل العرش ، واتبع سياسة التفاهم مع بريطانيا والحصول على مطالب الشعب الوطنية فى الاستقلال بالتدريج . وهذا ماكان يرضى السلطات البريطانية وكان الانجليز من جهة أخرى فى حاجة الى اضفاء نوع من الشرعية على ارتباط الوثيق بينهم وبين العراق وذلك عن طريق عقد معاهدة تجعل العراق يدور فى فلك المصالح الامبراطورية البريطانية .
قدمت بريطانيا نص المعاهدة التى تروق لها الحكومة العرافية لتوقيعة ، وعندما أبدى الزعماء العراقيين أمتعاضهم من نصوصها التى تسلب العراق أى مفهوم من مفاهيم الاستقلال هددهم الانجليز بأن بريطانيا فى حالة رفض الحكومة والسلطات العراقية للمعاهدة لن تسمح للعراقيين بوضع دستور للبلاد ، وكان هذا المطلب يعتبر واحدا من المطالب الوطنية الملحة حينداك . بل لقد بلغ الأمر بالسلطات الانجليزية أن وجهوا انذارا بضرورة توقيع المعاهدة فى غضون ساعات معدودات فرضخت الزعامات العراقية ووقعت المعاهدة وبعد ذلك سمح للعراقيين بأن يضعوا دستور للبلاد ، فخرج الدستور بشكل يعطى للملك حق حل البرلمان وهو حق كفيل بأفساد الحياة البرلمانية فى دول لم تمارس الديمقراطية من قبل مثل العراق .

معاهدة ١٩٣٠ :

واستمرت الحركة الوطنية من بعد ذلك تحاول تحقيق الاستقلال التام وواجهت فى ذلك صعوبات كبيرة وضعها الانجليز أو أفادوا منها . وكان من أولى تلك الصعوبات حاجة الحكومة العراقية الى دعم بريطانيا فى الحيلولة دون نجاح الجمهورية التركية فى تحقيق مطالبها الخاصة بضم اقليم الموصل اليها ، وكذلك الى دعم الانجليز للافادة من الاحتياطى البترولى الضخم الذى اكتشف فى شمال العراق ولهذا حقق الانجليز للعراق مطالبة الخاصة بأن اقليم الموصل جزء لايتجزاء من العراق وحصل الانجليز من وراء ذلك على استمرارية تفوقهم فى البلاد فضلا عن موافقة حكومة العراق على شروط شركة النفط البريطانية تلك الشروط التى تعطى للانجليز مكاسب هائلة من وراء استخراج البترول من شمال العراق .

واستمرت الحركة الوطنية فى تيارها حتى استطاعت أن تصل الى تفاهم مع الانجليز على عقد معاهدة ثنائية بين الطرفين تجعل العراق وكأنه دولة مستقلة تتعاهد مع دولة أخرى والحقيقة هى أن معاهدة ١٩٣٠ العراقية - الأنجليزية وضعت العراق تحت تصرف الانجليز وحصلوا كذلك على قواعد عسكرية فى العراق . وهذه المعاهدة - بصفة عامة - مشابهة للمعاهدة المصرية - الانجليزية التى عقدت فى ١٩٣٦ .

بعقد معاهدة ١٩٣٠ ظهر تيار معارض لها وعلى رأسه حزب الأخاء والحزب الوطنى ، وتيار آخر يؤيد المعاهدة ويعتبرها أنجازا وطنيا رائعا ، ونمت الحياة الحزبية فى العراق ولكنها أحزاب تتصارع فيما بينها أكثر من تنافسها على مستقبل العراق . ودفع هذا التنافس الحزبى الى أن يستخدم هذا الحزب أو ذاك القوة الضاربة العشائرية ضد الخصوم السياسيين . فشهدت فترة الثلاثينيات أزمات داخلية حادة حتى قام أحد كبار الضباط العراقيين بانقلاب عسكرى وهو بكر صدقى ذلك الانقلاب الذى بدأفى أول أمره بمعاداة بعض الزعامات العراقية التقليدية . الا أن حل البرلمان وتشكيل برلمان جديد عام ١٩٣٦ لم يغير فى حقيقته شيئا اذ كانت المقاعد البرلمانية من نصيب الزعماء التقليديين .

ثورة الكيلانى :

لم تعش تجربة الانقلاب طويلا اذ اغتيل بكر صدقى وعاد الزعيم السياسى التقليدى نورى السعيد الى الحكم ، وعاد المناخ السياسى السابق الذى تبلور فى التيار الرافض لمعاهدة ١٩٣٠ والتيار الشديد الاعتدال بميل واضح مع الانجليز ، وان كان هذا لايعنى انه كان يضم دعاة لتعديل المعاهدة فلما وقعت الحرب العالمية الثانية ارتفعت مستويات الخلاف بشكل حاد حول الموقف الذى يتخذه العراق ، هل ينتهز فرصة

الحرب ليحصل على الاستقلال التام سواء رضيت بريطانيا أم لم ترض ؟ أم ينضم الى بريطانيا ويحصل - بعد الانتصار النهائى على المحور - على الاستقلال . كان على رأس التيار الأول رشيد عالى الكيلانى وعلى رأس التيار الثانى نورى السعيد .

لقد كانت الأنتصارات المدوية التى حققها الألمان خلال العامين الأولين من الحرب قد أشاعت فى معظم شعوب البلاد العربية الواقعة تحت التسلط الانجليزى أن النصر حليف المحور وأنه جاء اليوم الذى تطرد فيه الشعوب العربية المستعمرين وأن المحور لن يتأخر عن تقدم المساعدة الجادة اذا ما تحرك الشعب ضد الانجليز . أو على الأقل فان بريطانيا التى أصبحت تقف وحدها تقريبا أمام التفوق الضخم الألمانى لن تتشدد - وهى فى محنة - بل ستقدم تنازلات ذات قيمة كبيرة للحركة الوطنية .

كان ذلك الاتجاه منتشرا ليس فقط فى العراق وانما أيضا فى مصر ، ولكن مثل هذه التقييم كانت تعوزه المعلومات الدقيقة عن مواقف بريطانيا والمحور من الحركة الوطنية العراقية بصفة خاصة ومن تطورات الحرب فى الشرق الأوسط بصفة عامة .

فقد رفضت الحكومة البريطانية مساعى (المعتدلين) سواء فى مصر أو فى العراق ، فقد عرض بعضهم على بريطانيا المشاركة فى الحرب الى جانبها فى مقابل حصول العراق على الاستقلال التام بعد الحرب وبالتالى كانت أية مطالب أكثر من ذلك مرفوضة فى الدوائر البريطانية لقد كانت الحكومة البريطانية ترى أن عدم دخول العراق ومصر الحرب يفيد بريطانيا أكثر من مشاركة أى منهما فيها . ومن ثم كانت عملية أغراء بريطانيا بالتنازل لصالح الحركة الوطنية فى مقابل اعلان الحرب على المحور غير ذات قيمة فى الدوائر البريطانية ، وهذا ماكان يغيب عن معظم ساسة العراق حينذاك . ونظرا لهذه الصلابة البريطانية فقد اتخذ رشيد عالى الكيلانى (رئيس الوزارة) - سياسة متشددة ازاء الوجود البريطانى فى العراق وأخذ يضيق عليه وبدأ فى الاتصال بالمحور . واذا بالآمال التى علقها الكيلانى على المحور تتبخر . والحق أن الزعامات العربية التى كانت تميل الى جانب المحور لم تكن تدرك أن الألمان يضعون العرب فى أسفل قائمة (المحتقرة) ، ومن ثم لم يكن الألمان بأحسن حال من الانجليز فى التعامل مع العراق بصفة خاصة ومع العرب بصفة عامة .

تطورت الأحداث بسرعة ، فقد رفض الكيلانى استخدام القوات الانجليزية للاراضى العراقية بأكثر مما تتيحه معاهدة ١٩٣٠ وذلك كخطوة أولى للضغط على بريطانيا فى محنتها ، ولكن الرد البريطانى كان صلبا ، ورفضت بريطانيا المساومة ، ولكن تحولت الأوضاع الى مواجهة سافرة عندما تحركت وحدات عسكرية عراقية فى حركة ثورية ضد بريطانيا وأنصارها فى العراق عندما قاد أربعة من الضباط العراقيين (المربع الذهبى) انقلابا فى أول أبريل ١٩٤١ وضع الجيش العراقى والحركة الوطنية فى اختيار قوة مع القوات البريطانية ، فى الوقت الذى فرفيه الوصى على عرش العراق ونورى السعيد من

البلاد التى أصبحت على مفترق الطرق .

والواقع لقد كان الحماس لدى الوطنيين أكبر بكثير جدا من الامكانيات ، كما كان التنافس لدى الزعماء التقليديين الميالين الى بريطانيا أكثر من اللازم ، ولذلك كانت الجبهة الداخلية مهزوزة ، وزادت اهتزازا عندما وجدت القوات العراقية نفسها مضطرة الى القتال فى جبهتين : جبهة البصره التى تزايدت فيها أعداد القوات البريطانية ، وجبهة جديدة فتحها الفيلق العربى (الأردنى) بقيادة الجنرال جلوب ، هذا كله فضلا عن التفوق الحاسم للطيران البريطانى الذى قصف المواقع العراقية مكبدا إياها خسائر فادحة دون أن يتكبد الجانب الانجليزى خسائر مناسبة .

خلال هذه المحنة كانت أعين الوطنيين العراقين معلقة بالنجدة الألمانية المتوقعة ، ولكنها لم تأت إلا وحركة المقاومة العراقية تلفظ أنفاسها الأخيرة ، وحتى تلك النجدة كانت محدودة للغاية لاقدرة لها على حسم الصراع فى العراق ، فكان أن سيطر الانجليز تماما على العراق وعاد نورى السعيد الى الحكم وأعلن الحرب على ألمانيا عام ١٩٤٣ ، ووضع العراق فى خدمة عجلة الحرب البريطانية وأصبح رجل الانجليز المفضل فى المشرق العربى . ولقيت مشروعاته الوحدوية - الملائمة للسياسة البريطانية - دعما بريطانيا قويا تمثل أولا فى تصرحين بريطانيين بأن حكومة لندن تؤيد قيام نوع من الاتحاد أو الوحدة بين بعض البلاد العربية ، فكان أن شرع نورى السعيد فى الاتصال بالزعماء العرب لتحقيق نوع ما من الوحدة ، ومثل هذه المبادرة كفلية - على الاقل من الناحية النظرية - بأن تجعل لنورى ولبلاده مكانة قيادتة الخاصة فى المشرق العربى .

ولكن عندما تقدمت هذه الاتصالات وضح بسرعة أن الدور القيادى لاقامة منظمة وحدوية عربية يجب أن يوضع فى يد مصر ولذلك قامت مصر فى عام ١٩٤٤ بمشاورات الوحدة التى أثمرت جامعة الدول العربية ، ولقد أصبح العراق عضوا فعالا فى هذه المنظمة ولكن - فى نفس الوقت - استمرت الزعامات التقليدية العراقية متعلقة بأقامة منظمة الهلال الخصيب (العراق - الاردن - سوريا - لبنان - فلسطين) يكون للعراق فيها اليد العليا .

كذلك علمت الزعامات التقليدية العراقية الى التوصل الى تفاهم مع بريطانية - عن طريق المفاوضات لعقد معاهدة جديدة - بدلا من معاهدة ١٩٣٠ المكروهة من الشعب - تحقق استقلالا كاملا للبلاد وكان ذلك مطلبا ملحا وطنيا فضلا عن أن الزعامات التقليدية أصبحت تواجه جبهة قوية من الشباب الذى كان لا يتوانى عن التضحية فى صداماته مع الحكومة مطالبا بالعمل الجاد نحو استقلال البلاد - حتى لقد نجحت المعارضة الوطنية العراقية فى ١٩٤٨ فى قتل مشروع المعاهدة الذى وضعه الزعيم

ثــورة ١٩٥٨ :

وتعتبر الفترة التالية بين ١٩٤٨ و١٩٥٨ فترة مليئة بالتطورات الحادة التى هزت النظام الملكى فى العراق ، فقد شوهت حرب فلسطين (٤٨ - ١٩٤٩) سمعة السياسين والعسكريين العراقيين .
لما نسب اليهم من سلبية ساهمت مساهمة كبيرة فى هزيمة العرب فى هذه الحرب ، ثم توالت الانقلابات فى سوريا وقامت حركة مصدق المعادية للاحتكار البترولية الايرانية(٥١ - ١٩٥٣) وثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ فى مصر .

وفى الداخل نمت الاحزاب والتيارات التى وصفت نفسها بالتقدمية ونمت كذلك الاحزاب اليسارية العلنى منها والسرى ، وأصبح العراق منقسما الى تيارات رئيسية بعضها يعمل على الحفاظ على النظام الملكى البرلمانى (أى استمرار التقليديين فى الحكم) والتعاون مع الكتلة الغربية ضد الشيوعية الدولية ، وبعضها يرى أن الخطر الحقيقى على مستقبل البلاد يكمن فى أن هؤلاء الزعماء التقليديين لن يسمحوا بتطورات جذرية لصالح مجموع الشعب ، ويكمن فى أن الخطر الحقيقى على مصالح البلاد صادر عن الكتلة الغربية الراسمالية الاستعمارية ليس من الكتلة الشيوعية . .
ولقد سار نورى السعيد بقوة اكثر عن ذى قبل فى التعاون مع الكتلة الغربية وأعلن مشروعه السياسى الكبير المعروف باسم(حلف بغداد) الذى كان يضم باكستان وايران وتركيا وبريطانيا بدعم من الولايات المتحدة الامريكية .
وبينما كانت حكومة العراق الملكية التقليدية تمعن فى التحالف مع الغرب ، كانت جمهورية مصر الثورية تمعن فى الضغط على الغرب وتحول الامر الى تنافس مصرى عراقى شديد ، وانقض نورى على خصومه فى العراق فتحولت المعارضة هناك الى العمل السرى والى الاتصال بالضباط لاحداث ثورة عسكرية على نحو ماحدث فى مصر ، ونشطت المعارضة فى أعقاب العدوان الثلاثى على مصر(١٩٥٦) ، وحاول نورى السعيد أن يوازن التيار الوحدوى المصرى السورى الذى أثمر الجمهورية العربية المتحدة - بالاتحاد الهاشمى العراقى الاردنى (فبراير ١٩٥٨) ، ولكن لم يجد ذلك فى امتصاص القوى الثورية التى تشكلت فى الجيش العراقى حتى قام عبد الكريم قاسم بثورة تموز يوليو ١٩٥٨ التى قضت على النظام الملكى العراقى وكان طبيعيا أن يرحب

العراقى صالح جبر مع الحكومة الانجليزية(اتفاقية بورتسموث أو اتفاقية جبر بيفن) لأن موادها لاتحقق الأهداف الوطنية العراقية

دعمت بعض الأحزاب الثورة العراقية وعلى رأسها (الحزب الوطنى الديمقراطى وحزب الأستقلال وحزب البعث) وكذلك دعمها الشيوعيون والحركة الوطنية الكردية . ولكن عبد الكريم قاسم كان دكتاتورى الفكر والسلوك ذا أتجاه يسارى فنفذ اصلاحا زراعيا وتقرب من الاتحاد السوفيتى واستقدم من هناك الزعيم الكردى مصطفى البرزانى الذى سيلعب دورا خطيرا فى تاريخ الحركة الكردية بعد قليل من عودته .

حكم عبد الكريم قاسم حوالى خمس سنوات أتسمت بسياسات متقلبه فقد إصطدم بالجمهورية العربية المتحدة وتصارع أنصار الوحدة مع مصر أنصار عبد الكريم قاسم ، وبعد أن منح الاكراد امتيازات كثيرة تمردوا عليه وطالب بضم الكويت فتحركت ضده البلاد العربية ودافعت عن الكويت ضد تطلعاته وتنازع مع ايران حول الحدود بين الدولتين ، وفى الداخل استغل ما بين الأحزاب العراقية من خلافات فأخذ يضرب هذا بذاك . ولكن ضربته لحركة معارضة له فى الموصل بقيادة الشواف ، كانت دموية وفيها الكثير من البشاعة والتمثيل .

ونظرا لأن أى نقد لعبد الكريم وسياسته كان كفيلا بغياب صاحبه عن وجه الدنيا فقد اتجهت المعارضة الى تحريك الجيش ضده ، وكان الرجل الذى تولى قيادة الأنقلاب التالى فى العراق هو عبد السلام عارف الذى شارك عبد الكريم فى قيادة الثورة ولكن لم يلبث أن حاكمه وخفف الحكم عليه من الأعدام الى الأبعاد .

كان الأنقلاب الذى دبره عبد السلام عارف فى فبراير ١٩٦٣ انقلابا دمويا ، وأعدم عبد الكريم قاسم عقب استسلامه وتولى مقاليد الأمور عبد السلام عارف المعروف بميولة القوية نحو مصر القومية العربية وفعلا كان عبد السلام عارف متحمسا لمفاوضات الوحدة الثلاثية فى ١٩٦٣ بين مصر والعراق وسوريا ولكنها فشلت .

البعثيون :

وخلال الحركة الانقلابية بقيادة عبد السلام عارف وقع صراع دموى بين الشيوعين والبعثيين (حزب البعث) ولم يلبث حزب البعث أن أنقسم على نفسه الى جناحين عسكرى وآخر مدنى ، بينما كان الشمال يعانى من ثورة كردية جامحة بقيادة مصطفى البرزانى .

النظام الثورى العراقى خاصة أنه لم يلبث أن أعلن خروج العراقى من حلف بغداد الذى أصبح يعرف من بعد ذلك باسم الحلف المركزى .

حاول عبد السلام عارف ـ الذى كان يميل بقوة نحو مصر ونحو الفكرة الوحدوية (القومية العربية) أن ينظم وحدة ثلاثية تضم العراق ومصر وسوريا وعقدت فعلا مفاوضات الوحدة الثلاثية فى ١٩٦٣ ولكن تخاوف عبد الناصر من تكرار ماحدث مع سوريا من انفصال جعله يأخذ العروض المقدمة بحذر شديد فلم تتحقق الوحدة .

وعلى أى حال كانت مدة حكم عبد السلام عارف قصيرة إذ سقطت به طائرة هليكوبتر عسكرية وقضى نحبه فى ظروف تحيطها الأشاعات الكثيرة .

تولى الرئاسة من بعده أخواه اللواء عبد الرحمن عارف ، وكان رجلا نزيها ضعيف الشخصية ميزته الوحيدة أنه كان مقبولا مؤقتا من الكتلات السياسية والعسكرية الحاكمه حينذاك . ومن ثم كان سقوطه على يد انقلاب بعثى فى ١٤ يوليو ١٩٦٨ سهلا ، وتولى البعثيون الحكم منذ ذلك الوقت .

برز خلال حكم البعث أحمد حسن البكر وصدام حسين ، وكان الأخير هو المهيمن على البلاد وكان قوى الشكيمة صفى جسديا خصومه ، ثم أبعد أحمد حسن البكر عن الحكم وانفراد صدام بتوجيه الأمور معتمدا على الجيش وعلى تنظيم بعثى مسيطر على أجهزة الدولة .

كانت السمة العامة لسياسة البعث الاتجاه نحو اليسار ، فنفذ التأميم وعقد معاهدة صداقة مع السوفيت فى مارس ١٩٧٢ ، ونشط العراق فى الدفاع عن عروبة الخليج العربى ضد الأطماع الأيرانية خاصة بعد استيلاء ايران على ثلاث جزر عربية فى الخليج فى ١٩٧١ . فكان طبيعيا أن يتصاعد دعم إيران للثورة الكردية فى الشمال تلك الثورة التى أرهقت العراق إرهاقا شديدا لسنوات طويلة ولذلك اتجه صدام حسين الى تسوية مشكلات العراق مع ايران وفعلا عقد اتفاقية الجزائر مع إيران فى ١٩٧٥ وقضت هذه الاتفاقية بأن تمتد السيطرة الأيرانية على شط العرب إلى المجرى الملاحى فيه ، وكان ذلك مطلبا قديما إيرانيا رفضته كافة الحكومات العراقية السابقة ، وفى مقابل ذلك رفعت إيران يدها عن دعم الثورة الكردية فإذا بها تنهار فى أيام قليلة ، إلا أن ذلك التفاهم الأيرانى العراقى لم يستمر طويلا حيث أن صدام كان ينتظر الفرصة التى تمكنه من عودة السيطرة العراقية المباشرة على شط العرب ، منفذ العراق الوحيد من جهة الجنوب . ولذلك عندما نجحت ثورة الخمينى فى طرد الشاه وتولى الحكم فى ظروف مضطربة، وجيش يتحلل اتجه صدام الى استرداد السيطرة العراقية على شط العرب وعلى عربستان ـ التى يعتبرها العراقيون جزءا سلبه منهم الأيرانيون ـ فكان أن وقعت الحرب العراقية ـ الأيرانية التى دخلت فى عامها الرابع .

خلال هذه الحرب كانت هناك تخاوف من أن يستطيع الخمينى أن يكسب الى جانبه شيعة العراق ، ولكن ثبت خلال سنوات الحرب الأربع أن الوطنية العراقية تفوقت على المذهبية الشيعية . كذلك حدث شىء مشابه فى الجانب الأيرانى إذ كانت

هناك مخاوف إيرانية من انضمام عرب عربستان (خوزستان) إلى القوات العراقية التى دخلت الأقليم فى الاسابيع الأولى من الحرب ، ولكن ظل عرب خوزستان موالين لحكومتهم الأيرانية .

أظهرت هذه الحرب بوضوح عمق الخلافات العربية ، فلم تقف البلاد العربية وقفه إيجابية على مستوى المشكلة ، وانما كانت المساعدات العربية للعراق قاصره على دعم مالى من الدول العربية البترولية وتسهيلات فى وصول المواد الغذائية والمعدات الحربية الى العراق ، ـ والدولة الوحيدة التى أخذت جانب العراق بكل ماتستطيع هى الأردن من منطلق الدفاع عن العروبة .

والادهى من ذلك أن سوريا (البعثية) وقفت ضد العراق وأيدت إيران طوال سنوات الحرب حتى اذا مابدأ أن ميزان القوة قد ينتقل إلى جانب إيران اتجهت إلى العمل نحو التوصل الى تسوية سليمة للحرب إلا أن الجهود السورية لم تنجح حتى الآن .

أما البلاد العربية البترولية المطلة على الخليج فقد أخذت تشعر بوطأة الحرب بشدة عليها فى أعقاب قصف الناقلات عبر الخليج وتهديدات إيران باغلاق مضيق هرمز فى وجه الملاحة الدولية . حتى لقد أخذت بعض هذه الدول تعمل على اعادة تسليح نفسها بأحدث الأسلحة لمواجهة ماقد تتطور إليه الأحداث فى المنطقة .

هذا بينما كانت مصر ـ التى قاطعتها معظم الدول العربية منذ ١٩٧٩ هى الدولة العربية التى دعمت العراق دعما إيجابيا فور طلب العراق معاونته فى هذه الحرب التى لايعرف أحد حتى الآن متى تنتهى .

وغيرها من موانىء الخليج ، ثم أعقب ذلك توقيع أتفاقيات الهدنة البحرية وغيرها فى الثلاثينات من القرن التاسع عشر ، وكل ذلك دليل على خشية الانجليز من الخطر المصرى فى الجزيرة[١]

وطوال القرن التاسع عشر أخذ النفوذ البريطانى يتدعم فى الخليج فى ثلاثة صور هى : ـ

محاربة عمليات الجهاد البحرى التى كانت القواسم تمارسها من الساحل الداخلى لعمان ومحاربة تجارة الرقيق التى وجدت لها سوقا رائجة فى شبه الجزيرة العربية وفرض الحماية البريطانية على أهم المشيخات العربية فى الخليج وهى مسقط والبحرين والكويت . فبدأت مشروعات انجلترا الأستعمارية مع مسقط منذ عام ١٨٥٤ م بحصولها من سعيد بن سلطان شيخ مسقط على جزائر كوريا موريا ، ولم يأت عام ١٨٩٨ م حتى وقعت المعاهدة المشهورة التى حددت بشكل نهائى الحماية البريطانية على

(١) نفس المرجع ص ١٩٠

مسقط وعمان ، وتعرف بمعاهدة الصداقة والتجارة والملاحة ، وهى تنص صراحة على أن يلتزم حاكم مسقط ـ فيصل بن تركى ـ هو وخلفاوه بعدم التنازل عن أى أرض من أملاك مسقط إلا للحكومة البريطانية.[1]

وكانت المشيخة الثانية التى خضعت للحماية هى البحرين التى شاركت منذ عام ١٨٢٠ م مع انجلترا فى عقد معاهدات لمحاربة تجارة الرقيق وأعمال الجهاد البحرى ، وأمام رغبة تركيا فى ضم البحرين عام ١٨٧١ م بعد استيلائها على الأحساء أعلن الأنجليز فرض الحماية على البحرين وتم توقيع معاهدتين مع الشيخ عيسى فى عامى ١٨٨٠ م ، ١٨٩٢ م تضع البحرين بمقتضاها تحت الحماية الأنجليزية حيث تعهد الشيخ بالامتناع عن عقد معاهدات مع أية دولة أخرى إلا بموافقة الحكومة البريطانية ، وألا يتنازل عن أية أرض فى البحرين إلا للحكومة البريطانية .

وكانت المشيخة الثالثة التى فرضت أنجلترا عليها حمايتها هى الكويت ، التى وصل إليها آل صباح لأول مرة عام ١٧٥٠ قادمين من الجنوب بعد أن أمضوا على شاطىء الخليج بقطر والأحساء نحو نصف قرن[2] ولقد كان لآل صباح علاقة طيبة مع الأنجليز من ممثلى شركة الهند الشرقية الأنجليزية الذين أستفادوا من الكويت منذ عام ١٧٧٥ م فى إرسال واستلام مراسلات الشركة ، واستمرت العلاقات طيبة حتى نقلت وكالة الشركة من البصره إلى الكويت ، وساعدت الشركة آل صباح فى صد غارات الوهابيين على الكويت وأظهر شيخ الكويت استعداده للمشاركة مع الأنجليزية فى حملاتهم ضد القواسم .

واتساقا مع هذه العلاقات عرض الشيخ مبارك آل صباح منذ أن وصل إلى السلطة فى الكويت عام ١٨٩٦ أن يدخل فى حماية انجلترا ورغم تردد انجلترا فى قبول هذا العرض حرصا على علاقتها مع تركيا ، إلا أنها سارعت عام ١٨٩٩ م إلى عقد معاهدة مع أمير الكويت على نفس نسق المعاهدات مع كل من مسقط والبحرين ، تضع الكويت تحت حماية انجلترا ، وجاءت هذه المسارعة الانجليزية بسبب ظهور نشاط روسى فى الخليج عام ١٨٩٨ م لمد خط حديدى من البحر المتوسط إلى الخليج وبناء محطة للفحم وميناء فى الكويت .

كان لظهور النشاط الألمانى فى العراق وتوقع أمتداده إلى الخليج ، والمتمثل فى الأمتياز الذى حصلت عليه ألمانيا من الدولة العثمانية بمد خط حديدى من برلين إلى بغداد فالبصرة كان لذلك أثره فى تدعيم الوجود الأنجليزى فى الخليج والعراق ، فعقدت

(١) د . أنيس ، د . حراز : المرجع السابق ص ١٠٩
(٢) د . أحمد أبوحاكمة ، المرجع السابق ص ٦٧

انجلترا مع الكويت عدة اتفاقيات أحكمت النفوذ الانجليزى هناك نظير أعتراف انجلترا بأمارة الكويت بحدودها الحالية واعترافها. كذلك بآل صباح حكاما يتوارثون السلطة هناك . وظل الحال كذلك أثناء الحرب العالمية الأولى وما بعدها .

وكان نشاط انجلترا فى الجنوب العربى قد بدأ منذ عام ١٦١٨ م بتأسيس مركزى تجارى فى "مخا" وفى عام ١٧٧٠ م هاجم الانجليز عدن أنتقاما لأهانة لحقت بقائد سفينة تجارية انجليزية ، وفى عام ١٧٩٩ م أحتل الانجليز جزيرة بريم ، وفى عام ١٨٠٢ م عقدت انجلترا مع سلطان عدن - أحمد بن عبد الكريم - معاهدة صداقة وتجارة ، وكانت هذه المعاهدة القنطرة الأولى للسيطرة على هذه المدينة التى تمت عام ١٨٣٩ م بعد مقاومة عنيفة من أهلها وقصف بحرى شديد من قبل البريطانيين[١] وجاء أحتلال عدن كخطوة مضادة للنفوذ المصرى فى اليمن على أيام محمد على[٢]

ومن عدن أنطلق الأنجليز للسيطرة على بقية أجزاء الجنوب العربى باللين تارة وبالشدة تارة أخرى وأخذوا يعقدون المعاهدات التى تضع هذه الأجزاء تحت الحماية البريطانية . ولم يأت عام ١٨٩٥ حتى فرضت الحماية البريطانية على ميناىء المكلا وشحر ، ولحج وحضرموت والضالع ، والعوالق السفلى والحواشب وغيرها ، وأستولت انجلترا على جزيرة سوقطرى عند مدخل البحر الأحمر الجنوبى ، وهكذا أصبح الجنوب العربى ملتحما مع مسقط وعمان ممتدا من مشيخات الخليج خاضعة كلها للسيطرة الأنجليزية لا الى نهاية الحرب العالمية الأولى فقط بل الى أن حصلت على استقلالها مؤخرا .

عاشت أقطار الخليج العربى فى ظل معاهدات الحماية البريطانية حتى حصلت الكويت على استقلالها عام ١٩٦١ م بأنهاء المعاهدة البريطانية الكويتية ، وإما اقطار الخليج العربى الأخرى ، فقد حصلت على استقلالها فى عام ١٩٧١ م بعد أن صرحت بريطانيا عام ١٩٦٨ بأنها ستنسحب من شرقى السويس فى موعد لايتجاوز عام ١٩٧١ م ، .ومن ثم فقد اعترفت بريطانيا باستقلال سلطنة عمان بعد أن ساعدت فى حدوث انقلاب أسرى تولى بمقتضاه السلطان قابوس الحكم خلفا لوالده السلطان سعيد بن تيمور .

وأما أقطار الخليج الأخرى ، فقد عاشت من عام ١٩٦٨ فى محاولات من أجل تحقيق وحده أواتحاد بين امارات الساحل العمانى السبع وكل من قطر والبحرين ، ولكن نظرا للخلافات حول العاصمة وتوزيع السلطات أعلنت كل من البحرين وقطر

---

(١) د . أحمد عزت عبد الكريم وآخرون : المرجع السابق ص ٢٦٣

(٢) د . أنيس ، د .حراز : المرجع السابق ص ١١٢

استقلال كل منها فى سبتمبر ١٩٧١ م .
أما امارات الساحل العمانى السبع : أبوظبى ، دبى ، الشارقة ، رأس الخيمة ، أم القوين ، عجمان ، الفجيرة ، فقد نجحت فى تحقيق اتحاد فيما بينها عرف بأسم دولة الامارات العربية المتحدة عام ١٩٧١ م أيضا عاصمتها مدينة أبو ظبى برئاسة الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان حاكم أبو ظبى .

"فلسطين وشــرقى الاردن"

خضعت فلسطين لمؤامرة أجنبية تستهدف اقامة وطن قومى لليهود فيها بموجب وعد بلفور عام ١٩١٧ م حتى اذا جاءت قرارات مؤتمر سان ريمو عام ١٩٢٠ م بانتداب انجلترا على فلسطين بدأت اجراءات الحكم البريطانى هناك من أجل تحقيق هذا الوعد حتى ظهرت الى الوجود دولة اسرائيل عام ١٩٤٨ م فى نفس الوقت الذى انتهى فيه البريطانى ، مما يؤكد التآمر الاجنبى كما سنرى فيما بعد .

أما شرقى الاردن فلم تكن قبل عام ١٩٢٠ سوى تعبير جغرافى يطلق على البلاد الواقعة الى الشرق من نهر الاردن ، وكانت تابعة فى ادارتها للحكومة العثمانية بصفة تكاد تكون اسمية ثم انتقلت إدارتها ابتداء من سنة ١٩١٨ إلى يد حكومة فيصل العربية بدمشق وكان الحلفاء قد رأوا أن يستولوا على تلك البلاد لقطع الطريق على جيش تركيا إذ كان يريد الهجوم على مصر فدخل الكولونيل لورنس العقبة عام ١٩١٧ م ، وفى العام التالى نقل الأمير فيصل ـ وكان يقود جيشا يمثل الثورة العربية ـ إلى العقبة وتمكن مع أعوانة بإحتلال قسم كبير من الاردن ، وذلك بعد معارك عديدة منها تخريب الخط الحجازى ، وزحف الانجليز للفتك بالجيش التركى حتى احتلوا الأردن فى ديسمبر ١٩١٩ م [١]

وفى مؤتمر سان ريمو المنعقد فى ابريل عام ١٩٢٠ م جعلت منطقة شرقى الأردن من نصيب بريطانيا كجزء من دائرة الوصاية على فلسطين مع الاحتفاظ بشرط أساسى هو انه فى الأراضى الواقعة بين نهر الأردن والحدود الشرقية لفسلطين حسب تحديدها النهائى ، يكون للدولة المنتدبة ـ انجلترا ـ الحق بموافقة مجلس عصبة الامم فى تأجيل أو وقف تنفيذ شروط الانتداب التى ترى سريانها غير ملائم للظروف المحلية بهذه الجهات ، وأن تعد تدابير الحكم التى تراها ملائمة لهذه الظروف [٢]

وعندما وصل الأمير عبد الله بن الحسين إلى معان يوم ٢١ نوفمبر ١٩٢٠ م قادما من مكه ، وفى نيتة التقدم نحو عمان ، ومن عمان بعث لأهل سوريا بمنشور هاجم فيه الغزو الفرنسى ويعضد السوريين فى كفاحهم ضد الفرنسيين . وعندما وصل إلى عمان رحبت به المجالس المحلية التى أقامها الأنجليز والتى سيطر عليها الموظفون الانجليز ، وقد عبر المندوب الانجليزى لرؤساء القبائل وشيوخ الشعب الأردنى حين زار مدينة السلط بقولة : تسألون عن نوع المساعدة التى تريد انجلترا أن تقدمها لكم فأجيبكم

(١) د. عزت عبد الكريم وآخرون : المرجع السابق ص ٤٥٨ ـ ٤٥٩ .
(٢) جورج كيرك : المرجع السابق ص ٢٤٧ .

بأنها لاتريد أن تضمكم إلى الأدارة الموجودة الآن بفلسطين بل تنشىء لكم إدارة منفردة تساعدكم على أن تحكموا أنفسكم بأنفسكم (١)

وتحقيقا لنصوص الانتداب الذى صدر فى مؤتمر سان ريمو فقد اتفق الأمير عبد الله مع

تشرشل وزير الخارجية عندما اجتمعا فى القدس على الأسس التى تقوم عليها إدارة شرق الأردن ، وهى إقامة حكومة عربية وطنية هناك برئاسة الأمير عبد الله تكون هذه الحكومة مستقلة استقلالا إداريا مع الاسترشاد برأى مندوب سامى بريطانى يقيم فى عمان ، وأن يتعهد الأمير بالمحافظة على حدود سوريا وفلسطين من كل اعتداء على أن تتوسط بريطانيا لتحسين العلاقات بين الأمير وبين سلطات الاحتلال الفرنسى فى سوريا ، وأن تنشىء بريطانيا قاعدتين للطيران فى عمان والكرك .

ورغم اشتمال قرار الانتداب على شرق الأردن إلى جانب فلسطين ، فقد استثنت بريطانيا شرق الأردن من التزامات الوطن القومى لليهود فى فلسطين بحصولها على هذا الاستثناء من عصبة الأمم فى سبتمبر ١٩٢٢ م ثم اعتزمت انجلترا فى العام التالى - ١٩٢٣ م بقيام حكومة مستقلة فى شرقى الأردن يرأسها الأمير عبد الله تحت الانتداب الانجليزى . لقد أقامت انجلترا إمارة شرق الأردن تحقيقا لمآرب سياسية واستراتيجية تخصها من أهمها تأمين القطاع العربى فى الطريق البرى إلى الهند ، فيما بين الخليج والبحر المتوسط خاصة بعد أن أثبتت وسائل المواصلات السريعة أهمية الوطن العربى بالنسبة لاتصالات انجلترا بالهند ، وأيضا إنشاء قاعدة لنفوذها السياسى والاستراتيجى فى هذه المنطقة تشرف منها على بقية أجزاء الوطن العربى خاصة المشرقية وخاصة بعد ظهور البترول وازدياد المصالح البريطانية فى أقطار الوطن العربى .

واهتمت الحكومة البريطانية بتحديد كيان مستقل لأمارة شرق الأردن فحثت الأمير عبد الله على يطلب من أبيه الملك حسين فى الحجاز ضم عمان والعقبة إلى إمارته وكانتا تابعتين للحجاز ، كما استطاعت نفس الحكومة أن تقنع الملك عبد العزيز آل سعود بعد استيلائه على الحجاز بقبول الوضع القائم بهما ، وأقنعته بالتنازل عن ممر أرضى من شمالى نجد يضم إلى إمارة شرق الأردن يصل بينها وبين العراق ويفصل بين نجد وسوريا وحققت بريطانيا بذلك الوحدة الاستراتجية التى تنشرها فى منطقة انتدابها فى البلاد العربية ، وأصبح إشرافها على الطريق البرى بين الخليج والبحر المتوسط تاما كاملا (٢)

---

(١) د . عزت عبد الكريم وآخرون : المرجع السابق ص ٤٦٢

(٢) د . حسين النجار : المرجع السابق ص٦٥

الفصل التاسع

الأستعمـــار الفرنـــسى

- في سوريا ولبنان.
- في الجزائر.
- في تونس.
- في المغرب.

"في سوريا ولبنان" .

مقدمة :

يعتقد البعض أن فرنسا كانت أسبق من انجلترا فى عملية الغزو الاستعمارى وهذا الاعتقاد له وجاهته ، لأن فرنسا شاركت بدور كبير ان لم يكن أكبر دور فى الحروب الصليبية ، وما حملة لويس التاسع ملك فرنسا على مصر وأسرة فى دار ابن لقمان فى المنصورة الا دليل آخر على هذا الغزو الاستعمارى الفرنسى الذى سبق انجلترا فى مصر وبقية أقطار الوطن العربى ، بل وما الحملة الفرنسية على مصر والشام الا دليل ثالث على صحة هذا الرأى .

وبمعنى آخر لم يكن فرض الانتداب الفرنسى على كل من سوريا ولبنان بمقتضى قرارات مؤتمر "سان ريمو" فى أبريل ١٩٢٠ م الاجراء الاستعمارى الفرنسى الأول فى سوريا ولبنان ، بل هناك نشاطات استعمارية فرنسية فى بلاد الشام سبقت ذلك ومهدت له ، فقد حددت معاهدة التحالف الفرنسى العثمانى فى عام ١٥٣٥ م الامتيازات الفرنسية فى الشرق العربى بصفة خاصة ولذلك كانت تجارة الحوض الشرقى للبحر المتوسط فى صالح فرنسا بصفة عامة حتى أواخر القرن الثامن عشر ، وكانت فرنسا الدولة الأوربية الأولى لدى البلاط العثمانى ، ولها حق حماية الرعايا الكاثوليك داخل الامبراطورية العثمانية . (١)

واستنادا الى الامتيازات التى حصلت عليها فرنسا فى الامبراطورية العثمانية عمدت الحكومة الفرنسية الى التدخل فى أقطار الشرق العربى لصالح قوافل الكاثوليك الى بيت المقدس ، ثم تبنى لويس الرابع عشر فى عام ١٦٤٦ م قضية الجالية المارونية فى لبنان فى أعقاب زيارة الأساقفة المارونيين لفرنسا ، قد وافق هذا الاتجاه ازدياد عدد الكاثوليك فى بلاد الشام بسبب امتداد نشاط الجزويت والفرنسيس كان وغيرهما من المؤسسات الكاثوليكية الى الشرق (٢) وبسبب انشاء مدارس فرنسية لتعليم الموازنة ، وبسبب احتكار الفرنسيين لتجارة الصادر والوارد فى جنوب سورية ، حتى صار التفوق ـ فى النفوذ السياسى والتجارى ـ للفرنسيين وتغلبوا على منافسة التجار من الشعوب الأخرى (٣)

---

(١) د . أنيس ، د . حراز : المرجع السابق ص ٩٥ .
(٢) نفس المرجع ص ١١٥ .
(٣) د . عزت عبد الكريم وآخرون : المرجع السابق ص ٢١٣ .

ونتيجة لذلك وجدنا الموارنة بصفة خاصة يميلون إلى فرنسا ، ويرحبون بالبعثات التبشيرية الفرنسية ، بل ويتخذون من رجال هذه البعثات مستشارين لمشايخهم ، واستغلت فرنسا هذا الوضع للتقرب إلى اصحاء العصبيات فى لبنان وخاصة المشايخ الوارنة ، كما استغلت بعض الأسر المارونية لتحقيق منافع خاصة ، كما كانت البعثات التبشيرية الفرنسية من أهم الدعائم التى بنت عليها نفوذها الأدبى فى لبنان فى تلك الأيام[1] وبلغ من الصلة الوثيقة بين الموارنة والفرنسيين أن تعين شيخ مارونى نائبا لقنصل فرنسا فى بيروت عام ١٦٥٥ م ثم قنصلا لها عام ١٦٦٢ م .

وعندما بدأت الأحداث الدامية بين الموازنة والدروز اعتبارا من عام ١٨٥٧ م بذلت الدولة العثمانية كل ما فى وسعها لأضعاف قوة الموازنة الذين كانوا يحظون بحماية فرنسا ، فشجع الاتراك الدروز على مهاجمة الموارنة وبدأت سلسة الاضطرابات التى انتهت بمذابح سنة ١٨٦٠[2] بين الطرفين وامتدت لتشمل المسلمين والمسحيين فى كل من سوريا ولبنان ، وزادت وطأة الفتنة بينهما بما قام به عملاء الفرنسيين والبريطانيين من أعمال الدين فى اتجاهين مختلفين[3] ، حتى حدثت المذابح بين الطرفين التى راح ضحيتها الالآف من كلا الجانبين والتى تدخل فيها بعض الزعماء العرب لأيقافها وتهدئة الأمور بين المتقاتلين ، وكان على رأس هؤلاء الزعماء العرب الأمير عبد القادر الجزائرى المقيم بدمشق منذ فشل المقاومة الجزائرية للغزو الفرنسى .

ولقد كان للقنصل الفرنسى يد كبرى فى إثارة هذه المذابح التى قوبلت فى فرنسا بترحاب لما تتيحة لها من الفرص لمغامرة حربية فى لبنان[4] . إذ شعر الأمبراطور الفرنسى نابليون الثالث بأن اللحظة المناسبة لتثبيت الأقدام الفرنسية فى سوريا قد أتت أخيرا ، فأعلن فى يوليو عام ١٨٦٠ م عن عزمة إرسال قوات إلى سوريا لحماية الكاثوليك ، ورغم أن السلطان العثمانى أوفد أحد رجاله لأقرار الأمور فى سوريا ، وقد استطاع بالفعل بعد أن أعدم رميا بالرصاص وشنقا وسجن وأبعد مئات من المسلمين إرضاء لفرنسا ، فان فرنسا لم تقبل أن تفلت من يدها هذه الفرصة ، ومن ثم عقد مؤتمر دولى فى باريس ضم كلا من انجلترا وفرنسا والنمسا وبروسيا والروسيا وتركيا درس الموقف فى سوريا وموقف فرنسا وأصدر قراراته فى ستمبر ١٨٦٠ م بالسماح لقوات فرنسية لاتتجاوز ١٢ ألف جندى بالنزول فى بيروت وإلا تزيد مدة بقائها عن ستة شهور .

---

(١) نفس المرجع ص ٢٤٩ .

(٢) د . أنيس ، د . حراز : المرجع السابق ص ١١٦ .

(٣) كانت بريطانيا تؤيد الدروز فى مواجهة تأييد فرنسا للموازنة

(٤) جورج كيرك : المرجع السابق ص ١٢٨ .

وقد نزلت القوات الفرنسية بالفعل فى بيروت فى آخر أغسطس ١٨٦٠ م فى الوقت الذى أوفد المؤتمر لجنة لتقصى الحقائق عن أسباب الأحداث الدامية ، وتبحث إمكانية تلافى هذه الأحداث بوضع نظام جديد للبنان . ورغم أن الهدوء والنظام قد عادا إلى سوريا فان فرنسا رغبت فى بقاء قواتها هناك إلى أجل غير مسمى بحجة ضمان عدم تكرار الاضطرابات ، إلا أن الحكومة البريطانية تمكنت بقرارات مؤتمر باريس القاضى بجلاء القوات الفرنسية خاصة وأن هذه القوات قد تجاوزت المدة المقررة لبقائها ، ومن ثم انسحبت هذه القوات فى يونيو ١٨٦١ دون أن تحقق أهدافها حتى قيل أن الحملة أخفقت فى تحقيق ماكانت الدولة الحامية تصبوا إلية ، من فرض سيطرتها ونفوذها على سوريا ولبنان .

عادت اللجنة الدولية من سوريا ولبنان فى مايو ١٨٦١ م ووضعت تقريرا عرض على السلطان العثمانى فى شكل اتفاقية وقع عليها وزير الخارجية التركية وسفراء الدول الأوربية الخمس فى يوليو ١٨٦١ تقضى بمنح الحكم الذاتى لسنجق لبنان على رأسه حاكم مسيحى غير لبنانى يتم تعيينه من قبل الدولة العثمانية بالتشاور مع الدول الأوربية الخمس . وفى عام ١٨٦٤ م استقر وضع لبنان كسنجق مستقل ذاتيا بمقتضى الاتفاقية السابقة التى صارت دستورا دائما

لبنان حتى عام ١٩١٤ م وتم تنظيم لبنان بحيث يساعد الحاكم ١٢ شخصا منهم ٤ من الموارنة ، ٣ من الدروز ، و ٣ من الروم الأرثوذكس والروم الكاثوليك ، وسنى واحد ، وشيعى واحد وصارت أقسام لبنان الأدرية سبعة مديريات يترأس كل مديرية منها مدير وأربعة موازنة وواحد درزى ، وواحد من الروم الارثوذكس ، ومدير من الروم الكاثوليك ، ويخضع لهؤلاء المديرين شيوخ النواحى والقرى والقضاة والكتبة الذين حدد الدستور نسبة توزيع مناصبهم بين الطوائف الدينية المختلفة .

وقد أسفرت هذه الاتفاقية عن استقرار الأمن والنظام فى سوريا ولبنان حتى نشوب الحرب العالمية الاولى ، وفى تلك الفترة باشرت البعثات العلمية الفرنسية أعمالها العلمية ، حتى لقد قيل أنه فى سنة ١٩١٤ م كان أكثر من نصف تلاميذ المدارس فى سوريا وفلسطين يتعلمون بمعاهد فرنسية . وحصلت فرنسا على إعتراف الدول الاوربية المجتمعة فى مؤتمر عقد ببرلين عام ١٨٧٨ م على الاحتفاظ بالحقوق التى تمتلكها فرنسا - فى حماية الأماكن المقدسة فى فلسطين - وعلى أنه من المفهوم أنه لن يجرى أى تعديل فى وضعية الاماكن المقدسة .

( ) نفس المرجع ص ١٢٨

( ) جورج كيرك : المرجع السابق ص ١٢٩ .

( ) د . محمد مصطفى صفوت : مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨ م وأثره فى البلاد العربية ص ٤٨

ظهرت المطامع الفرنسية جلية فى سوريا ولبنان أثناء معارك الحرب العالمية الأولى فيما عرف باتفاق "سايكس - بيكو"[3] لعام ١٩١٦ م الذى نص على تقسيم ممتلكات الدولة العثمانية بحيث يكون نصيب فرنسا الجزء الأكبر من سوريا وجانب كبير من جنوب الأناضول ومنطقة الموصل فى العراق . وهذه المنطقة تشمل الشريط الساحلى لسوريا بما فى ذلك لبنان ثم ولاية أطنة ومرسين والاقاليم المعروفة إجمالا باسم كيليكيا وتدخل فى هذه المنطقة اسكندرونة . ولم يأت فى هذا الاتفاق مايدل على أن فرنسا كانت ممنوعة من ضم هذه المنطقة
إليها إذا أرادت ، كما لم يذكر الاتفاق أن من حق فرنسا ضمها إلى ممتلكاتها مباشرة هذا بالاضافة إلى المنطقة التى تشمل الموصل ثم مدن دمشق وحمص وحماه وحلب . .

ولقد أكد الفرنسيون منذ هذا الاتفاق أن هناك وصاية أو حماية على سوريا ولبنان ، فان جورج بيكو خطب فى جمع من السوريين واللبنانيين فى فندق شبرد بالقاهرة فى ٢٥ أبريل ١٨٧١ أن جميع دول الحلفاء قد انتخبوا فرنسا وصية على لبنان ، وأن الحكم سيكون فى البلاد التى لها امتيازها والتى كانت محرومة من الامتياز سيمنح لها الامتياز والحكم العام الداخلى سيكون باستشارة الأهالى وأشار إلى قيام حماية فرنسية على سوريا .

وأثناء الحرب صدر تصريح الرئيس الأمريكى ولسون فى أوائل عام ١٩١٨ م الذى يقضى بحق الشعوب فى تقرير مصيرها ، وعقب انتهاء الحرب سيطرت القوات الفرنسية على المنطقة الساحلية فى سوريا من الناقورة جنوبا إلى كيليكيا شمالا وتديرها فرنسا ، فى الوقت الذى احتلت القوات البريطانية فيه جنوب سوريا ، وتسيطر حكومة فيصل العربية على سوريا الداخلية وقد ظهرت النوايا الفرنسية واضحة فى موقفها من حضور مندوبين عرب جلسات مؤتمر الصلح فى باريس ، فقد استقبلت الحكومة الفرنسية الأمير فيصل كزائر كبير ، ليس له صفة الممثل السياسى أو المندوب الرسمى لحكومة معينة ، وكان لهذا مغزاه ، فان الحكومة الفرنسية لم تشأ أن تفترض للعرب حقوقا فى مؤتمر الصلح .

(٣) شارك فى هذا الاتفاق مسيو جورج بيكو ، وسيرمارك سايكس مندوبا فرنسا وانجلترا فى القاهرة وقنصل روسيا فى القاهرة كذلك ، وظل هذا الاتفاق سريا حتى أذاعته الثورة الروسية عام ١٩١٧ م .

(١) د . أنيس ود . حراز : المرجع السابق ص ٣٣٨ .
(٢) نفس المرجع ص ٣٥٢ .
(٣) د . حسين النجار : مرجع السابق ص ٢٩ .

ونتيجة لفشل فيصل فى مؤتمر الصلح وعودته إلى دمشق فى أوائل مايو ١٩١٩ م تشكل ماعرف بالمؤتمر السورى العام فى الشهر التالى وفى خريف نفس العام كان الاتفاق قد تم بين "لسويد جورج" و "كليمنصو" باحلال الجيوش الفرنسية محل الجيوش البريطانية فى كيليكا والساحل السورى على أن تبقى فلسطين فى عهده الجيش البريطانى ، وحصر سيادة العرب بالمنطقة

الداخلية من سوريا ، واشتراط كليمنصر ألا تؤثر موافقتة هذه فى التسوية النهائية المتعلقة بالانتداب والحدود تأمينا لاستيلاء فرنسا على كامل سوريا .

وفى ٨ مارس عام ١٩٢٠ م انعقد المؤتمر السورى العام وحضره مندوبون عن العراق ، واتخذ عدة قرارات تقتضى باستقلال سوريا بحدودها الطبيعية وارتقاء فيصل عرش الملكية فى دمشق ، واستقلال العراق ، وشجب القرارات الاستعمارية والصهيونية كاتفاق سايكس بيكو ووعد بلفور ، ورفض الوصاية السياسية التى تحاول الدول الاستعمارية فرضها باسم الأنتداب ، ورفض معونة فرنسا تماما . ولكن هذه القرارات لم يكن لها صدى عند الدول الاستعمارية فقررت فرض الانتدابات الفرنسى على كل سوريا ولبنان فى مؤتمر سان ريمو المنعقد فى ٢٥ أبريل ١٩٢٠ م والانتداب الانجليزى على العراق وفلسطين .

وكان معنى ذلك اشتعال الثورة فى كل سوريا ومسلمى لبنان ضد الانتداب الفرنسى .

وبالثورة يستمر الصراع بين السوريين المسلمين واللبنانيين من جهة ، وبين قوات الاستعمار الفرنسى من جهة أخرى حتى تنجح المقاومة العربية فى جعل الوجود الاستعمارى على الأرض العربية مستحيلا ومن ثم يسلم فى النهاية بأنهاء هذا الوجود ، وبحصول سوريا ولبنان على استقلالهما عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية كما سنرى .

---

(١) د. عزت عبد الكريم وآخرون : المرجع السابق ص ٤٠٩ - ٤١٠

"فى الجزائر"

كانت الجزائر من الامبراطورية العثمانية منذ عام ١٥١٨ م ، ولكن سلطة الدايات جعلت من البلاد دولة مستقلة يكاد يكون تاما حيث كان لهم حق عقد المعاهدات مع الدول الأجنبية دون الرجوع الى السلطان العثمانى كما كان الداى ينتخب ويعين ويباشر سلطته دون الرجوع الى السلطان وايرادات البلاد وأن كانت كلها من عمليات الجهاد البحرى - تصرف على مصارف الحكم وان كانت غير منظمة ، ولم تكن ترسل شيئا من الجزية الى السلطان .

ورغم هذا الاستقلال فأن الجزائر شهدت خلال القرن الثامن عشر انهيارا فى الاقتصاد بسبب كساد الحركة التجارية ومقاومة الدول الأوربية للعمليات البحرية الجزائرية ، كما شهدت فوضى سياسية بسبب النزاع بين الدايات بعضهم وبعض ومع رجال الجيش ومع رجال البحر حتى فقدت البلاد تقدمها واضطرب الأمن فيها وأصبحت بفضل المعاهدات مع الدول الأوربية مجالا للنفوذ الأوربى على حساب استقلال البلاد وعلى حساب مصلحة أهلها .

كانت تلك ظروف الجزائر التى هيأت للغزو الفرنسى الفرصة لتحقيق أهدافه . أما ظروف فرنسا نفسها فقد كانت تتمثل فى اضطراب الأحوال الداخلية منذ تولى الملك شارل العاشر العرش عام ١٨٢٤ م ، نتيجة لما امتازبة هذا الملك من روح رجعية حتى أحس بسخط الشعب عليه وعدم محبته ، وخاصة أن الشعب الفرنسى كان ينظر اليه على أنه أتى الى الحكم بتأييد من الأجانب ، وقد كان اختيار الملك "لبولينياك" رئيسا لوزرائه رغم سخط الناس علية لموقفه الرجعى من الدستور والحياة النيابية دافعا لمزيد من تبرم الشعب الفرنسى من الحكم ومن ثم عمل الحكم فى فرنسا على احراز نصر فى الخارج لتغطية الموقف الداخلى وقدر أن المغامرة الحربية فى الجزائر سوف تزيد من الشعور الوطنى عند الفرنسيين وتعطل انفجار الثورة .

هذا على الرغم من أنه كانت لكبار الملاك الفرنسيين رغبة شديدة فى امتلاك أراضى جديده تدر عليهم دخلا يعوضهم عما فقدره أثناء الثورة وحكم نابليون الى جانب رغبة الحكومة الفرنسية فى

---

(١) د . زاهـر رياض : شمال أفريقيا فى العصر الحديث ص ١٦٩ .

سوريا

الانتداب :

كما هو معروف اتفقت الدول الأوربية على اقتسام المشرق العربى فيما بينها ، فيما عرف باتفاقية سايكس بيكو ثم فى مقررات مؤتمر سان ريمو ١٩٢٠ ، ضاربين عرض الحائط بدعوة الشريف (الملك)حسين الى استقلال البلاد العربية .

فقد عزم شعب سوريا على التصدى للفرنسيين بقيادة فيصل بن الحسين ولكن قدرات العرب العسكرية كانت محدودة للغاية ولذلك لم يقبل الفرنسيون التنازلات التى قدمها فيصل وفرضوا عليه حرب غير متكافئة وكانت هزيمة "ميسلون" بداية لفرض الأنتداب المباشر الفرنسى على سوريا يوليو ١٩٢٠ ولم يكن تجد حينذاك لمنابر الدولة المتحدثة باسم حق تقرير المصير .

اذ كانت عصبة الأمم فى قبضة دول الحلفاء وخاصة بريطانيا وفرنسا . وحاولت الولايات المتحدة الامريكية أن تمارس على الطبيعة دعوتها الى حق تقرير المصير بالنسبة للشام ولكنها كانت مجرد لجنة كتبت تقريرا معبرا عن بعض أمال العرب فى المشرق فأهملت فرنسا وبريطانيا اللجنة وتقريرها .

أما فرنسا فى سوريا ولبنان فقد استوحت أهدافها الاستعمارية عند تنفيذ صك الانتداب على كل من سوريا ولبنان فباسم مراعاة الشعور الوطنى وأهدافه أعلنت فصل قيام لبنان الكبيرة وانقضت على سوريا فى محاولة لتمزيقها بأن قسمتها الى وحدات طابع طائفى وهى :

١ ـ دمشق .
٢ ـ حلب .
٣ ـ جبل العلويين .
٤ ـ الاذقية .
٥ ـ جبــل الدروز .
٦ ـ الاسكندرونة .

١ ـ كانت سوريا قد اتفقت مع فرنسا وبريطانيا قبل ذلك على تقسيم مناطق النفوذ والسيطرة فى المشرق العربى وتركيا ، ولكن خروج روسيا من الحرب العالمية الأولى أدى أقتصار عملية التقسيم هذه على كل من فرنسا وبريطانيا فيما عرف بأتفاقية سايكس بيكو ١٩١٦ وماتلاها من تفاهم واتفاق على تنفيذها فى مؤتمر سان ريمو ١٩٢٠

والحقيقة أن الشعب العربي في سوريا تقبل الهزيمة لفترة ، ولكنه كان يضمر التحرك ضد الفرنسيين كلما لاحت له فرصة فلقد تزعم "أبراهيم هنانو" حركة مقاومة عسكرية ، كما تزعم "عبد الرحمن الشهبندر" حركة سياسية تهدف الى قيام حكم ديمقراطي : وفي القاهرة تشكلت لجنة لتحرير الشام ، وكانت من بين

المبادىء التي نادى بها الوطنيون السوريون استعادة الشام لوحدته وأقامة وحدة أوسع تضم الشعوب العربية في (الهلال الخصيب) بل وتحقيق أمنية العرب في الوحدة .

ولكن الزعامات السياسية والتركيبات الاجتماعية والاقتصادية في كبريات مدن الشام لم تكن بقادرة على أن تتحرك حركة ثورية عامة ضد الفرنسيين لافتقارها الى القوة الضارية بينما كانت التركيبات العشائرية اكثر قدرة على التحرك العسكري ضد المحتلين . فلا عزو أن أدى صدام بين الدروز والفرنسيين الى أن تحول الى ثورة عامة تزعمها (سلطان الأطرش) و (عبد الرحمن الشهبندر) وهي الثورة التي عرفت بالثورةالسورية الكبرى عام ١٩٢٥ م .

تفوق السلاح الفرنسي على الثورة ولكنها هزت السيطرة الفرنسية وجعلت الفرنسيين يعيدون النظر في سياستهم اذ رجعت جزئيا عن سياسه تفكيك سوريا الى وحدات واتجهت الى اشراك الشعب السوري ولكن بقدر محدود ـ في ادارة البلاد .

وتمثل ذلك في تشكيل حكومة وطنية برئاسة تاج الدين الحسيني واجراء انتخابات لجمعية تأسيسية في اطار نظام حكم جمهوري تكون فيه يد فرنسا هي العليا .

والواقع ان التطورات السياسية التي حدثت في العراق منذ ثورة العشرين وادت الى قيام حكم ملكي وطني دستوري برلماني متحالف مع بريطانيا الأمر الذي يجعل فرنسا متخلفة عن بريطانيا في المسيرة نحو أقامة حكم وطني . وهذا يفسر لنا الخطوات الاكثر نشاطا التي قام بها المندوبان الساميان الفرنسيان "يونسو" ودى "مارينتل" نحو إقامة نظام جمهوري دستوري برلماني مرتبط بالتوجيه الفرنسي من منطلق معاهدة غير متكافئة بين سوريا وفرنسا .

وقد كانت الكتلة الوطنية ـ أقوى الاحزاب السورية في الثلاثينيات قد اقتنعت بان الاجدى هو التوصل الى معاهدة مع فرنسا منتهزة تولي (الجبهة الوطنية) برئاسة "ليون بلوم" الحكم في فرنسا على اعتبار أن مبادىء هذه الجبهة الوطنية الفرنسية اكثر تقديرا لحرية الشعوب من غيرها من الحكومات الوطنية السابقة .

وفعلا وافقت حكومة الكتلة الوطنية السورية وحكومة الجبهة الوطنية الفرنسية على مشروع معاهدة مشابهة الى حد كبير لمعاهدتي بريطانيا مع كل من العراق ومصر وان كانت المعاهدة الفرنسية مع سوريا اكثر تشددا ، وكان ذلك عام ١٩٣٦ م .

ولكن لم تلبث أن خرجت حكومة (الجبة الوطنية) الفرنسية برئاسة "ليون بلوم" من الحكم ورفضت الحكومة الفرنسية الجديدة ابرام المعاهدة الفرنسية ـ السورية بل عجزت الحركة الوطنية عن منع فرنسا من اقتطاع لواء الاسكندرية لتركيا حتى لاتاخذ الحكومة التركية جانب دولتى المحور (المانيا وإيطاليا) التين كانتا تستعد ان لفرض كملتها على أوربا .

وهناك عدة عوامل ساعدت القوة العسكرية الفرنسية على فرض سيطرتها على البلاد والحد من تطورها نحو حتى مجرد استقلال محدود : ـ

١ ـ تفكك الجبهة الداخلية سواء من حيث تنازع الأحزاب فيها بينها أو من حيث تسابق الزعامات على منصب رئاسة الجمهورية او من حيث وقوع الانشقاقات فى الأحزاب وخاصة فى الكتلة الوطنية

٢ ـ التفوق العسكرى الفرنسى .

٣ ـ التنسيق الفرنسى ـ الانجليزى حول استمرارية التسلط على ماتحت يدهم من بلاد عربية وان لم يمنع ذلك وجود تنافس بينها فى المنطقة .

لقد أدت تلك التطورات الى اضطراب الحياة السياسية فى سوريا ، وعطلت السلطات الفرنسية العمل بالدستور بل عادت فرنسا بسوريا الى أوضاع فترة الانتداب المباشر السابقة . وذلك ما كانت عليه أوضاع سوريا عندما وقعت الحرب العالمية الثانية .

الاستقـــــلال :

ومن المعروف ان فرنسا تلقت هزيمة سريعة على يد ألمانيا أخرجتها من الحرب ، وقامت حكومـــة فرنسية فى "فيشى" تحكم البقية الباقية من الأراضى الفرنسية غير المحتلة والمستعمرات الفرنسية وكانت حكومة فيشى تكن (الحقد) لبريطانيا لأنها لم تسهم ومن جهة نظر حكومة فيشى الأسهام الواجب نحو الدفاع عن فرنسا ضد الغزو الألمانى طمعا فى سلب فرنسا مستعمراتها فى الشرق الأوسط وفيها وراء البحار بينها نجد ديجول ـ أحد القادة النابهين الوطنين الفرنسيين ـ قد أصر على رفض مبدأ خروج فرنسا من الحرب ونادى باستمرار المقاومة الفرنسية جنبا الى جنب مع بريطانيا والحلفاء وأدى ذلك الى أن تكون المستعمرات هدفا ليس فقط للتحرك الانجليزى ولكن لديجول وحكومة فرنسا الحرة التى يرأسها .

وأصبح من الضرورى ـ من وجهة نظر بريطانيا ـ السيطرة المباشرة على سوريا ورفع يد حكومة فيشى عنها حتى لاتتخذ ألمانيا منها قاعدة لدعم حركة رشيد عالى الكيلانى عام ١٩٤١ ضد بريطانيا وفعلا هزمت القوات البريطانية ـ تدعمها وحدات فرنسية محدودة .

قوات حكومة فيشي وسيطرت على سوريا ولبنان . ومنذ بداية هذه العمليات كانت التصريحات البريطانية تؤكد أن بريطانيا تعمل من أجل استقلال سوريا ولبنا ، بينما كان ديجول يسعى الى الحفاظ على اليد العليا لفرنسا على هذين الشعبين العربيين .

فكان طبيعيا ان يقع الخلاف بين الحليفين فرنسا الحرة برئاسة ديجول وبريطانيا . فبينما أعلنت الأخيرة بصراحة وقوفها . بجانب مطالب الحركة الوطنية السورية وخاصة الاستقلال التام كان الجنرال كاترو - ممثل ديجول - يوافق على الاستقلال ولكن مع عقد معاهدة مع سوريا على مستوى المعاهدة الانجليزية مع العراق (١٩٣٠) ومع مصر (١٩٣٦) على الاقل ، وهي معاهدات تجعل الدولة العربية المتعاهدة تحت التوجية الاجنبي . ولكن اليد العليا حينذاك كانت لبريطانيا ، فكانت أن أعطيت الفرصة للشعب السوري وكذلك اللبناني لاجراء انتخابات لجمعية وطنية في يناير ١٩٤٣ . وبرزت في هذه الفترة زعامة "شكري القوتلي" زعيم الكتلة الوطنية الذي تولى رئاسة الجمهورية السورية ، وزعامة بشارة الخوري الذي تولى رئاسة الجمهورية اللبنانية ورياض الصلح الذي تولى رئاسة الوزارة اللبنانية ولكن ديجول أصر على أن يكون لفرنسا قدم ثابته في كل سوريا ولبنان وجازف بأستخدام القوةالفرنسية المسلحة ضد الشعبين السوري واللبناني رغم تفوق الوجود العسكري البريطاني لعل ظروف بريطانيا والحلفاء في أعقاب الحرب العالمية الثانية تحول دون تورط بريطانيا في عمل عسكري ضد حليفتها فرنسا .

ولكن بريطانيا - تدعمها الولايات المتحدة - كانتا تريان وان استقلال سوريا ولبنان التام خير لأهداف الدول الغربية من الوجود الفرنسي فيهما . فكان أن أنذرت الحكومة البريطانية ديجول بالتحرك العسكري لمنع القصف للوطنيين ولاطلاق سراح المتعلقين من الزعامات السورية واللبنانية - كما أعلنت بريطانيا أنها مستعدة للانسحاب الفوري من سوريا ولبنان الامر الذي أحرج مركز فرنسا فوافقت على الخروج منهما وتم الجلاء القوات الاجنبية فعلا منهما في ابريل عام ١٩٤٦ .

لقد كان وجود دولتين كبيرتين متنافستين على الاراضي السورية واللبنانية وأختلافهما حول تحديد المستقبل الملائم لسوريا ولبنان مساعدا على الاستقلال التام قبل حصول العراق ومصر عليه .

واجهت الجمهورية السورية الدستورية البرلمانية الحزبية في بداية عهدها مشكلات وتيارات مصيرية اكبر من قدراتها وهي :

١ - تجربة الديمقراطية على الطريقة الغربية في مجتمع نامي متعدد التركيبات الاجتماعية والمذهبية

٢ - فساد الاتجاهات الوحدوية - الأقليمية والقومية - التي كانت تهب على البلاد سواء من الداخل أوالخارج .

٣ ـ فساد الأدارة البيروقراطية .
٤ ـ تصاعد التفوق الصهيونى فى فلسطين وحتمية المواجهة السورية بصفة خاصة والعربية بصفة عامة مع الصهيونية .

وكانت الهزيمة التى حلت بالعرب فى المواجهة العربية ـ الاسرائيلية الأولى (١٩٤٩/٤٨) وتبادل الحكومات العربية الاتهامات لتبرير الهزيمة مع تصاعد الدعوة الى الوحدة العربية واتجاه القيادات العسكرية الى تبرير الهزيمة بتحميل الادارات المدنية مسئوليتها ادى كل هذا الى تهيئة المناخ لاحداث تغيير جذرى فى نظم الحكم ، فبدا مسلسل الانقلابات العسكرية من سوريا على يد "حسنى الزعيم" عام ١٩٤٩ ، ودخول الضباط فى حلقة المحاور العربية والايدلوجيات الوحدوية أو التقدمية . ولكن نظرا لان التجربة السياسية كانت تعوز الانقلابيين مثل "حسنى الزعيم" فقد شابت بعض اتجاهاتهم السياسية اساليب المحاولة والخطأ ، فقد وقع بسرعة اتفاقية خط "التابلاين" فاتهم بالرشوة والتواطؤ مع الامريكيين ، رغم مايدره ذلك الاتفاق من دخل كبير لسوريا المهزوزة أقتصاديا ، وإبدى ميلا نحو "نورى سعيد" داعية مشروع "الهلال الخصيب" فاثار مخاوف مصر والسعودية ثم عاد الزعيم ومال نحو مصر رافضا المشروعات الأقليمية لنورى السعيد أو للملك عبد الله داعية مشروع سوريا الكبرى .

وكانت سياسة "حسنى الزعيم" الدخلية هى الاخرى مثيرة للجدل بل وكذلك للمخاوف فقد تقرب من بعض العصبيات المحلية مثل الاكراد والعلويين فاعتبر ذلك اهمالا خطيرا للاغلبية العربية ، وتعاون سرا مع الحزب القومى السورى ضد نظام الحكم فى لبنان وكان جزبا مكروها من الاغلبية الأسلامية بل وكذلك من الاغلبية المارونية اللبنانية ، ثم لم يلبث ان تخلى الزعيم عن هذا الحزب عندما فشل رئيسى الحزب "انطون سعادة" فى تنفيذ خطته فسلمه الزعيم الى السلطات اللبنانية فأعدمته . وسار حسنى الزعيم فى خطوات اصلاحية اجتماعية على الطريقة الغربية فخشيت الأغلبية الاسلامية من تيار علمانى يدمر الأصالة الاسلامية .

وفوق هذا وذاك كان الزعيم دكتاتورا لايطيق معارضة فبعد ازمة وبينه وبين البرلمان حله ، ووضع الزعيم كل السلطات فى يده ورفع نفسه الى منصب رئاسة الدولة (يونيو١٩٤٩) واضطهد الأحزاب فكان أن تجمعت معظم القوى السياسية والاجتماعية ضده واصبح سقوطه رهن تحرك الجيش ضده . وفعلا حقق سامى الحناوى أحد قادة الجيش نجاحا سريعا عندما دبر انقلابا عسكريا تشير كثرة من الشواهد على أن للعراق ـ بدعم من بريطانيا ـ دور فيه ، ولكن هذه الشبهة وما بدا من الحناوى من ميل الى العراق دفعت بعض الأحزاب ـ التى أيدت انقلاب الحناوى ـ الى التخلى عنه حزب البعث ، بزعامة "ميشيل عفلق" ومثل حزب الشعب برئاسة "ناظم القدسى" .

واذا كان دور الاحزاب السياسية والتدخلات العربية والاجنبية فى تدبير أنقلاب

"حسنى الزعيم" وانقلاب "سامى الحناوى" المضاد فان الانقلاب الثالث الذى دبره "أديب الشيشكلى" كان بتوجية واضح من "أكرم الحورانى" القومى العربى الاشتراكى المعادى لنورى السعيد ذى الميول الغربية .

وكان أن اتسع نطاق التدخلات الخارجية فى السياسة السورية مستغلة مايسببه حكم العسكريين من أمثال الشيشكلى ـ من رفض الاحزاب له ومن صراعات تأمرية بين الزعامات المتطلعة ومن ولاءات سورية موزعة بين العراق ومصر والسعودية ومن ذلك استطاع "أديب الشيشكلى" أن يكون صاحب الكلمة العليا فى سوريا خلال فترة ليست بالقصيرة امتدت من ٤٩ الى ١٩٥٤ .

وذلك يرجع الى أن الشيشكلى كان ـ حتى قبيل سقوطه ـ يستند الى قوة عسكرية ضاربة قوية ، واتخذ سياسة ثورية معارضة للنظريات السياسية والاقتصادية الغربية اذ اتخذ مسلكا يساريا ضد الحرية الاقتصاديا وضد الملكية الأقطاعية اذ حددوها مطبقا مفاهيم الأصلاح الزراعى ، ورفع شعارات ثورية تهدف الى تحرير العرب وكانت تلك الاجراءات تلقى ترحيبا من مجلس قيادة ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ فى مصر وبدأ كأن هناك تقاربا كبيرا بين العسكرية الثورية فى كل من الدولتين .

كتاب تاريخ العرب الحديث والمعاصر

ولكن بينما لم يكن فى استطاعه أى نظام عربى التدخل فى شئون مصر الثورة كانت سوريا مفتوحة بشكل كبير أمام التدخلات العربية مستغلة القوى المحلية السورية الناقمة على دكتاتورية الشيشكلى فلقد اصطدم الشيشكلى بشده مع حزب البعث الذى لم يكن صاحب اغلبية شعبية فى سوريا ولكن كان على ديناميكية ملحوظة فى العمل السياسى ، كذلك تصدى الحزب الوطنى للشيشكلى فضلا عن الحزب الشيوعى والأخوان المسلمين فكان طبيعيا أن يزداد اعتماد الشيشكلى على الجيش فى التحكم فى توجيه أمور البلاد .

وأخذت عناصر التوتر تتصاعد حتى بلغت درجة للغاية فى اعقاب اعلان الأحكام العرفية لمواجة ماتردد عن خطة عسكرية عراقية لغزو سوريا تدعمها القوى الداخلية المناهضة لحكم الشيشكلى .

ان مثل هذه الاوضاع التى تضع البلاد على حافة صراع داخلى ويعرضها لغزو خارجى لكفيلة بأن تدفع ـ فى بلد مثل سوريا ـ بالقيادات العسكرية الى تدبير انقلاب يوقف تصاعد تلك التيارات ولوالى حين .

ونظرا لضعف الأحزاب التقليدية والأحزاب النامية فقد أصبح التغير قاصرا على الجيش ولذلك سعت زعامات (حزب البعث) و (الاخوان المسلمين) الى تحريك الجيش ضد الشيشكلى ولذلك عندما أعلنت فرق الجيش فى كبريات مدن سوريا عصيانها حتى أثر الشيشكلى أن يغادر البلاد عام ١٩٥٤ .

ونظرا لان دور الاحزاب فى تنفيذ الانقلاب ضد الشيشكلى كان واضحا فقد كان من الطبيعى ان يأخذ رجال الانقلاب بنظرية الحكم البرلمانى الحزبى . وفعلا عاد حزب الشعب والحزب الوطنى الى الحكم وتولى مقاليد الامور الزعيم التقليدى شكرى القوتلى عام ١٩٥٤

الوحـــــــــــدة : ـ

لقد تولى الفوتلى الحكم والبلاد العربية تواجه تيارات قوية فى اكثر من مكان ، فنورى السعيد كان يوجه العراق نحو الارتباط بالاحلاف الغربية وتزعم اقامة ماعرف باسم حلف بغداد ـ (العراق وتركيا وايران وباكستان وبريطانيا) بدعم من الولايات المتحدة ، وكان هذا الاتجاه نحو الغرب مكروها من
القاعدة الشعبية العامة فى البلاد العربية نظرا لما كان يعانية العرب من تسلط غربى ، ولما كان يحيط حلف بغداد من اتهامات بانه مقدمه للتفاهم مع اسرائيل التى اقامتها الصهيونية بدعم رئيسى فعال من الكتلة الغربية ، وكانت مصر الثورة بقيادة جمال عبد الناصر قد تزعمت الجبهة المناهضة للغرب .

وهكذا اصبح هناك تياران قويان يتنازعان البلاد العربية تيار غربى يتزعمة نورى السعيد بنوع من التطرف وتيار يرى فى الغرب الخطر الحقيقى على البلاد العربية ، وكان التيار الاول من منطلق الحنكة السياسية والتقييم الواقعى لإمكانيات العرب فى مواجهة الغرب بصفة عامة والصهيونية بصفة خاصة . وكان التيار الثانى من مطلق المفهوم الثورى لحركة الشعب العربى التحررية ورفض أية حلول وسط مع الصهيونية التى تغتصب الأراضى العربية برضاء تام من الغرب بل وتشجيع منها .

وأصبح التياران وجها لوجه فى المجالات العربية والشرق إوسطية والدولية عندما نسقت القيادات العسكرية فى مصر وسوريا العمل مع بعضها . وعندما أصبح الاتحاد السوفيتى هو الذى يزود مصر وسوريا بالسلاح المتقدم ، ومع تحفظ السعودية المناهضة للكتلة الشرقية السوفتية ـ ازاء حلف بغداد فقد كانت تخشى تماما تصاعد العلاقات بين مصر سوريا من جهة والاتحاد السوفتى من جهة أخرى .

وفى سوريا تصاعدت التيارات المؤيدة للغرب والمناهضة له ، والمؤيدة للأحلاف والداعية للحياد وتيارات دينية فى مواجهة الاشتراكيين والشيوعيين ، والأحزاب السورية نفسها متنازعة ، وامتدت منازعاتها الى الجيش السورى فتوزع الى تيارات متناقضة وبدا وكأن سوريا أصبحت هدف الجميع ، والقوى السياسية والاجتماعية تقدم الفرص الواسعة نحو تصعيد آمال العراق فى تحقيق (الهلال الخصيب) ونحو إسراع بعض القوى السياسية والعسكرية الى مقاومة التيار العراقى ـ الغربى بالارتباط أكثر وأكثر بمصر والى تصعيد التحول الاشتراكى اليسارى فى سوريا وهو تصعيد يثير مخاوف الملكيات فى

العراق والسعودية ولاردن ، وحتى لقد تردد فى الدوائر السياسية العربية .
أن العراق وتركيا يدبران ضربة ساحقة لسوريا تزعمها على الارتباط بحلف بغداد ، وبذلك يمكن كسر الجبهة الثورية التى تشكلت من الحكومتين المصرية والسورية .
وجاء العدوان الثلاثى (١٩٥٦) الذى جعل مصر الدولة العربية الجديرة بقيادة العالم العربى وجعل سوريا الدولة الأكثر جرأة فى دعم المقاومة المصرية ضد العدوان الثلاثى ، بل لقد ألهب العدوان الثلاثى مشاعر السوريين فطالبوا بالوحدة مع مصر بقوة أكثر عن ذى قبل .
ونظرا لشدة التيار الشعبى السورى نحو الوحدة مع مصر . فقد كانت المزايدات بين الزعامات السورية بشان الوحدة تنمو فى نفس الوقت الذى كانت فيه التهديدات العراقية والتركية تشتد .
وأصبحت مصر الثورة امل الزعامات والشعب السورى لتحقيق وحدة عربية ، واخذت المحادثات التمهيدية تتوالى بين المسئولين فى القاهرة ودمشق ، وبينما كانت حكومة عبد الناصر ترحب بخطوات وحدوية ، كانت الزعامات السورية مختلفة فيما بينها حول شكل الوحدة . ويبدو ان القيادات العسكرية وجدت أن مثل هذه الوحدة لو وضعت اجراءات تنفيذها فى يد المدنيين فانهم لن يضعوا الأولويات الاستراتجية فى مكانها . بمعنى أن العسكريين كانوا يرون فى الوحدة الاندماجية خلاصا ليس لسوريا فقط بل للعرب أجمعين ، بينما كان السياسيون يرون أن الوحدة بين مصر وسوريا يجب أن تسير فى خطوات ممتالية حتى يتهيأ المناخ المناسب لوحدة اندماجية .
وهذا يفسر لنا أن العسكريين أخذوا المبادرة باسمهم ، وقدموا من وراء الحكومة الى القاهرة ، وقدموا سوريا الى مصر لتتحدا وحدة اندماجية برئاسة (زعيم العروبة) جمال عبد الناصر . وكان هذا على هوى عبد الناصر رغم تحفظاته اذ من منطلق مفاهيمة الثورية العسكرية يكون أكثر استعداد لقبول مثل هذا من القيادات العسكرية السورية .
ولذلك كان ماعرضه ، بعد ذلك ، صلاح البيطار - أحد زعماء حزب البعث العربى الاشتراكى من وحدة على عبد الناصر كأنة تحصيل حاصل . وكان أن قامت الوحدة المصرية السورية فى ٢٢ فبراير ١٩٥٨ فى وسط مظاهر شعبية قومية جارفة ليس فقط فى مصر وسوريا ولكن كذلك فى لبنان ، ورغم محاولة الحكومات الأخرى المتحفظة نحو الوحدة أو المناهضة لها ، فقد هز قيام الوحدة كل مجتمع عربى .
ولكن السياسة التى اتبعتها حكومة الوحدة (١٩٥٨ - ١٩٦١) والتيارات العديدة التى تجتاح سوريا لعبت أدوارا جوهرية فى تقصير مدة هذه التجربة الوحدوية
فقد علا الصخب السياسى العربى فوق التقنين العلمى لمسيرة الوحدة سواء بين المؤيدين والمعارضين حتى لقد تحول هولاء وهولاء الى مايشبة الاعداء واصبحت الملكيات

العربية في المنطقة في وجل شديد من هذه الانتصارات الوحدوية الأمر الذى أدى الى توزيع البلاد العربية الى كتلة (تقدمية) وأخرى (رجعية) وهو تصنيف أسهم في محاصرة نمو الحركة الوحدوية .

وفى سوريا نفسها ، طبق نظام الحزب الواحد ، وهو نظام ثبت أن الشعب السورى كان يعارضه ، نظرا لان بعض الأحزاب السورية - مثل حزب البعث - كانت احزاب أيديولوجية (عقائدية) قد تضطر الى الانزواء فترة أمام شكيمة الحكومة ، ولكنها لاتستلم للسيطرة .

ونظرا لان الجيش كان قد تورط فعلا ولمدة ليست بالقصيرة في التيارات السياسية المتنافسة فان قبوله لنظام ما يبعده عن المشاركة الفعالة فى توجية امور البلاد ، يكون مقبولا مؤقتا . ولذلك كان حل الاحزاب السورية وفرض مفهوم (الاتحاد القومى) على سوريا ، اى نظام الحزب الواحد (اى حزب السلطة الحاكمة) ، وكان ابعاد الجيش عن السياسة - وهو شرط اشترطه عبد الناصر لقبول الوحدة الاندماجية كان كل هذا من العوامل التى جعلت عوامل الانفصال فى سوريا كامنة تنتظر الفرصة للوثوب على الوحدة لفكها .

وجاءت هذه الفرصة عندما عمدت حكومة الوحدة الى تطبيق القوانين الاشتراكية على الاقاليم الشمالى (سوريا) ومع ماكان وراء هذه القوانين من اهداف نحو الارتفاع بقدرات الشعب الا ان حكومة الوحدة وقعت فى نفس الخطا تقريبا الذى وقع فيه محمد على من قبل فلقد رفض الشعب فى الشام نظام الاحتكار الذى فرضة عليه محمد على وثار عليه الشعب السورى ، كذلك رفض هذا الشعب القوانين الاشتراكية التى فرضتها حكومة الثورة ، وذلك لان الاحتكار والقوانين الاشتراكية لم تكن تتلاء مع التكوين الفكرى والتجارى للشب السورى . ومن ناحية أخرى فليس كل ما يصلح لمصر يصلح لسوريا ، وهذا مالم يدركه كل من محمد على وعبد الناصر مما ادى الى ان ينقلب الترحيب السورى بكل منهما الى ثورة .

ومن ناحية أخرى لم تكن الشعوب العربية قادرة على الارتفاع الى مستوى الأهداف الاستراتيجية المصرية البعيدة النظر ولم تكن القيادة الثورية المصرية بقادرة على تقييم موضوعى للوحدة من حيث انه رغم قوة المنطلقات الوحدوية السورية لدرجة استعداد السوريين للتخلى عن هويتهم الرسمية كانت هويتهم الاقلمية الكامنة اكثر فعالية فى التحريك السياسى من الهوية الوحدوية الأمر الذى حال دون أن يستمر السوريون فى التفوق على مشاعرهم الاقليمية وجعلهم ينتظرون حركة عسكرية ماتفصل سوريا عن مصر .

مابعـــد الانفصــــال :

ولذلك ، فلا تكاد وحدة عسكرية سورية محدودة القوة تتحرك ضد المؤسسات الوحدوية فى دمشق حتى انهارت الوحدة وأعلن الانفصال وسط ترحيب واسع النطاق من الشعب السورى ومن الزعماء التقليديين ومن الزعامات العقائدية الأيدلوجية فى ستمبر ١٩٦١ ، ومن ثم لم يكن فى وسع مصر أن تستخدم القوة للحفاظ على الوحدة لان ذلك كان سيتحول الى قضية خاسرة بل وربما الى نكبة قومية . الا أن هذه الحركة الانفصالية أثرت تأثيرا مريرا على كافة أفراد الشعب المصرى وأثرت بشدة فى جمال عبد الناصر حتى انه أسرع الى فض العلاقة الوحدوية مع اليمن الذى كان قد دخل طواعية فى الوحدة مع الجمهورية العربية المتحدة وذلك قبل أن يفض امام اليمن الوحدة من تلقاء نفسه .

بعد الانفصال اسارت الحكومة السورية نحو تحقيق نظام حكم برلمانى ، وأجريت الأنتخابات فى نوفمبر ١٩٦١ وتفوق حزب البعث ـ الذى كانت القاهرة تحمله مسئولية الانفصال بالقياس الى غيره من الاحزاب ، ولكن كان واضحا أن الشعب السورى بدأ يعزف عن الأحزاب حيث أن نسبة عالية جدا من الذين نجحوا فى الدوائر الانتخابية كانوا من المستقلين وكان طبيعيا أن تنحوا الحكومة الجديدة نحو تعديل القوانين الاشتراكية ولكن ظلت التيارات تعصف بالحياة السياسية السورية فأنصار الوحدة كانوا لايزالون متعلقين بها وحزب البعث يسعى الى الحكم فيلقى بثقلة داخل الجيش والجيش فى حاجة الى حزب يستند الية فى حكم البلاد فكان أن قامت محاولة انقلابية عسكرية وحدوية فاشلة لم يلبث أن أعقبها انقلاب عسكرى بعثى دموى تولى رجاله السلطة فى ٨ مارس ١٩٦٣

ونظرا لأن حزب البعث العربى الاشتراكى كان يتطلع الى وحده مقننة مع مصر وأن أنصار الوحدة كانوا لايزالون على نشاط واسع فقد فضل "لوى الاتاسى" ـ زعيم الانقلاب ـ أن يقف بين هوءلاء وهؤلاء .

وكانت التطورات السياسية فى العراق قد أدت الى انقلاب بقيادة عبد السلام عارف ـ المتحمس لمصر الثورة قضى على عبد الكريم قاسم وأنهى فترة طويلة من النزاع المصرى العراقى فتمهد المناخ لعقد مشاورات من أجل الوحدة عرفت بمفاوضات الوحدة الثلاثية(مصر ـ العراق ـ سوريا) ولكنها فشلت فى التوصيل الى نتيجة ايجابية ، نظرا لتحفظات عبد الناصر على الزعامات السورية ، والاختلافات على شكل الوحدة الموجودة وأدى سقوط حزب البعث فى العراق الى توقف الجهود العملية فى اتجاه الوحدة وان استمرت شعاراتها تدوى فى سوريا .

وبينما فقد بعث العراق مكانته العاليه فى حكم العراق ، تفوق بعث سوريا وأصبحت الكلمة العليا له هناك وبصفة خاصة للجناح العسكرى البعثى السورى متخذا مسارا أكثر يسارية عن ذى قبل ونظرا لأن سوريا كانت تتعرض أكثر من غيرهما لهجمات متقطعة موجعة اسرائيلية . فقد استمر الاتجاه السورى والمصرى قويا نحو تنسيق عسكرى بينهما ، وتبلور ذلك فى معاهدة دفاع مشترك مصرية - سورية فى أكتوبر ١٩٦٦ ، كانت فى نظر اسرائيل خطر شديدا عليها فضلا عن ان الأزمة بين مصر وسوريا من جهة الولايات المتحدة والكتلة الغربية من جهة أخرى كان يزداد وحدة ، حتى أدت المصادمات بين سوريا واسرائيل الى تحرك مصرى للدفاع عن سوريا وارسلت القوات المصرية الى سيناء الى الحدود المصرية الأسرائيلية وأغلقت الملاحة فى خليج العقبة أمام السفن الاسرائيلية ، وانتهزت القيادة الأسرائيلية خطأ تكتيكى مصرى وقضت على سلاح الطيران المصرى الأمر الذى أصاب الجيش المصرى باضطراب شامل حتى سقطت سيناء .

بينما انسحبت القوات السورية دون قتال من مرتفعات الجولان الاستراتجية ، وخسر الملك حسين الضفةالغربية لمشاركة فى الحرب بجانب مصر وسوريا فكانت نكسة خطيرة للغاية وتطايرت الاشاعات عن أن قيادات سورية (باعت الجولان) ولاشك أن ذللك الانسحاب السورى المفاجىء من الجولان لايزال نقطة سوداء فى تاريخ الصراع العربى السرائلى لايقل سوادها عن وقوف الجيش العراقى بحجة (ماكو أوامر) من خلال الضغط المكثف الأسرائيلى على القوات المصرية فى حرب ١٩٤٩/٤٨ .

وانه لامرذو أن النظم الحاكم العسكرى التى منيت بهزيمة قاسية فى ١٩٦٧ ظلت هى صاحبة الحكم والتوجية بقوة أكثر عن ذى قبل . بل لقد اتخذت حكومة البعث العسكرية فى سوريا بقيادة حافظ الأسد مواقف أكثر تشددا من اسرائيل وأكثر ديناميكية نحو القضية الفلسطينية .

فقد رفضت سوريا قرار مجلس الأمن الشهير رقم ٢٤٢ لسنة ١٩٦٧ وتدخلت القوات السورية وان فشلت فى مهمتها - لانقاذ الفلسطنيين فى الاردن من قوات الملك حسين (أثناء أحداث ايلول الاسود سبتمبر ١٩٧٠) ودعمت سوريا بقوة الفلسطينين ضد محاولات السلطة اللبنانية للسيطرة على القوات الفلسطينية التى اتخذت من لبنان قاعدة لعملياتها الفدائية ضد اسرائيل . وبدا وكأن سوريا تلعب دورا عربيا أكثر ديناميكية عن ذى قبل رغم نكسة ١٩٦٧ .

كان هذا الدور العربى المتنامى يزداد قوة منذ أن وضع حافظ الأسد أزمة الأمور فى يده ، وكانت فلسفة حكمة تقوم على اساس اعداد سوريا لحرب مقبلة ضد اسرائيل قد يكون طويلة الأمد الذى يتطلب من وجهة نظر ألاسد - عسكرةالدولة فلا غرو أن كان النظام البرلمانى الذى حكم الأسد من خلاله سوريا كان مجرد ديمقراطية مظهرية .

وانه لمن غريب التطورات أن تفوق النظام البعثى العسكرى فى سوريا لم يستطيع التفاهم مع البعث العائد الى الحكم فى العراق منذ ١٩٦٨ بل سرعان مادب النزاع بين البعثين العراقى والسورى وكأن الأصالة الاقليمية أقوى من العقيدة الوحدوية وليست هذه المرة الأولى الذى تظهر فيه هذه المشكلة على هذا النحو فلقد سبق أن انقسم (العهد) ـ فى أعقاب الحرب العالمية الاولى الى عهد سورى وعهد عراقى .

كانت وفاة جمال عبد الناصر فى ١٩٧٠ لاتعنى لدى قادة مصر سوى المعنى فى استعداد لحرب تحرير ، وكان حافظ الأسد يدرك تماما أن لاقدرة لدى سوريا لمواجهة حقيقة مع اسرائيل الا باتفاق مع مصر على خطة عسكرية موحدة ، ولذلك عاد التنسيق العسكرى بين مصر السادات وسوريا الاسد ، ولكن فى هذه المرة دون ماضجة أو أعلان حتى فوجئت اسرائيل بحرب رمضان ـ أكتوبر ١٩٧٣ وقد اضطرت الى القتال على الجبهتين السورية والمصرية فى أن واحد ولقد كانت الانتصارات على الجبهة المصرية هى الحاسمة فى الحرب وكان الدور القتالى السورى قويا فى الايام الأولى من القتال ثم اضطرت القوات السورية الى التراجع رغم الدعم العراقى والاردنى لسوريا . حتى توقف القتال على مختلف الجبهات وبينما سارت مصر السادات نحو البحث عن حل للصراع العربى الاسرائيلى .
كانت سوريا تسير التشدد ، فمع أنها سارت على خطى مصر فى التوصل الى اتفاقية لفك الاشتباك الا ان مصر عقدت اتفاقية ثانية لفك الاشتباك عام ١٩٧٥ ولم تستمر سوريا فى هذا الاتجاه وافترقت مصر عن سوريا فى معالجة الصراع العربى الاسرائيلى عندما أقدم السادات على مبادرته المشهورة بزيادة القدس عام ١٩٧٧ وعقد اتفاقية كامب ديفيد عام ١٩٧٨ وأخيرا ، عقد معاهدة السلام مع اسرائيل عام ١٩٧٩ بينما اتخذت سوريا ومعظم الدول العربية موقفا متشددا ضد مصر وهو وضع لم يتغير الاحلال سنوات حكم حسنى مبارك اذ بدأت الدول العربية تعيد النظر فى مقاطعتها لمصر كما أن مصر اتخذت مواقف أكثر صلابة من اسرائيل الأمر الذى يمهد الطريق نحو عودة العلاقات بين العرب ومصر الى سابق عهدها .

لبنـــان

الشعب اللبناني :

اذا كان هناك شعب متعدد الأديان والطوائف والعصبيات المتنازعة عبر التاريخ الحديث فانه الشعب اللبناني ، بل هناك من لايقل اطلاق مصطلح (شعب) على سكانه فان مقومات وجود شعب في لبنان لاتزال مهزوزة الأمر الذى جعل البعض يشك في أن للبنان ولشعبه هوية وطنية . والحق أن التركيب الاجتماعى لسكان لبنان وتطوره السياسي هو الذى يمكن أن يفسر هذه الظاهرة ، فضلا عن ان هذا التركيب الاجتماعى يلعب أهم الادوار الموجهة لتاريخ لبنان الحديث والمعاصر . فسكانه ينتمون الى الأديان الثلاثة وان قل تعداد اليهود كثيرا في الفترة الاخيرة عن ذى قبل والمسلمون قبه سنة وشيعة ، والمسيحيون موارنة وروم ارثوذكس أما الدروز فهم من اصول اسلامية ينظرون الى أنفسهم في بعض الأحيان وكأنهم انفصلوا عن المنطلق الاسلامى وفى احيان أخرى وقد ارتبطوا به .

ومن الظواهر شبه المستمرة في تاريخ لبنان الحديث الانقسام الى الكتلتين أو أكثر متنافسة متصارعة يكاد يكون سمة أهل الجبل . ففى مطلعة كانت القيسية في مواجهة اليمنية ، فلما قضى على الأخيرة في مطلع القرن الثامن عشر ظهر انقسام جديد : اليزبكية في مواجهة الجنبلاطية ، ولما تمت الطائفة تواجه الدروز والموارنة ، أخذ المسلمون السنة جانب الدروز ، فتحولت المواجهة الى مسلمين ضد مسيحيين ، وعندما دخلت الايديولوجيات المعاصرة لبنان نجده يتوزع الى يسار (اسلامى درزى) في مواجهة عن (مسيحى مارونى) . ورغم عدم اقتناعنا بهذا التقسيم الأخير فأننا نورده لأنه أصبح شائعا في الأخبار المتوترة عن لبنان منذ الستينيات من القرن العشرين .

وربما يجوز لنا القول بأن السمة الثانية الرئيسية في التاريخ الحديث والمعاصر للبنانين هى أنهم اتفقوا على الا يتفقوا وعلى ألا ينصهروا في بوتقة واحدة ، ولكن هناك سمة ثالثة تجمع اللبنانين كافة وهى تفوقهم الواضح في المجالات التجارية والسياحية وفى هجرتهم الى بلاد بعيدة عندما تعوزهم المادة في الوطن .

ومنذ مطلع التاريخ الحديث وحتى وقتنا هذا ، كانت هناك أسرات متنفذه ذات ثقل سياسى واجتماعى ملحوظ فكثرة من الزعامات الحالية في لبنان تضرب بجذورها الى مطلع التاريخ الحديث بل وقبل ذلك ، ومن بين الاسرات العريقة آل جنبلاط ، آل حمادة ، آل كرامى ، الأحدب ، فرنجية ، شهاب ، أرسلان الى غير ذلك من الأسرات المتنفذه .

كانت السيادة للمسلمين سنة أو دروز أو شيعة على الموارنة حتى انتشرت الحضارة الغربية بين الموارنة فارتفع مستواهم الثقافى ، ونمت ثرواتهم وتزايدت أعدادهم حتى أصبح معظم الجبل الشمالى مارونيا صرفا . فى القرن التاسع عشر سعى الموارنة الى أن يكون لهم حكومتهم الخالصة ولذلك دخلوا مع الدروز - سادة الأمس - فى صراع مرير طويل امتد من أعقاب خروج المصريين من الشام عام ١٨٤٠ حتى وقوع ما عرف باسم حوادث (مذابح) عام ١٨٦٠ ، ولم يوضع حد لتلك المذابح الا بعد تدخل الدول الكبرى وخاصة فرنسا وفرض نظام المتصرفية على البلاد (١٨٦١) كما سبق أن أوضحنا .

لقد كان المحور الأساسى لنظام المتصرفة هو أن تكون اليد العليا للموارنة بصفة خاصة وللمسيحيين بصفة عامة فى توجية أمور البلاد ، وأنشىء مجلس ادارة للجبل (جبل لبنان) أن التمثيل فيه طائفيا . ومع ذلك لم يكن هذا مرضيا للموارنة حيث ظهرت دعوة قوية - على يد يوسف كرم - ذات طابع صليبى تهدف اقامة دولة مسيحية مارونية صرفة فى لبنان . وزادات التيارات الطائفية المارونية حدة وقوة مع نمو الحركة القومية العربية التى اعتبرها الموارنة حركة اسلامية تهدد المسيحيين بالضياع فى المحيط الأسلامى الكبير .

فلا غرو أن وقف المسلمون العرب ضد الانتدابات الأجنبية بينما رحب الموارنة بالانتداب الفرنسى على لبنان . ولما أثبيت فرنسا أقدامها كدولة منتدبة فى أعقاب الحرب العالمية الأولى اتخذت الموارنة سندا وأنشأت ما عرف باسم لبنان الكبير باقتطاع اجراء من سوريا ضمتها الى (الجبل) وبينما كانت سوريا تبذل الجهد من أجل تحرير نفسها من الانتداب الموارنة لا يتحركون فى اتجاه مماثل وانما كان المسلمون فى لبنان هم الذين يحاولون مقاومة الانتداب الفرنسى والتفوق المارونى .

المفروض .

الميثاق الوطنـــى :

الا أن الحرب العالمية الثانية أدت الى تطورات رئيسية فى لبنان فقد تدهورت بشدة هيبة فرنسا فى الشرق بسبب هزيمتها السريعة أمام ألمانيا عام ١٩٤٠ م . ولما قررت الحكومة البريطانية السيطرة على سوريا ولبنان - وكانتا تحت ادارة حكومة "فيشى" الفرنسية المتهادنة مع ألمانيا والمعادية لبريطانيا - لقيت استجابة واسعة من أهالى لبنان خاصة وأن بريطانيا أعلنت نيتها بوضوح على العمل من أجل استقلال لبنان ، بينما كانت تصريحات ديجول - زعيم المقاومة الفرنسية للألمان وحكومة فرنسا الحرة - لاتدل صراحة على أن فرنسا ستدع سوريا ولبنان لتحديد مصيرهما بأنفسهما . ولقد تبين ذلك بوضوح عندما اصطدمت الحركة الوطنية فى كل من سوريا ولبنان بالفرنسيين الذين عادوا الى البلاد مع القوات البريطانية . وأقدمت السلطات الفرنسية على اجراء عنيف ضد الزعامات الوطنية وقبضت عليهم ولكن بريطانيا كانت حاسمة فأرغمت الفرنسيين على اطلاق سراح الوطنيين والكف عن استخدام القوة ، وفعلا هدأت الأمور وأعطى للزعماء اللبنانيين الفرصة للاتفاق على نوع الحكم الوطنى الذى يرتضونه فتوصل بشارة الخورى (الزعيم المارونى) مع رياض الصلح (الزعيم السنى) الى ما عرف باسم (الميثاق الوطنى) عام ١٩٩٤٣ م .

وفلسفة هذا الميثاق الوطنى هى :

١) أن يتخلى الموارنة عن الأرتباط بالغرب الأوربى فى مقابل أن يتخلى المسلمون عن الارتباط بسوريا .

٢) توزيع المناصب العليا بين الطوائف .

٣) توزيع مقاعد مجلس البرلمان طائفيا وكذلك توزيع الحقائب الوزارية .

وأصبح من المتفق عليه أن يكون رئيس الجمهورية مارونيا ورئيس الوزراء سنيا ورئيس مجلس النواب شيعيا .

وكما أشرنا من قبل عند الحديث عن استقلال سوريا ، لم ترضخ فرنسا اذ عزم ديجول - رئيس الجمهورية الفرنسية - على أن يحتفظ بوجود قوى فرنسى فى لبنان واستخدام الفرنسيون القوة ضد لبنان ولكن بريطانيا أجبرت الفرنسيين على قبول الجلاء عن لبنان فى عام ١٩٤٦ م فتمتع باستقلال تام منذ ذلك الوقت .

عروبة لبنـــان :

واجه لبنان ـ مثل سوريا ـ وهو لايزال فى سنوات استقلاله الأولى قيام الدولة الصهويية فى ١٩٤٨ وماصاحبه من صراع بين العرب والصهوينية فى فلسطين ، ونظرا لأن لبنان ـ مثل سوريا ـ كانت عضوا فى جامعة الدول العربية فقد أعلن قبول قرارها الخاص بتوطيد الأمن فى فلسطين . ولكن لبنان لم يقدم جهدا عسكريا يذكر فى المواجهة العربية ـ الأسرائيلية الأولى (٤٨ / ١٩٤٩) وكل ما حدث من عمليات عسكرية كان محددوا للغاية ولكن قبلت الجمهورية اللبنانية أعداد كبيرة من اللاجئين الفلسطينين دون أن يتوقع اللبنانيون ـ وخاصة الموارنة ـ التطورات التى قد تحدث من بعد . وانما تشدقوا بأنهم قدموا مظلة حماية لعدة مئات من الأولوف للفلسطينين فى نفس الوقت الذى عاش فيه هؤلاء الفالسطينيون مجرد لاجئين ، وفى هذا لم يختلف الوضع فى لبنان عنه فى أى بلد عربى آخر قبل اللاجئين الفلسطينيين ولكن حسب المتواتر بين الفلسطينيين أن معاملة اللبنانيين ـ وخاصة الموارنة ـ لهم كانت غير مقبولة .

نشطت الحياة السياسية فى لبنان بعد الاستقلال ، ولكنها كانت حزبية طائفية ففى الجانب المسيحى ظهر الى جانب حزب الكتائب المارونى حزب مارونى آخر بزعامة كميل شمعون هو حزب الأحرار وبالأضافة الى حزب النجادة الاسلامى (السينى) ظهر الحزب التقدمى الاشتراكى بزعامة كمال جنبلاط الدرزى ، وقام نوع من التكتلات السياسية التى حرصت على أن يكون لها مرشح مارونى لرئاسة الجمهورية وآخر سنى لرئاسة الوزراء وثالث شيعى لرئاسة مجلس النواب .

ويلاحظ أنه بينما كان العرب فى مواجهة مصيرية مع الصهيونية (١٩٤٨) طالب أحد كبار رجال الدين فى لبنان (المطران مبارك) باقامة وطن قومى مارونى . ولكن وجه لبنان العربى كان مستقرا ـ رغم ذلك ـ بفضل التعاون بين رئيس الجمهورية بشارة الخورى ورياض الصلح . الا أن هذا الاستقرار أخذ يهتز لعدة تطورات رئيسية :

١ ـ اغتيال رياض الصلح فى يوليو ١٩٥١ م .

٢ ـ نجاح التحالف بين كمال جنبلاط وكميل شمعون فى اخراج بشارة الخورى من رئاسة الجمهورية (سبتمبر ١٩٥٢) بتهمة الفساد حتى لقد قيل أنه نوعا من (الثورة) ـ مثلما وقعت ثورة يوليو ١٩٥٢ فى مصر ـ وقعت فى لبنان فتخلصت من النظام الفاسد . وتولى كميل شمعون الرئاسة فى ١٩٥٢ واستمر فى الرئاسة لفترتين متتاليتين من ٥٢ ـ ١٩٥٨ .

٣ ـ دخول منطقة الشرق الأوسط ـ بعد ثورة يوليو ١٩٥٢ ـ فى دائرة التنافس بين الكتلتين ووصلت الأزمة الى مرحلة خطيرة بوقوع العدوان الثلاثى على مصر ١٩٥٦ م .

كان كميل شمعون أكثر تعصبا لمارونيته من سلفه بشارة الخورى ، وكان كذلك أكثر اتجاها نحو الغرب ويدل على ذلك تقليص عدد نواب البرلمان وحله واجراء انتخابات استخدمت فيها أساليب متعددة لأسقاط خصومة كما يدل على ذلك موقفه ـ أى شمعون ـ من العدوان الثلاثى على مصر وما أعقبه من سياسة أمريكية استهدفت الحلول محل فرنسا وبريطانيا فى المشرق العربى بعد أن فقدتا سمعتهما بشكل شديد بسبب عدوانهما بالتحالف مع اسرائيل على مصر . فبينما رفضت الدول العربية مبدأ أيزنهاور المعروف (بملء الفراغ) ـ الناشىء عن خروج كل من فرنسا وبريطانيا من المشرق العربى ـ قبل شمعون هذا المبدأ . وفى وقت كان فيه تيار القومية العربية بزعامة مصر الثورة يتصاعد بسرعة كان شمعون يمعن فى معارضة هذا التيار وفى الاقتراب من الغرب رغم التيار الاسلامى القومى المؤيد لحركة القومية العربية .

وتطورت الأمور فى عام ١٩٥٨ تطورا سريعا للغاية بشكل أثر تأثيرا مباشرا وقويا على لبنان ، فقد أدى اعلان الوحدة بين مصر وسوريا الى تأجج مشاعر المسلمين فى لبنان ضد شمعون ، وزاد من تحرك المسلمين هناك ماتردد من اشاعات قوية أن شمعون يسعى الى تجديد رئاسته للجمهورية للمرة الثالثة مخالف بذلك الدستور اللبنانى ، وتوترت الامور بمقتل الصحفى (المتنى) المعارض لشمعون ، وتصاعدت الى قتال بين المسلمين وقوات الحكومة ، ودعمت الجمهورية العربية المتحدة الثورة الاسلامية العربية بينما دعمت العراق والأردن كميل شمعون الذى كان يستند داخليا ليس فقط الى قوات الحكومة بل وكذلك الى حزب الكتائب بزعامة بيير الجميل ، وظلت المشكلة لبنانية عربية حتى وقعت ثورة يوليو ١٩٥٨ فى العراق .

وكان وقوع ثورة العراق ـ التى أثارت عاصفة من الترحيب فى مصر وسوريا (الجمهورية العربية المتحدة) وبين مسلمى لبنان ـ تعنى انقلابا خطيرا ـ من وجهة نظر الكتلة الغربية بزعامة الولايات المتحدة ـ فى موازين القوى لغير صالح الغرب ، ونظرا لأن هذا الانقلاب فى الموازين لايمكن أن يعالج ـ من وجهة نظر الغرب ـ الا بالحفاظ على أصدقاء الغرب المهددين بالسقوط فى فورة الفرحة العارمة بانتصار الثورة على الرجعية العربية الميول ، فقد لبت الولايات المتحدة وبريطانيا استنجاد لبنان شمعون والأردن فنزلت القوات الأمريكية فى الأولى وتحركت لدعمها كتائب الجميل ونزلت القوات البريطانية فى الأردن وأدى ذلك الى انتهاء الثورة بسرعة فى لبنان وتثبيت الملك حسين فى بلاده .

وحتى لاينظر اللبنانيون الى التدخل الأمريكى نظرة المحتلين أسرعوا الى فرض وجهة نظرهم السياسية التى تلبى مطلبا اسلاميا (ابعاد شمعون عن الرئاسة) وتبقى الوضع فى لبنان على ماهو عليه من الناحية الواقعية أى استمرار العمل بالميثاق الوطنى ، وهذا

ماحدث فعلا ، فقد أسندت رئاسة الجمهورية الى فؤاد شهاب (المارونى) - قائد الجيش اللبنانى - ، وظلت رئاسة الوزارة لزعيم اسلامى سنى ورئاسة مجلس النواب لزعيم شيعى وتميزت فترة رئاسة فؤاد شهاب بقوة قبضة (المكتب الثانى) - وهو أشبه بجهازبوليسى يحمى النظام - على الأجهزة الحكومية وبثراء متصاعد للبنانيين وانتقال لبنان الى ذروة النشاط الاقتصادى والمالى وتدفق الاموال عليه ونمو البنوك الوطنية والأجنبية لما كان يتمتع به لبنان من حرية اقتصادية لاتتوفر فى البلاد العربية ذات النظم الثورية (العراق - سوريا - مصر) ولا فى البلاد العربية التقليدية لضعف فى الخبرة وتخلف فى الأجهزة الملائمة لمواجهة اقتصاديات العصر .

واصبح لبنان فى الجزء الأول من حكم شارل حلو - الذى تولى الرئاسة من ٦٤ - ١٩٧٠ م - فى عصره الذهبى اقتصاديا واجتماعيا وفكريا وصحفيا . ولكن هذه الفترة حملت بين طياتها الأخطار الكبرى التى تعرض له لبنان فى أواخر عهد شارل حلو ومن بعده .

الفلسطينيون :

ففى ١٩٦٦ وقع افلاس أحد البنوك الكبيرة فى بيروت (بنك انترا) ، وفى ١٩٦٧ وقعت النكسة وتحول الفلسطينيون الى قوة ضاربة منطلقة من لبنان وقصف اسرائيل لمطار بيروت عام ١٩٦٨ م الذى كان بداية العمليات المتبادلة الواسعة بين الفلسطينين من لبنان واسرائيل .

ومع أن أحداث أيلول الأسود (سبتمبر ١٩٧٠) فى الأردن أنهى الانطلاقة الفلسطينية من الأردن ، فانها ظلت ممارسة من لبنان الأمر الذى جعل للبنان دور حساس للغاية فى المواجهة العربية الأسرائيلية خلال الفترة الواقعة بين النكسة وحرب رمضان (١٩٦٧ - ١٩٧٣) وما بعدها . وبذلك يكون وضع لبنان الداخلى والخارجى قد تطور تطورا خطيرا لم يسبق له مثيل .

ونظرا لأن الموازنة كانوا يدركون أن تحول الفلسطنيين الى قوة ضاربة من لبنان ضد مصالحهم (المارونية) و(الاقتصادية) فقد عمل سليمان فرنجية الذى خلف شارل حلو فى الرئاسة (١٩٧٠ - ١٩٧٦) أن ينظم أيلولا أسود فى لبنان للفلسطينيين يقضى على قدراتهم العسكرية ويعيدهم الى مجرد لاجئين تحت عطف ورعاية الحكومة . وهذا يفسر لنا دخول الجيش اللبنانى المعركة ضد الفلسطينيين منذ مايو ١٩٧٣ .

حقيقة أن تقديرات سليمان فرنجية لم تكن صائبة ، فقد تحول الفلسطينيون فعلا فى لبنان الى حكومة داخل الدولة يدعمها المسلمون ، وأصبح فى الجامعة العربية وصبرا وبصفة عامة ببيروت الغربية والمخيمات العديدة المنتشرة فى لبنان معاقل فلسطينية لا يد

للحكومة فيها . وزاد الوجود الفلسطينى قوة بعد حرب ١٩٧٣ التى لم يشاركوا فيها مشاركة فعالة ولكن ظهر عامل جديد وجوهرى فى السنتين التاليتين للحرب فقد وضح جليا أن تسوية سلمية مع اسرائيل لن تؤدى الى عودة الفلسطينين اللاجئين فى البلاد العربية الى فلسطين فى الوقت القريب ودعمت سوريا - رغم موافقتها على فك الاشتباك الأول (١٩٧٤) - الوجود الفلسطينى ، وأعلنت الزعامات المارونية أنها لن تقبل مثل هذا الوجود وأخذت الجبهة الاسلامية جانب الفلسطينيين ، وتدفق السلاح على الجانبين ، وأصبحت المواجهة تنتظر الشرارة فانطلقت من حادثين أحداهما كمين ماروفى أودى بحياة عدد من الفلسطينيين ، ومصرع زعيم اسلامى فى صيدا وانفجر ما عرف بالحرب الأهلية اللبنانية منذ ١٩٧٥ والتى لم تهدأ نهائيا حتى الآن .

الحرب الأهلية :

كانت المعارك الأولى لصالح الموارنة وتعرض الفلسطينيون واللبنانيون المسلمون لضربات شديدة ولكن لم يلبث أن تدفق السلاح على الجبهة الاسلامية واستطاعات أن توقف التفوق المارونى . وخلال هذه الصراعات اتجهت البلاد العربية الى انشاء قوة ردع عربية استهدفت السيطرة على الأمور واعطاء الفرصة للبنانيين كى يعيدوا بناء حكومتهم الموحدة . وفعلا تشكلت قوة ردع عربية شارك فيها بعض الدول العربية ولكنها كانت أساسا مشكلة من القوات السورية ، وخلال عمل هذه القوات السورية فى لبنان شكا الموارنة والفلسطينيون من أن هذه القوات السورية توجه الضربات ليس بقصد السيطرة على وقف اطلاق النار ولكن بهدف أن تكون لسوريا الكلمة العليا فى لبنان وهذا ما كانت تعارضه الجبهة المسيحية ، وأيضا بهدف أن يكون القرار الفلسطينى من منطلق السياسة السورية ، وهذا ما رفضه الفلسطينيون .

ونظرا لأن مصر اتجهت فى عهد الرئيس السادات الى التوصل الى تسوية سلمية للصراع العربى الاسرائيلى ، ورفض معظم الدول العربية مشاركته فى هذا الاتجاه ، فقد عقد اتفاقيتى كامب ديفيد عام ١٩٧٨ م ، ثم معاهدة مع اسرائيل عام ١٩٧٩ م فأصبح أمام الفلسطينين أن يصعدوا من عملياتهم العسكرية ضد اسرائيل كما أصبحت اسرائيل أكثر حرية فى ضرب الفلسطينيين فى لبنان ولذلك اتخذت الهجمات الأسرائيلية على جنوب لبنان شكل الأحتياجات التى بلغت ذروتها فيما عرف باسم (أمن الجليل) اذ زحفت القوات الأسرائيلية بسرعة فى وجه مقاومة فلسطين ضعيفة حتى دخلت لأجزاء من بيروت وحاصرت القوات الفلسطينية فى القطاع الغربى من العاصمة اللبنانية وظلت تواصل القصف حتى أرغمت المقاتلين الفلسطينيين فى بيروت على مغادرتها عام ١٩٨٢ .

ولاتكاد تمر فترة قليلة حتى وقعت مذابح صبرا وشاتيلا وحتى رفع الفلسطينيون المنشقون على أنفسهم السلاح ضد بعضهم البعض حتى أرغمت القوات الفلسطينية الموالية لسوريا من طرد الفلسطينيين أتباع ياسر عرفات من طرابلس . فكان هذا الانشقاق أسوأ تصدع فى الجبهة الفلسطينية المقاتلة .

وفى اعقاب ذلك حدث تحول فى موازين القوى القتالية ، فمع اختفاء الدور العسكرى الفلسطينى الى حد كبير أظهر بقوة الدور العسكرى للتحالف الدرزى - الشيعى ، ووسط دهشة الجميع استطاع هذا التحالف أن يصمد أمام القصف الجوى والبحرى لأساطيل دول القوات المتعددة الجنسيات بل وأن ينزل الضربات الموجعة بالموازنة حتى لقد اضطر رئيس الجمهورية أمين الجميل أن يقدم تنازلات كان من غير المتوقع أن يقدم عليها .

فبعد مفاوضات قصيرة عقد أمين الجميل - رئيس الجمهورية اتفاقية مع اسرائيل فى ١٧ مايو ١٩٨٣ بهدف ضمان انسحاب القوات الاسرائيلية من الأراضى اللبنانية . ولكن انتصارات القوات الدرزية الشيعية وانسحاب القوات المتعددة الجنسيات أرغمت أمين الجميل على الغاء تلك الاتفاقية من جانب واحد وهو الأجراء الذى مهد فعلا لعقد مباحثات بين زعامات لبنان المختلفة للتوصل الى تسوية بين المتصارعين اللبنانيين .

وقد أثمرت تلك المباحثات اتفاقا حول اقامة حكومة مقبولة من معظم الأطراف المتنازعة برئاسة رشيد كرامى ودخل فى الوزارة معظم الجبهات المتصارعة ولكن لايزال أمام هذه الحكومة طريق شاق للوصول الى نهاية حقيقية للصراع فى لبنان .

ويجدر بنا فى ختام هذه الدراسة للحرب الاهلية اللبنانية أن نطرح سؤالا يتردد بكثرة فى الدوائر العربية والعالمية وهو : ماهى الأسباب التى أدت الى طول هذه الحرب الأهلية (٧٥ - ١٩٨٤) دون امكانية التوصل الى تسوية بين الفرقاء المختلفين ؟

وبادىء ذى بدء نقول ان هذه ليست المرة الأولى التى يتعرض فيه لبنان لحرب أهلية طويلة الأمد . فبعد انسحاب المصريين من الشام فى ١٨٤٠ وقعت حرب أهلية بدأت محدودة فى ١٨٤١ وأخذت تتسع وتتصاعد حتى تحولت الى مذابح بين المسلمين والمسيحين فى ١٨٦٠ م وأدت هذه الحرب الأهلية الى تدخل الدول الكبرى - الأوربية لصالح الموازنة وظهور نظام (المتصرفين) - وهو نظام ضمنته الدول الكبرى - وأخطر ما فى هذا النظام أنه عمق المفهوم الطائفى فى لبنان ووضع الموارنة فى مكانة أعلى من المسلمين حتى لقد أخذ هؤلاء فى أكثر من مرة يرددون أنهم يعاملون كمواطنين من الدرجة الثانية .

وبفرض الانتداب الفرنسى على لبنان سار لبنان أكثر وأكثر فى الاتجاه الطائفى الذى يعطى للموارنة اليد العليا - بعد الفرنسيين - ولم يستطع المسلمون فيلبنان خلال فترة الانتداب من التحرك الثورى - الا فى نطاق محدود جدا - حتى دخلت القوات الانجليزية لبنان خلال الحرب العالمية الثانية وأمكن التوصل الى ما عرف بالميثاق الوطنى الذى عمق كذلك الطائفية وأعطى معظم المراكز القيادية للموارنة . ولم تحدث هزات داخلية قوية الا بعد نمو المد الثورى العروبى فى عام ١٩٥٦ ، وأصبح لبنان هدفا للحركة الوحدوية العربية وأصبح مسلمو لبنان متعلقين بها على أمل التخلص من اليد العليا المارونية ، بينما اتخذت الزعامات المارونية موقفا مناهضا للحركة القومية العربية ، وتطورت الأمور الى ان تحول لبنان - فى اعقاب اعلان الوحدة المصرية السورية الى ساحة تتصارع فيها القوى المتنافسة ولكن التدخل الامريكى وضع حدا للصراع وفضلت الاطراف المتنازعة تسوية الخلافات على أساس لاغالب ولامغلوب أو بمعنى آخر العودة الى ما كان عليه الوضع قبل الثورة اللبنانية .

ومنذ أواخر الخمسينيات وخلال الستينيات أحرز لبنان ثراء وتقدما حضاريا على الطريقة الغربية جعله فى نظر اهله نموذجا لقيمة التعايش بين الطوائف المختلفة القادرة بالتعاون فيما بينها على أن تصل الى مستوى حضارى عالى المستوى . وكان لبنان خلال هذه الفترة يتميز بنوع من الحكم الطائفى البرلمانى الذى أعطى مجالا واسعا لحرية الكلمة والفكر وأصبح ملجأ للمضطهدين السياسيين فى البلاد العربية وفوق هذا وذاك أصبح لبنان فى نظر الدول الغربية أكثر الدول العربية استقرارا وتقدما وجديرا بأن تدعمه وأن تتعامل معه وأن تفضله ولكن هذا الثراء وذلك التقدم الحضارى الكبير كان يخفى تحته أساسا واهيا للاستمرارية الرصينة للدولة . فأن النظام البرلمانى الطائفى يمكن ان يقدم (مظهرا) للديمقراطية ولكن لايمكن أن يقدم ديمقراطية حقيقية ، ومن ثم كان الثراء غطاء لهذا الأساس الهش ومن ثم كان بناء الدولة معرضا للانهيار اذا ما حدثت هزة قوية فقد وصف هذا النظام البرلمانى اللبنانى بأنه (الديمقراطية المتفق عليها) ومن ثم فهى ديمقراطية - اذا جاز لنا أن نستخدم هذا التعبير هنا - تنتهى وتنهار فى حالة انهيار ذلك الاتفاق بين الطوائف ، وتتوزع البلاد فى هذه الحالة الى طوائف لاتقيم للحكومة - وربما لمفهوم الدولة - الوزن اللازم لبقائها . وهذا فعلا ما حدث عندما تطورت الأمور الى حرب أهلية اذ أصبح الولاء للطائفة وليس للدولة . وتلك هى عاقبة اتخاذ مثل هذا المفهوم الطائفى لبناء دولة متعددة الطوائف متمايزة فيما بينها .

ومن ثم كان بناء الدولة اللبنانية هشا ، وكان زعماء لبنان يدركون ذلك ، وكانوا يعملون على الحفاظ على التوازن الداخلى والخارجى بقدر الاستطاعة ، وهى استطاعة محدودة فى مجتمع طائفى ، ونجحوا فعلا لفترة حتى اختل التوازن الاقتصادى بين

الطوائف واختل التوازن السياسى بينها ، وتعددت القوى اللبنانية التابعة للدول العربية ، وتعددت التدخلات الأجنبية فى البلاد فاختلط الأمر واتسع الخرق وتعددت التيارات وأصبح لبنان وكأنه مجموعات من الوحدات المتنافرة وأرضا يمكن أن ينزلها من يشاء وأن يحصل على جماعة فيه تعمل باسمة .

وتعتبر الفوارق الاقتصادية بين الطوائف من اهم العوامل الداخلية التى أدت الى طول أمد هذه الحرب الأهلية اللبنانية . وهناك عدة عوامل أدت الى تعميق هذه الفوارق الاقتصادية :

كان الموارنة اكثر افادة من التعليم الحديث على الطريقة الاوربية ، وكانوا اكثر قبولا لدى هذه الدول ولدى الولايات المتحدة . وكان الموارنة على اختلاف بيئاتهم على نشاط جم فى المجالات الاقتصادية الحديثة وخاصة تلك التى تحتاج الى رؤوس أموال كبيرة . فكان ان اصبح ثراء الطائفة المارونية مضرب الأمثال . وتدفقت الأموال على مناطقهم المزدهرة بالقياس الى

الجنوب اللبنانى الذي حولته اسرائيل - تحت ستار ضرب القواعد الفدائية الفلسطينية - الى أرض محروقة . وكان الجنوب اللبنانى - وهو الذى يضم أعداد كبيرة من الطائفية الشيعية - فقيرا منذ البداية سواء من الناحية الاقتصادية أو الحضارة . وفرت أعداد كبيرة من أهل الجنوب الى المدن الكبرى وخاصة بيروت فأصبحوا عامل قلق فيها سيسهم فى اضطراب الأمور فيما بعد .

وأما الفلسطينيون فكانوا يعيشون فى المخيمات وبعضهم أفاد من الازدهار الاقتصادى اللبنانى ، ومن الانفتاح الاقتصادى اللبنانى وكثرة منهم حصلوا على ثروات ضخمة ، ولكن ظل الفلسطينى لاجئا ويشعر بسوء المعاملة خاصة من الموارنة ويتفق مع مسلمى لبنان أن الطائفية المارونية تريد أن تجعل لبنان لها فقط والباقى فى خدمة هذه الطائفة

أما العوامل الرئيسية التى أدت الى طول الحرب الأهلية اللبنانية فهى

١ - التحاقد بين الطوائف .
٢ - نمو الفوارق الاقتصادية بين الطوائف .
٣ - تفكك كافة الجبهات الكبرى على الساحة اللبنانية
- انهيار الجيش بتوزيع رجاله على الطوائف .
- الميليشيات المتعددة أصبحت أقوى من الجيش .
- الانقسامات فى الجبهات المتقاتلة وتصارعها فيما بينها .
- تركيز اسرائيل على ضرب المراكز الأسلامية .

تعويض ما فقدته فرنسا أثناء حروب الثورة ونابليون وفى معاهدة باريس عام ١٨١٥ م وهى معظم أجزاء امبراطوريتها الأولى التى تنازلت لانجلترا عن معظمها (١) إلى جانب استمرار الخلاف بين دايات الجزائر ومعظم الدول الأوربية وخاصة إنجلترا وفرنسا حول قضيتى الجهاد البحرى والرق . فالدول الأوربية تضغط من أجل أن يصدر إعلان رسمى فى الجزائر بالغاء الرق ، ومن أجل أن توقف الجزائر عمليات الجهاد البحرى ، ولكن دايات الجزائر تمسكوا بموقفهم بامتلاك الرقيق وممارسة عمليات جهاد بحرى فى البحر المتوسط ولم ترهبهم تهديدات الأساطيل الحربية الانجليزية وغيرها ، بل زاد الدايات من عدائهم لرعايا انجلترا وغيرها من الدول الحليفة لها كأسبانيا والبرتغال .

وكانت العلاقات بين الجزائر وفرنسا قبل عام ١٨٢٦ لايشوبها الجو العدائى الذى كان بين الجزائر وانجلترا . وكانت الجزائر تتزعم الجناح الاسلامى فى شمال أفريقيا وفرنسا تتزعم الجناح المسيحى الكاثوليكى فى أوربا ، والصدام قائم ومستمر بين الجناحين فى البحر المتوسط كنوع من الحروب الصليبية . وكانت ذكرى فرنسا النابليونية المعادية لأوربا قد أخذت تنمحى بالتدريج ، فلما جاء دورها لتسوى مشاكلها بطريقتها مع الجزائر لم تصطدم بمعارضة فعالة (٢) من دول أوربا ، هذا على الرغم من أن الرأى العام الفرنسى كان معاديا للتوسع الاستعمارى لأنه كان يرى فيه بعثرة لجهود الأمة التى يجب أن تتركز لمحو العار الذى لحقها بسبب الهزيمة فى أوربا .

ومهما قيل عن أسباب الغزو الفرنسى للجزائر الذى بدأ بحصار بحرى منذ مايو ١٨٢٧ م فان حدوثه بصورة تدريجية لم يثر معارضة أوربية أمام انفراد فرنسا به ، وقد تذرعت فرنسا بعدة أعذار لتوهم الرأى العام الأوربى والحكومات الأوربية بأنها تدافع عن قضية أوربية بقضائها على تهديدات الجزائر للأوربيين ومعاداتها للمسيحيين ، واستمرار الرق فى أراضيها . وغير ذلك مما يمكن أن يخفف من تأثير انفراد فرنسا بالغزو ويقنع الفرنسيين أنفسهم بأن حكومتهم تدافع عن العدالة والحرية والمسيحية .

---

(١) د . صلاح العقاد : تطور السياسة الفرنسية فى الجزائر ص ٣ .
(٢) د . صلاح العقاد : المغرب العربى ص ٨٥ .

ولقد كان للعامل الدينى أثره القوى فى احتلال فرنسا للجزائر ، فبعد ما عرف عن حادثة صفع الداى للقنصل الفرنسى فى الجزائر (١) . ذكر تقرير قدمه وزير الحربية الفرنسية للملك شارل العاشر قوله : لقد أرادت العناية الألهية أن تستثار جلالتكم بشدة فى شخص قنصلكم بواسطة ألد أعداء المسيحية ، ولعله لم يكن من باب الصدفه أن يدعى ابن لويس التقى لكى ينتقم للدين وللأنسانية ولأهانته الشخصية فى نفس الوقت ، ولعل الزمن يسعدنا بأن ننتهز الفرصة لننشر المدنية بين السكان الأصليين وننصرهم . بل أنه عند احتلال الجزائر أقيمت صلوات قال فيها قسيس الجيش لقائد الحملة : لقد فتحت بابا للمسيحية فى أفريقية (٢) .

لقد استغرق قرار غزو الجزائر حوالى ثلاثة سنوات ، فرغم أن الحكومة الفرنسية قررت ضرب حصار بحرى على الجزائر منذ صيف عام ١٨٢٧ م ، فانها ترددت فى اتخاذ القرار ومرجع ترددها إلى تخبط الحكم الفرنسى حول الطريقة والهدف من عملية الغزو للجزائر وهل تكتفى بالحصار لتأديب الداى أو تحتل الجزائر وتدخل فى صراع مع الجزائريين لاتعرف له نهاية ، كما أن الاحتلال سوف يزيد من النفقات العسكرية ، حتى ولو كان الاحتلال قاصرا على الشريط الساحلى ، وهو أمر ـ الاحتلال والنفقات ـ يلاقى معارضة كبيرة فى البرلمان الفرنسى .

وفى عام ١٨٢٩ م عرضت فرنسا كحل لترددها أن يقوم "محمد على" باشا مصر

وحليفها القوى فى الشرق باحتلال الجزائر ويضمها إلى ملكه فى الشرق على أن يكون لحليفته ـ فرنسا ـ امتيازات واسعة فى الجزائر ، إلا أن العرض لم يكن مغريا لمحمد على فى الوقت الذى كان أسطوله القديم قد تحطم فى معركة نوارين عام ١٨٢٧ م ، ويعمل على بناء أسطول آخر لم يكتمل آنذاك ، إلى جانب معارضة كل من انجلترا والسلطان العثمانى للعرض الفرنسى .

وعلى هذا اتخذت الحكومة الفرنسية التى تزعمها بولينياك قرارا باحتلال الجزائر ، وأعلن الملك شارل العاشر عن اعتزامه إنشاء مستعمرة هامة فى شمال أفريقيا تكون نواتها الجزائر وفى ١٤ يونية ١٨٣٠ م نزل الجيش الفرنسى المكون من حوالى ٣٥ ألف مقاتل إلى أرض الجزائر وأخذ يصطدم بالمقاومة التى يتزعمها الداى ، وقد دافع

---

(١) تذكر المصادر أن الداى سأل القنصل الفرنسى عن سبب عدم الرد على رسالته الموجهة لوزير الخارجية الفرنسية فلما رد عليه القنصل بجفاء أشار بمنشة كانت فى يده فى وجه القنصل الذى بالغ وصور لحكومته أنه ضرب أو صفع على وجهه ، رغم أن الداى أكد أن ذلك لم يحدث .

(٢) د . صلاح العقاد : تطور السياسة الفرنسية فى الجزائر ص ٤ ـ ٥

الجزائريون دفاعا قويا حصر الزحف الفرنسى فى شريط ساحلى لايشمل كل الشاطىء الجزائرى . ومرت ثلاث سنوات على الاحتلال الفرنسى دون أن يستطيع فرض سلطته على أكثر من بضع موانى ساحلية بينما أصبح الداخل فى يد بعض الزعماء الذين أعلن بعضهم ولاءهم لتركيا ورفضهم الاعتراف بأى سلطة للمسيحيين (١) . ومن بين هؤلاء الرافضين الأمير عبد القادر (٢) الذى اتخذ من غرب الجزائر مقرا لأمارته .

وخلال الأعوام من ١٨٣٠ م إلى ١٨٣٩ م قامت سياسة فرنسا فى الجزائر على فكرة الاحتلال المحدود المقتصر على الساحل دون الداخل ، وفى هذه الفترة اصطدمت قوات الاحتلال الفرنسى فى غرب الجزائر بالأمير عبد القادر ، وفى شرق الجزائر بأحمد باشا باى قسنطينة الذى أطلق عليه الناس آنذاك لقب بطل الأسلام ولعدم وجود تعاون بين القوتين استطاعت

قوات الاحتلال مصالحة عبد القادر ومهادنته ريثما يتم لها القضاء على أحمد باشا المتحصن فى قسنطينة .

تزعم عبد القادر النضال فى غرب الجزائر ضد قوات الاحتلال الفرنسية ، وقد انقسم هذا النضال إلى ثلاثة مراحل تنتهى كل منها بمعاهدة ، فالمرحلة الأولى تنتهى بعقد معاهدة بين الطرفين عام ١٨٣٤ م انصبت على الاعتراف بكل غرب الجزائر ما عدا ثلاث مدن ساحلية خاضعة للدولة العربية الجديدة ذات السيادة برئاسة عبد القادر . والمرحلة الثانية من النضال تستمر حتى عام ١٨٣٧ م حيث عقدت معاهدة "التافنا" ـ نسبة إلى نهر بهذا الاسم ـ التى اعترف فيها الفرنسيون لابسلطة عبد القادر فى غربى الجزائر فقط بل وفى أواسطها كذلك ، وتوضح هذه المعاهدة بدقة الحدود الفاصلة بين الدولتين فى وهران ـ دولة عبد القادر ـ وفى الجزائر حيث توجد سلطات الاحتلال الفرنسى ، ويلاحظ من صياغة المعاهدة أنها تتحدث عن المسلمين وفرنسيين ولا تذكر كلمة جزائريين ، فالقبائل التى تخضع للحكم الفرنسى كانت تعرف باسم القبائل

---

(١) زاهر رياض : المرجع السابق ص ١٨٦ .
(٢) ينتسب إلى قبيلة هاشم العربية النازلة فى إقليم وهران ، وكان لها استقلالها الداخلى أثناء الحكم العثمانى ، وكان عبد القادر ينتمى إلى الطريقة القادرية فى التصوف ذات النفوذ فى شمال أفريقيا ، وقد حج إلى مكة قبل الغزو الفرنسى للجزائر وزار بغداد فمصر حيث تركت إصلاحات محمد على تأثير كثيرا لدية كل هذا إلى جانب ثقافته الدينية والعربية مما جعله يتزعم القبائل ويسعى لبناء دولة فى الجزائر على نفس أسس الدولة المصرية باستخدام خبراء فرنسيين أيضا .

المعاصرة . كما تدل الصياغة على أن الامير عبد القادر يعامل ملك فرنسا على قدم المساواة كرئيس دولة وطنية أمام رئيس دولة أخرى (١) .

وأما المرحلة الثالثة من النضال فقد استمرت منذ عام ١٨٤٠ إلى عام ١٨٤٧ م ، وذلك عندما أخذت فرنسا تطبق فى الجزائر سياسة الاحتلال الشامل ، وكان صاحب هذه السياسة المارشال "سولت" رئيس الحكومة الفرنسية منذ سنة ١٨٤٠ م فاختار لتنفيذها الجنرال "بيجو" الذى قامت سياسته على أساس إخضاع الشعب الجزائرى بأسره لا عن طريق مواجهة عسكرية بين القوات الفرنسية وقوات عبد القادر ولكن باتباع أسلوب الأرهاب المتمثل فى إحراق الحقول واختطاف قطعان الأغنام - وهى رأس مال القبائل - إلى جانب إحراق القرى بأهلها ومعاقبة كل من له صلة بالأمير عبد القادر . كما عمل "بيجو" على مصادرة أراضى جميع القبائل التى شاركت فى المقاومة وتوزيعها على جنوده والمستوطنين الفرنسيين الذين تدفقوا على الجزائر

لزراعتها لمصلحتهم ومصلحة فرنسا .

وإزاء تحركات "بيجو" هذه بقواته فى أنحاء الجزائر دارت صدامات دموية بين قوات الاحتلال الفرنسى وعبد القادر انتهت عام ١٨٤٣ م بلجوء الأمير الى مراكش وبقى بها الى عام ١٨٤٥ م حيث تركها مرغما أمام ضربات الانتقام الفرنسية لمراكش ، وواصل النضال فى الجزائر لمدة عامين انتهت باستسلامه فى ديسمبر عام ١٨٤٧ م ونصح لأنصاره بأن يفعلوا مثله . وقد تم استسلام الأمير على أساس السماح له بالسفر إلى الاسكندرية فقبلت سلطات الاحتلال هذا الشرط واستقبلوه استقبالا يليق بخصم شريف . وباستسلامه انتهت المقاومة الجزائرية - المنظمة الرئيسية - وأصبحت البلاد خاضعة للحكم الفرنسى (١) .

ومما تجدر الأشارة إليه أن رجال القبائل البربر وزعماء الطرق الصوفية قد ظلوا غير معترفين بالاحتلال الفرنسى ، ومن ثم دارت معارك عنيفة بين القوات الفرنسية والمحاربين الجزائريين فى بلاد القبائل انتهت بأخضاع هذه البلاد عام ١٨٥٧ م مع ذلك فقد كانت تقوم بين الحين والآخر ثورات محلية لاتلبث أن تختفى أمام القوة الفرنسية من أمثلتها ثورة الشيخ محمد المقرانى عام ١٨٧١ م فى شرق الجزائر التى استغل صاحبها هزيمة فرنسا فى الحرب السبعينية ، وبدأت فى الموانى الشرقية حيث رفض بعض المجندين

الجزائرين ركوب السفن إلى ميدان القتال بأوربا فكانت الشرارة الأولى لاندلاع ثورة عامة تبلورت عندما وجدت زعيما لها فى شحص محمد المقرانى ومساعدة الشيخ حداد ـ من الطريقة الرحمانية ـ مما يدل على أن البواعث الدينية كانت ماتزال تلعب الدور الرئيسى (١) .

ورغم أن هذه الثورة نجحت فى أول الأمر إلا أن مساعدة بسمارك للحكومة الفرنسية باطلاق سراح الأسرى الفرنسيين وأرسالهم إلى الجزائر قد أنهى الثورة وأعاد إلى الجزائر السيطرة الفرنسية الكاملة ، رغم حدوث ثورة بعيدة فى الصحراء الجزائرية عام ١٨٨١ م (٢) انتهت كما حدث لسابقتها ، وفى تلك السنة صدر مرسوم بالحاق الجزائر إداريا بفرنسا ، وحكمت فرنسا الجزائر حكما استعماريا بمعنى الكلمة حيث استغل الجزائريون فى حروب فرنسا ومصانعها ومزارعها دون المشاركة فى الحكم حتى بدأت تظهر حركة وطنية جزائريه عمالية بعد الحرب العالمية الأولى .

الجزائر بين الحربين العالميتين :

اندلعت الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ وجندت فرنسا الجزائريين ضمن جيشها ، وأرسلت الآخرين للعمل فى المصانع الحربية والمناجم . وأتيح لبعض الضباط الجزائريين الرقى الى رتب عالية ، وقد علق هؤلاء الضباط الأمل على مؤتمر فرساى ، وتألف منهم وفد برئاسة الأمير خالد أحد أحفاد الأمير عبد القادر ، وسافر الى باريس لعرض القضية الجزائرية على مؤتمر الصلح مستندا الى مبادىء الرئيس ويلسون التى تعطى الشعوب حق تقرير مصيرها . ولكنه لم يجد قبولا فعاد الى الجزائر حيث ألف "كتلة النخبة من الجزائريين المسلمين" .

وبلورت الكتلة برنامجها فى الحصول على الحقوق الكاملة للجزائريين ومساواتهم بالفرنسيين بالأضافة الى اصلاح أحوال الجزائريين الاجتماعية ، وايقاف الهجرة الأجنبية . وقد أخرج خالد من الجزائر الى الاسكندرية وحين سقطت وزارة "بواتكريه" سنه ١٩٢٤ وتولت الحكم فى فرنسا وزارة يسارية سمحت له بالعودة الى فرنسا فأتيح له الاتصال بالوطنيين الجزائريين والمراكشيين فغرس فكرة العمل المشترك بين أجزاء المغرب ، وعند عودته عام ١٩٢٥ اتهمته السلطات الفرنسية بالتعاون مع الخطابى

---

(١) د . صلاح العقاد : المرجع السابق ص ٢٨ .

(٢) د . صلاح العقاد : الجزائر المعاصرة ص ٧ .

وتدخل البوليس الانجليزى وهجم على منزله ونفى الى سوريا حيث بقى بها حتى وفاته عام ١٩٣٦ .

وقد استمرت الحركة الوطنية بعد الامير خالد وانتقلت الى طور ملىء بالجدية تمثل فى تأسيس **"جمعية نجم شمال أفريقيا"**

وقد يبدو غريبا أن تنشأ أول حركة قومية جزائرية مناضلة على أرض فرنسا ذاتها ، ومرد ذلك الى أن العيش قد ضاق بكثير من الجزائريين فى بلادهم فراحوا يبحثون عن العمل فى مصانع فرنسا ومناجمها ، وتكونت طبقة عمالية فى مختلف المدن الفرنسية . وكان من بين هؤلاء المهاجرين شابا يدعى "مصالى الحاج" .

قام مصالى الحاج فى عام ١٩٢٥ / ١٩٢٦ بتأسيس هيئة النجمة لشمال أفريقيا بهدف الدفاع عن مصالح المسلمين فى الشمال الافريقى وأصبح فى عام ١٩٢٧ رئيسا لها . وأراد مصالى أن يجعل من النجمة حركة للشمال الأفريقى بأكملة فطالب باستقلال كافة أقطاره . وقد ضمت النجمة سنة ١٩٢٩ ألف عضو عززت دعايتها بواسطة المنشورات والجرائد والمحاضرات . وقد تم حلها فى عام ١٩٢٩ بحجة أنها دعت الاهالى الى الثورة ضد السيطرة الفرنسية ، وطالبت باستقلال بلدان شمال افريقيا .

وبالرغم من ذلك فقد استمرت الجمعية تعمل سرا ، وفى نفس الوقت تأسس حزب جديد باسم "النجم الثاقب" .

وفى عام ١٩٣٣ عادت النجمة الى الظهور من جديد وعقدت مؤتمراتها فى فرنسا . وقد تمكن مصالى وأنصاره من حمل المؤتمر على استصدار قرار يتضمن الاجراءات التى يجب اتخاذها قبل الاستقلال وبعده من حيث الغاء القوانين الاستثنائية والعفو عن جميع المسجونين وحرية التنقل والصحافة وفرض التعليم الألزامى باللغة العربية ، وأما القسم الثانى من القرارات فقد طالب بالاستقلال الكامل وسحب القوات الفرنسية من البلاد وتأليف جيش وطنى وقيام حكومة ثورية وطنية .

وبعد بضع سنوات من الدعاية السرية استعاد حزب نجم شمال أفريقيا نشاطه العلنى عام ١٩٣٤ بقيادة مصالى الحاج ، ولكن تم اعتقاله مع بعض زملائه ، ولكن منذ شهر فبراير تكونت من جديد تحت اسم "الاتحاد القومى لمسلمى شمال أفريقيا" .

وبعد اطلاق سراح مصالى استأنف نشاطه الا أنه تم حل النجم فى ٢٦ يناير عام ١٩٣٧ . كذلك ينبغى أن نشير الى "جمعية علماء المسلمين" التى تأسست تحت رئاسة الشيخ عبد الحميد بن باديس . وقد عمل - عن طريق مجلته الشهرية "الشهاب" وجريدته الأسبوعية "البصائر" على انتهاج سبل التجديد والوقوف فى وجه رجال

الصوفية محاربا الخرافات ومصفيا الاسلام مما علق به من شوائب ، ومعاداة الاستعمار . وقد ضمت الجمعية اثنين وسبعين عالما جزائريا .

وعلى الرغم من أن الحركة كانت تتدرج فى اطار الاصلاح الاسلامى سواء فى الميدان الدينى أو الميدان الاجتماعى الا انها كانت ذات أبعاد سياسية ، بحيث أن مفهوم الوطنية كان واضحا فى سير الحركة الاصلاحية فكانت أهداف بن باديس فى هذا الميدان مكملة لأهداف الأمير خالد ومصالى الحاج وكانت جميعها ترمى الى التحرر من قيد الاستعمار . ولكن بن باديس كان يختلف عن مصالى الحاج فى مبدئه الأساسى حيث رأى ان الأمة الجزائرية أمة ضعيفة ومتأخرة ولابد لها ان تكون فى كنف دولة قوية عادلة تأخذ بيدها الى سلم الرقى والعمران ولتكن هذة الدولة فرنسا . وهو بهذا لم يكن يرى أن تندمج الجزائر كلية تحت سيطرة فرنسا بل كان يرى أن تكون الجزائر أمة اسلامية عربية تأخذ من العرب ما يفيدها وتترك جانبا مايشوه اسلامها .

ومنذ عام ١٩٣٢ اخذت المواقف الوطنية تتبلور فى قوالب جديدة . ففى فرنسا أعلن النجم المنحل عن برنامجه الثورى الذى يتضمن استقلال الجزائر وتكوين حكومة وطنية ، وفى نهاية عام ١٩٣٢ قررت جمعية العلماء ان تخاطب الجماهير مباشرة باستعمال المساجد للوعظ والارشاد والدعوة الى الأصلاح الدينى والاجتماعى بالأضافة الى تأسيس المدارس العربية الحرة لتعليم اللغة العربية . وبناء على ذلك قامت السلطات الفرنسية بغلق مدارس العلماء والمصلحين فى تلمسان وسطيف وسيدى بلعباس ، كما أغلقت أبواب المساجد فى وجه دعاة الاصلاح .

ولقد أثار قرار غلق المدارس الحرة والمساجد النواب الجزائريين فى مختلف المجالس المحلية ، لذلك توجه منهم وفد فى يونية عام ١٩٣٣ الى باريس ليشتكى من الوضع الاقتصادى والاجتماعى الذى كانت تعيشه الجزائر والاحتجاج لدى حكومة فرنسا ولكن وزير الداخلية رفض استقبال الوفد بحجة ان هذا الوفد غير مختص بذلك ، فعاد الوفد ودعا الجزائريين العاملين فى المجالس المحلية الى الاستقالة الجماعية ، الأمر الذى جعل الحاكم العام "كارو" يدعوا النواب الى استرداد استقالتهم واعدا اياهم بعدة اصلاحات .

ولقد كان لتأسيس الجبهة الشعبية الفرنسية وانتصارها فى الانتخابات أثر عظيم فى نفوس الجزائريين ، اذا اعتقدوا أن هذه الاحزاب اليسارية التى طالما تبرأت من كل ما يرتكبه المستعمرون من ظلم وعدوان سوف لاتتأخر عن تحقيق رغبات الأهالى فى اطار المبادىء التى ادعت انها تعمل لها والتى تتمثل فى الخبز ، والسلم والحرية .

وفى سنة ١٩٣١ ـ عقب الاحتفال بذكرى الاحتلال ـ ترأس موريس فيوليت لجنة من مجلس الشيوخ الفرنسى عهد اليها بدراسة الأوضاع الجزائرية وتقديم توصيات عن الاصلاحات التى يجب ادخالها وفعلا تقدمت اللجنة بمشروع اصلاحات عرف باسم "مشروع فيوليت" وقد احتوى مشروع فيوليت على ثمانية فصول وخمسين مادة وأهم ما اقترحه فيه هو : الأصلاح التعليمى ، والقيام باصلاح زراعى ، وتأمين نفس الحقوق والوجبات التى للفرنسيين لبعض الجزائريين والغاء المحاكم الخاصة بالجزائريين وزيادة حقوق الشعب الجزائرى لانتخاب ممثلين عنه فى مجلس الشيوخ ، وزيادة تمثيلهم فى المجالس المحلية . كما اقترح المشروع انشاء مجلس استشارى فى باريس يتكون من تسعة جزائريين وانشاء وزارة لشئون أفريقيا يدخلها جزائريون .

كما أقر مشروع فيوليت ممارسة توعيات محدودة من الأهالى ما للمواطنين الفرنسيين من الحقوق السياسية دون أن يترتب على ذلك أى تعديل فى أحوالهم الشخصية أو فى حقوقهم المدنية وفى ذلك تأييد لفكرة (الاندماج) التى تطورت بعد ذلك على يد عدد من المثقفين الجزائريين وقد رفض البرلمان هذا المشروع ، وأحدث هذا الرفض رد فعل عنيف لدى أنصار الأدماج من الجزائريين .

وتجدر الاشارة الى حركة المؤتمر الاسلامى الجزائرى ففى ٧ يونية عام ١٩٣٦ انعقد المؤتمر الأسلامى الجزائرى الذى يعد أول تجمع من نوعه فى الجزائر ، فلم تعرف البلاد لأكثر من قرن مضى تجمعا تشترك فيه كل الاتجاهات وتبرز فيه وحدة الصف والكلمة مثل ما أحدث فى هذا المؤتمر .

ولقد قرر المؤتمر المطالبة بانتخاب المسلمين الجزائريين فى البرلمان مع الاحتفاظ للناخبين بحالتهم المدنية ، ونسج قانون (الأينديجينا) ، والغاء الادارة العامة للشئون الاهلية واقليم الجنوب ، والاعتراف باللغة العربية كلغة قومية بالجزائر ، وأخيرا القيام بتطهير عام فى الأدارة الجزائرية .

وعموما فان هذه المطالب تعد متواضعة بالنسبة لصورة المؤتمر والجو الذى أحدثه فى البلاد الجزائرية ، وهذه المطالب تعبر بحق عن أهداف النخبة التى كان يخالجها الفكر الادماجى باعتبار ان الجزائر أرض فرنسية . وعن المؤتمر وفدا من أعضائه يحمل للحكومة الفرنسية مطالبة ما ستقبله رئيس الحكومة " ليون بلوم " الذى صرح لهم بان الحكومة ستدرس مطالب الجزائريين بكل ما يقتضيه العدل والاخاء ، وكان لهذا الاستقبال صداه فى نفوس الجزائريين ، وتكون من بين أنصار المؤتمر وأنصار الجبهة الشعبية من الفرنسيين شبه تحالف للمطالبة بحقوق المستضعفين ومقاومة كبار المستعمرين فى الجزائر الذين يحرصون على مصالحهم الخاصة فقط . وتلى ذلك

مظاهرات سلمية إلا أنه لم يمض بضعة أيام حتى بدأت الحركة الشعبية تطالب بتحقيق الوعود المعطاة فأضرب العمال المسلمون فى المصانع ، وقامت المظاهرات العنيفة ، وأمام هذه الاضرابات والسخط ضد الفرنسيين فى الجزائر . كان على فرنسا أن تلتزم شيئا من الصمت وترخى قبضتها نظرا لانشغالها بمشاكلها الداخلية واستعدادها لشبح الحرب العالمية الثانية .

وعموما فقد أعطى زعماء هذه المرحلة للجزائر حركة أكثر تنظيما ، ودعاية أعظم تأثيرا ، وأن يؤلبوا الشعب الجزائرى ضد المستعمر ، بالاضافة الى ربط اواصر الوطنية المتفرقة والعمل بروح واحدة وهو ما حدث بالفعل حين التقى مصالى الحاج وفرحات عباس وألفا معا حزب الشعب الجزائرى .

وقد كان من الطبيعى بعد ان اندلعت الحرب العالمية الثانية أن يعلق الوطنيون الجزائريون الآمال على معسكر الحلفاء الذى أصدر ميثاقه الأطلنطى وما يتميز به من مبادىء خاصة قضية تقرير المصير وقد أ صبح فرحات عباس الذى تخلى عن سياسة الادماج ولوجود مصالى الحاج فى السجن يترأس الحركة الوطنية الجزائرية فى الفترة مابين ١٩٤٢ - ١٩٤٥ . وقد تمثلت أعماله فى الاتصال بالجنرال جيزو الحاكم العام للجزائر آنذاك والقيادة الأمريكية ، حيث عرض عليهما بعض المطالب التى لم تلقى اهتمام الطرفين . لذلك عقد فى ١٠ فبراير ١٩٤٣ اجتماع عام تضمن وطنيين من مختلف الهيئات تفاوضوا حول مستقبل الجزائر فخرجوا بوثيقة حملت فى طياتها مولد هيئة جديدة تحت اسم " أصدقاء البيان " .

أما البيان الذى خرج به الاجتماع فمقدمته كانت تتضمن استنكار الاستعمار الفرنسى الذى أغرق البلاد فى الجهل والبؤس ، ورفض سياسة الادماج ، ثم المطالبة بالمساواة والحرية ، والاعتراف باللغة العربية كلغة رسمية وغير ذلك .

واستمر النضال الجزائرى بعد الحرب العالمية الثانية وتعرض الشعب الجزائرى لعدوان مرير عرف بمذبحة قسنطينة ١٩٤٥ وتوصل الثوار الى قناعة بحتمية خوض حرب التحرير الشعبية كطريق وحيد للاستقلال . وقد عاد قادة الحركة الوطنية الحزبية بعد اصدار عفو شامل لتأسيس هيئات جديدة فاسس فرحات عباس حزب " الاتحاد الديمقراطى لانصار البيان الجزائرى " وقد أصبحت له مطالب من نوع جديد ، اذ أصبح يطالب بانشاء جمهورية جزائرية متحدة فيدراليا مع فرنسا . أما مصالى الحاج فقد أعاد تشكيل حزب جديد محل حزب الشعب الجزائرى وهو " حزب انتصار الحريات الديمقراطية " .

الكفاح المسلح :-

ولم تجد محاولات الجزائريين فى انتزاع قسط من حريتهم حيث حرصت السلطات الفرنسية على تضييق الخناق عليهم وزيفوا الانتخابات التى تمت بالنسبة للمجالس البلدية فى أبريل ١٩٤٨ وهكذا تاكد لملايين من الجزائريين بأن الوقت قد حان لحمل السلاح لمواجهة الاستعمار الفرنسى ، فقد تركز العمل الاساسى مابين عامى ١٩٤٧ و ١٩٥٤ فى انشاء " المنظمة الخاصة " التى كان أحمد بن بلا من أصم أعضائها وقد أنشئت هذه المنظمة فى كنف حزب " انتصار الحريات الديمقراطية " ، وهذه المنظمة كانت شبه عسكرية وسرية وكانت مهمتها الاعداد للثورة وبث الروح الثورية . وكان أغلب أعضاء هذه المنظمة من الجيل الذى لم يقتنع بالخطب والتصريحات ولا تنطوى عليه حيل السياسة ، وأيقنوا بأن الكفاح المسلح وحده كفيل بالقضاء على الاستعمار . وبدأت المنظمة الخاصة اعمالها العسكرية حتى ألقى القبض على بعض اعضائها وأودعوا السجن وتم حل هذه المنظمة . وعقب حل هذه المنظمة انتابت حركة انتصار الحريات الديمقراطية لمصالى الحاج أزمة داخلية .

وعلى أثر تلك الأزمة انقسم الحزب الى ثلاث نزعات : الأولى تضم أتباع مصالى الحاج طالبت بالرئاسة الدائمة لمصالى الحاج ، والنزعة الثانية ضمت أنصار اللجنة المركزية قررت مبدأ التسيير الجماعى ونزع كافة السلطات من ايدى مصالح الحاج ، والنزعة الثالثة التفت حول لجنة جديدة تسمى "اللجنة الثورية للوحدة والعمل ممن أضناهم العمل الحزبى غير مثمر . وقد اتصلت اللجنة الدورية بحزب الدستور التونسى وحزب الاستقلال بالمغرب لتنسيق الثورة على صعيد الشمال الافريقى . كما اتصلوا بالحكومة المصرية التى وعدت بالسلاح ووضع اذاعة صوت العرب تحت تصرفهم .

وقد عقد قادة اللجنة الثورية فى ١٠ أكتوبر ١٩٥٤ أهم أجتماع لهم حيث اتخذوا عدة قرارات شكلت نقطة التحول فى تاريخ الجزائر عامة ، اذ رأوا ضرورة تأسيس هيئة سياسية جديدة تنصهر فيها جميع العناصر فكان مولد "جبهة التحرير الوطنى" .

وفى أول نوفمبر عام ١٩٥٤ فوجئت الجزائر بعدد من الحوادث المزعجة حوالى ٧٠ عملية ويمكن تقسيم حرب التحرير الجزائرية الى ثلاث فترات :-

١ - من ١٩٥٤ - ١٩٥٧ وهى فترة للايقاظ والاستنفار .
٢ - من ١٩٥٧ - ١٩٦٠ وفيها صعد الجيش الفرنسى من ضرواته .
٣ - من ١٩٦٠ - ١٩٦٢ وهى الفترة التى انتهت بالاستقلال .

وقد بدأت الفترة الأولى بانتفاضة أول نوفمبر عام ١٩٥٤ حيث شهد التراب الوطنى عدة حوادث ، وبعدها استمرت الحوادث فى جبال الأوراس المحاذية للحدود التونسية الجزائرية وغيرها من أنحاء الجزائر . وقل تلت هذه الأحداث اعتقالات للوطنيين شملت أنصار حزب أانتصار الحريات الديمقراطية وآنصار اللجنة المركزية . وكان هدف الثوار فى عملياتهم منذ أول نوفمبر لفت أنظار العالم للمشكلة الجزائرية قبل انعقاد دورة الجمعية العامة للأمم المتحدة . ورغم رفض دورة عام ١٩٥٥ مناقشة القضية الجزائرية الا أن الجزائر قد اكتسبت العديد من الأنصار سواء فى الداخل حيث ازدادت أعداد الأنصار والمتطوعين ، وفى الخرج تلقت مساعدات وخاصة من مصر والمغرب وتونس . وقد شهد عام : ١٩٥١ انضمام فرحات عباس وبعض الأعضاء الآخرين لجبهة التحرير كما أن أعضاء جمعية العلماء المسلمين لم يجدوا مانعا من تأييد الثورة .

وقد ازدادت الثورة وازداد معها القمع الفرنسى حتى أعلنت حكومة الحزب الاشتراكى الفرنسية اجراء مفاوضات مع قادة الثورة لكنها خانت الوعد فألقت القبض على أحمد بن بلا وأعضاء الوفد الذى كان يوافقه للتفاوض معها فى ٢٢ أكتوبر ١٩٥٦ وكان العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦ رد فعل لما كانت تقدمه القاهرة للثوار الجزائريين اذا كانت يتم على أرض مصر التخطيط للعمليات الثورية فى الجزائر وفى الفترة الثانية صعد الجيش الفرنسى من عملياته ضد الثوار ، كما شهدت القضية الجزائرية تطورا كبيرا على الصعيد الدولى فقد طالبت الدول الأفريقية فى ١٥ أبريل ١٩٥٨ بأكرا أن تسحب فرنسا قواتها من الجزائر .

وبالرغم مما عرف عن ديجول من مواقف تهدف الى السلام خصوصا موقفه تجاه أقطار أفريقيا الغربية والوسطى ، حيث خيرها بين البقاء فى مجموعة الشعوب الفرنسية أو الأنفصال عنها .

كانت سياسته تقوم على الحاق الجزائر بفرنسا وواصلت قوات فرنسا عمليات تحطيم الثوار وابادتهم بواسطة قصف الطيران المتتابع .

وفى ١٧ سبتمبر ١٩٥٨ شهدت الحركة الوطنية الجزائرية تطورا جديدا حيث عقدت بالقاهرة مقر الجبهة أجتماعات انتهت الى انشاء حكومة الجمهورية الجزائرية المؤقتة[٣] .

وقد شهدت الحكومة المؤقتة عدة معارضات بين الجناحين المدنى والعسكرى حيث أتهم الأوائل الأواخر باحتكار أصدار الأوامر وتقريرها ، ورغم ذلك كله فقد حرص

أعضاء الحكومة المؤقتة على الظهور كوحدة متحدة ، كما حرصت الحكومة على كسب التأييد العالمي فحصلت بذلك على كسب سياسي أقلق فرنسا وقد أدرك ديجول أن الثورة الجزائرية سوف تكون عملية استنزاف لموارد فرنسا وشبابها وأن الحرب لن تؤدي الى أية نتيجة تحقق أنتصار الفرنسيين . لذلك فقد أعطى في خطابه التاريخي في ١٦ سبتمبر ١٩٥٩ الحق للجزائريين في أن يختاروا بين الأندماج مع فرنسا أو الأستقلال أو أختيار أن نظام فيدرالي يربطها بفرنسا ، وكل ذلك بعد أستفتاء عام وبعد هذا التصريح كثرت الانقسامات بين الفرنسيين داخل فرنسا حول الجزائر .

وأخيرا دخلت الحكومة الفرنسية مع الثوار الجزائريين في مفاوضات انتهت باتفاقية ايفيان في مارس ١٩٦٢ التى قررت وقف أطلاق النار وأنهاء العمليات العسكرية أبتداء من ١٩ مارس ١٩٦٢ وتحديد موعد للاستفتاء . وقام الجنرال ديجول باعلان استقلال الجزائر في يولية ١٩٦٢ غير أن الوطنيين فضلوا الاحتفال في ٥ يولية الذى يصادف ذكرى احتلال فرنسا للجزائر عام ١٨٣٠ .

"في تونس"

كان احتلال فرنسا لتونس عام ١٨٨١ م نتيجة منطقية بعد احتلال الجزائر وبعد أن حصلت فرنسا على كثير من الأمتيازات احتكار مد الخطوط التلغرافية وإصلاح القناطر وغير ذلك من الأمتيازات المتعلقة بحماية الرعايا الفرنسيين في احتكاراتهم واستغلالهم ومعتقداتهم مما كان ينتقص من سلطات البايات في تونس أمام قوة النفوذ الفرنسي المتزايدة .

وقد انتهزت إيطاليا فرصة تحقيق وحدتها القومية عام ١٨٧٠ م وهزيمة فرنسا أمام بروسيا في نفس العام وحاولت ـ أمام النفوذ الانجليزى المنافس ـ أن يكون لها النفوذ الأعلى في تونس بل أن ترث نفوذ فرنسا هناك . وقد حصل القنصل الأيطالى على امتيازات هامة كثيرة لمواطنية مما جعل إيطاليا تكاد تكون وصية على تونس (١) . ولكن إيطاليا لم يكن باستطاعتها السير في الشوط إلى آخره بسبب مشكلاتها الداخلية وعلاقتها غير الطيبة بالنمسا بسبب تطلع الأيطاليين إلى ضم إقليم "ترنتينو" و"تريستا" .

ومنذ عام ١٨٧١ م وبسمارك المستشار الألماني يعمل على تشجيع فرنسا على التوسع في أفريقيا ضمانا لأبعاد تفكير فرنسا عن الثأر لهزيمتها في الحرب السبعينية ، وقد قبلت فرنسا العرض الألماني المؤيد بموافقة انجلترا ، وكان أمامها إما ضم تونس نهائيا

(١) د . زاهر رياض : شمال أفريقيا ص ١٨٩ .

للمتلكات الفرنسية أو فرض حماية عليها ، وكان الميل متجها إلى الرأى الثانى : فتستطيع فرنسا بالتدريج العمل على تفوق نفوذها فى ترنس إلى حد لاتستطيع معه أية دولة أخرى منافستها (٢) .

ورغم معارضة كل من إيطاليا وتركيا لاتجاه فرنسا الاستعمارى نحو تونس فقد زحفت القوات الفرنسية من الجزائر عبر الحدود وغزت تونس بدعوى إحلال الأمن فى ١٢ أبريل

١٨٨١ م ، ولم يمض شهر حتى طوقت هذه القوات قصر سعيد مقرباى تونس الواقع فى "باردو" وهى إحدى ضواحى مدينة تونس ، وأجبرت الباى على توقيع معاهدة قصر سعيد أو باردو التى نصت على اعتراف الباى باحتلال القوات الفرنسية لتونس ، وأن تنظم فرنسا العلاقات الخارجية ، والشئون المالية لتونس ، والتزمت فرنسا بحماية الباى من أى خطر ، وحددت علاقتها بتونس بتعيين وزير مقيم فى تونس . .

ورغم أن هذة المعاهدة ، لم تذكر كلمة الحماية صراحة ، إلا أنها كانت حماية فعلية إذ كانت تونس أول تجربة لنظام الحماية فى تاريخ الاستعمار الفرنسى ، وقد استهدف واضع هذا النظام أمرين : أولا : إسكات المعارضة الدولية بحجة أن فرنسا لم تقض على كيان الدولة المحمية بالضم ، ثانيا : إقناع المعارضة الداخلية ـ فى فرنسا ـ بأن الحكومة لن تتورط فى أعباء مالية جديدة لأن مميزات الحماية أنها تحمل الدولة المحمية نفقات الاحتلال وجميع مايترتب على الأصلاحات الأدارية والأقتصادية المفروض إدخالها بواسطة الدولة الحامية (١) .

ولم تكتف فرنسا بقيود معاهدة باردو ، بل عرضت على الباى معاهدة جديدة فى ٨ يونيو ١٨٨٣ حملت فيها المادة الأولى نص رضاء الباى عن الحماية الفرنسية للمصالح التونسية وخاصة المحافظة على الأمن الداخلى والتمثيل الخارجى بينما يحتفظ الباى بسيادته المطلقة وله إدارة الأقليم بموظفين وطنيين (٢) . وكانت حجة فرنسا فى فرض الحماية هو قيام ثورة وطنية مسلحة ضد قوات الاحتلال بمجرد أن أفاق التونسيون من غفوتهم (٣) .

---

(١) د . محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان ص ٤٤٧ .
(٢) د . مكى شبيكة : السودان عبر القرون ص ٤٢٤ .
(٣) د . محمد صبرى : الامبراطورية السودانية فى القرن التاسع عشر ص ٢٣٤ .

تشجع التونسيون على القيام بالثورة بما رأوه من تخاذل الباى أمام الغزو الفرنسى ، فى الوقت الذى حدثت فيه ثورة جزائرية فى وهران فى صيف عام ١٨٨١ م ، وحدوث مظاهرات فى طرابلس الغرب ضد الاحتلال الفرنسى لتونس ، وموقف إيطاليا وتركيا المعادى لهذا الاحتلال . ومما يلفت النظر أن الثورة فى تونس ضد الاحتلال الفرنسى تزعمها رجال الدين وأصحاب الطرق الصوفية الذين اعتبروا الثورة ضد الفرنسيين جهادا إسلاميا ، واتخذت الثورة من مدينة القيروان ذات التاريخ الأسلامى العتيد مركزا لها .

وقد هاجم الثوار القوات الفرنسية واتهموا الباى محمد الصادق - من الأسرة الحسينية - بالتواطؤ والخيانة ، واشتدت اتهاماتهم للباى على أخى الباى السابق الذى نصبه الفرنسيون بايا عند وفاة محمد الصادق عام ١٨٨٢ ، بسبب ضعفه وخضوعه للفرنسيين ، وسيطرة المقيم العام الفرنسى على الأمور حيث وقع الباى مع الفرنسيين معاهدة جديدة تعرف بمعاهدة "المرسى" وهى تهدف إلى توسيع سلطات فرنسا فى تونس بشل يد الباى وموظفيه الوطنيين عن التصرف فى الأمور الأدارية والمالية والقضاء وغيرها من الأمور الداخلية .

استمرت المقاومة بأسلوب سياسى حتى ظهر حزب "تونس الفتاة" عام ١٩٠٥ م الذى سعى الى الأصلاحات الدستورية الواسعة وإلى الأستقلال ، كما سعى إلى تحقيق شعار "الأمة الجزائرية - التونسية" أى دعا إلى وحدة المغرب العربى ، وظهر الزعماء "على باش جمعة" و "عبد العزيز الثعالبى" اللذين استمرا فى المطالبة بالاستقلال والحياة الدستورية وتعرضا للنفى والحجر على نشاطهما ، حتى إذا قامت الحرب العالمية الأولى قامت ثورة فى تونس بتأييد من تركيا وألمانيا تزعمها حزب "تونس الفتاة" ولكن هذه الثورة لم تحقق الأهداف القومية فى شمال أفريقيا

لقد استغلت فرنسا اليد العاملة التونسية ، ومناجم الحديد والزنك والفوسفات المتوفرة فى تونس ، وامتلاك الأراضى الزراعية التى سيطر عليها المستوطنون الفرنسيون ، واحتكار الشركات الفرنسية لجميع الأعمال البحرية والبرية ، ولم يغفل الفرنسيون وضع النظم التى تضمن سيطرتهم على المجالس البلدية والوظائف الحكومية . . وأعفى المستوطنون الفرنسيون من الضرائب التصاعدية ، وتمتعوا بالحماية الكاملة من قوات الاحتلال . كل ذلك الاستغلال لابد أن يثير كوامن الثورة الوطنية فى تونس خاصة وقد رأى التونيثيون فرنسا تنهزم أمام ألمانيا فى الحرب العالمية الأولى .

الحركة الوطنية التونسية والاستقلال :

لقد ارتبطت بوادر الحركة الوطنية فى تونس بالتيارات الفكرية فى المشرق العربى . فالشيخ الثعالبى الذى درس فى جامع الزيتونة قد أتم دراسته العليا فى المشرق العربى ثم عاد الى تونس عام ١٩٠٤ ليعمل فى الصحافة الوطنية . ونشير كذلك الى زيارة الشيخ محمد عبده الى تونس فى نوفمبر عام ١٨٨٤ حيث اتصل برجالات الحركة الاصلاحية وعلماء جامع الزيتونة .

وقد دخل زعماء الحركة الوطنية فى تونس مرحلة عملية بانشاء "حزب تونس الفتاة" عام ١٩٠٨ ، وهذا الحزب شبيه بالحزب الوطنى المصرى من حيث الأهداف ومسايرة الجامعة الاسلامية . ويرجع السبب فى اشائه الى اتجاه الحكومة الفرنسية الى تجنيس اليهود فى تونس ، كما حدث فى الجزائر مما حدا بالتونسيين الى مناهضة ذلك ، وقاطعوا المتاجر اليهودية ونشأ حزب عرف بأسم "حزب التقدم" تطور الى حزب "تونس الفتاة" بزعامة بشير صفر وعلى باش حمبة .

وقد كانت حادثة "الجلاز" الشهيرة فى أول نوفمبر ١٩١١ بداية الصراع بين الشعب التونسى والمستعمرين الأوربيين "والجلاز" مقبرة اسلامية لها مكانة خاصة عند التونسيين لاحتوائها على قبور عدد من العلماء ومشاهير الرجال ، وسبب الحادثة هو أن البلدية بعثت بلجنة للقيام بعملية المسح والتسجيل للمقبرة فى المحافظة العقارية ، وشاع فى الناس هذا الخبر فثاروا لأن ذلك فى نظرهم يضفى صبغة الجنسية الفرنسية على المقبرة . وتحت الضغط عدلت البلدية عن التسجيل لكن الجماهير لم تصدق وقامت بمظاهرات كان رد البوليس الفرنسى عليها دابلا من الرصاص .

ولم تمض بضعة أشهر حتى ثار العمال التونسيون احتجاجا على تمييز الأيطاليين عليهم فى الأجور بأيعاز من باش حمبة وعبد العزيز الثعالبى . ووجهت السلطات الفرنسية اليها أنذارا بفض الأحزاب ورفضا فطرد من البلاد مع مجموعة من زعماء تونس الفتاة . وتم حل حزب تونس الفتاة فأختاروا الأقامة فى الآستانة ليواصلوا منها كفاحهم . وفى الاستانة اتصل باش حمبة بكثير من قادة العالم الاسلامى والعربى اللاجئين اليها أمثال : شكيب أرسلان ومحمد فريد وعبد العزيز جاويش وغيرهم . وقد أتت هذه المجهودات أكلها فقد شكلت فى الاستانة بين عامى ١٩١٧ و ١٩١٨ هيئة تعمل على جمع الأسرى المغاربة فى ألمانيا وتركيا وتنظيمهم وتزويدهم بالسلاح .

وقد كان للعامل الاقتصادى ـ بالاضافة الى العامل الدينى ـ دور هام فى الوقوف ضد المستعمر الفرنسى بتونس فقد استولى المستعمرون على أجود الأراضى التونسية وتم استخراج المعادن وأرسلت الى (الوطن الأم) أى فرنسا .

وفى أعقاب الحرب العالمية الأولى ذهب الثعالبى الى فرنسا كغيره من زعماء الشرق الوطنيين بمناسبة انعقاد مؤتمر الصلح ، ونشر كتابا شهيرا فى تاريخ الحركة الوطنية بعنوان (تونس الشهيدة) وأهم ماورد به أن تونس كانت متقدمة قبل الاستعمار وأن الحماية الفرنسية جلبت معها البؤس والشقاء للتونسيين . وقد اعتقل الثعالبى واتهم بالزندقة والخروج عن تعاليم الأسلام .

واذا كان الثعالبى قد عبر فى كثير من المناسبات عن تمسكه بمبادىء تونس الفتاة المبنية على فكرة الاستقلال التام فانه تراجع عن هذه الفكرة مع ظهور طبقة جديدة من الشبان الوطنيين ذوى الثقافة الغربية مفضلين البدء بالأصلاحات الداخلية . وفى يونية ١٩١٩ قدم هؤلاء الشبان مطالبهم للباى والمقيم العام لمنح البلاد نظاما دستوريا فوعدهم الباى بأجابة مطالبهم - وعلى أثر هذا الوعد قرر رجال الحركة تأسيس حزب عرف بأسم "حزب الدستور" وقد أنضم الثعالبى لهذا الحزب بعد تردد .

وقد أزدادت وطأة المستعمرين الفرنسيين فى تونس وتم تشجيع الاستيطان بالنسبة لصغار الملاك وصدور توصية الجمعية الوطنية الفرنسية بتعطيل الصحف واغلاق النوادى مما كان سببا فى رحيل الثعالبى الى المشرق العربى متنقلا بين مصر وبغداد وفلسطين وبرحيلة ضعفت الحركة الوطنية .

وقد ظهر الحزب الدستورى الجديد ليتزعم الحركة الوطنية فى تونس وقد لعب الحبيب بورقيبة دورابارزافيه . وقد اتجه الحزب الى الطبقات العاملة حيث أصبحت الحركة النقابية التونسية جزءا من تاريخ الحزب الدستورى الجديد .

وحين عاد الثعالبى الى تونس عمد الحزب الدستورى الجديد الى تغيير سياسته التى كانت تتسم بالتساهل فعقد مؤتمرا فى نوفمبر ١٩٣٧ وأعلنوا تأييدهم للاضرابات العمالية ، وقد استمر الخلاف بين الدستوريين القدامى بزعامة الثعالبى وبين حزب الدستور الجديد بزعامة الحبيب بورقية ، وظل الأنشقاق قائما بينهما حتى عقد الميثاق الوطنى عام ١٩٤٦ . وكان بورقية يميل الى اعتبار تونس حلقة أتصال بين العالم العربى والاسلامى والحضارة الأوربية فى حين يرى الثعالبى الحكمة فى الاستمرار فى الدعوة الى تحرير تونس بالتعاون مع مختلف الهيئات الوطنية العربية والاسلامية . وظل الحزب الدستورى الجديد يعمل على قيادة المظاهرات ونقل الحبيب بورقية مع زملائه من سجون تونس الى حصن "سان نيقولا" سيليا عام ١٩٤٠

وفى أثناء الحرب العالمية الثانية تعرض الباى لمساومه دول المحور ودول الحلفاء . وقد رفض الباى عروض ألمانيا لعدم ثقته بها بالاضافة الى تدهور مركز المحور العسكرى . وقد اتجه الحبيب بورقيبة فى احدى مراحل نضالة الى الجامعة العربية فى أبريل ١٩٤٥ واعتبر ذلك تحولا فى أتجاه الحزب الدستورى الجديد

وفى ٢٣ أغسطس عام ١٩٤٦ عقد الحزب مؤتمرا وطنيا اشترك فيه ممثلون عن الحزب الدستورى القديم ويبدو أن الوطنيين التونسيين قد عادوا مرة أخرى بلتفاهم مع فرنسا وخاصة من جانب الحزب الدستورى الجديد ولكن بعد مرور سنة كاملة من التفاوض مع فرنسا فشلت تجربة الحزب الدستورى الجديد برفض استعمارى تام لأى تغيير فى السياسة الفرنسية بتونس .

وقد اندلعت حركة المقاومة المسلحة بشكل منظم خاصة وأن المستوطنين الفرنسيين قد لجأو الى تنظيم فرق انتقامية من بينهم لاغتيال المعروفين بوطنيتهم .

وفى عام ١٩٥٤ زار "منديس فرانس" - الذى تقلد الحكم بفرنسا - تونس فعلنا فى خطاب رسمى استقلال تونس الداخلى وتشكيل حكومة تفاوضية جديدة بزعامة "المنجى سليم" و "ومحمد المصمودى" وبالفعل بدأت المفاوضات بين الطرفين فى ٤ سبتمبر ١٩٥٤ بتونس ثم انتقلت الى باريس . وعاد الحبيب بورقيبة عام ١٩٥٥ بعد توقيعة اتفاقية للحكم الذاتى ، ولكن الفتنة عادت من جديد حين رأى "صالح بن يوسف" أن اتفاقية الحكم الذاتى تمثل خطوة للوراء .

وقد جرت مفاوضات بين فرنسا وتونس انتهت بتوقيع اتفاق فى ٢٠ مارس ١٩٥٦ اعترفت فرنسا بمقتضاة باستقلال تونس .

فى مراكش (المغرب)

الاستعمار :

اختلفت مراكش عن كل من الجزائر وتونس فى أنها تمتعت باستقلال شكلى طوال القرن التاسع عشر إذ لم تدخل فى حوزة الامبراطورية العثمانية ، وبقيت علاقتها مع الدول الأجنبية تسير على قدم المساواة ، لذلك تطلب التمهيد لاحتلال فرنسا لها وقتا طويلا وسياسة معقدة ، هذا إلى جانب كثرة الطامعين فيها مثل أسبانيا ، وانجلترا ، والمانيا وإيطاليا وغيرهما من الدول الأوربية التى مارست سياسة الامتيازات فى مراكش حتى أصبحت البلاد مسرحا للقوى الأجنبية التى تحاول بسط نفوذها هناك .

وكانت فرنسا منذ غزت الجزائر عام ١٨٣٠ م قد اتخذت من مراكش - حيث توجد سلطنة العلويين - موقفا عدائيا ، فقد احتجت الحكومة الفرنسية على وجود السلطة المراكشية فى تلمسان وأرسلت بعثة خاصة إلى فاس للاحتجاج فى أوائل سنة ١٨٣٢ م فسارع مولاى عبد الرحمن بالانسحاب (١) ، كما أن فرنسا اعتدت على مراكش اعتداءات عسكرية بسبب تأييد القبائل المراكشية والسلطان لحركة الأمير عبد القادر الجزائرى ، ضد الغزو الفرنسى للجزائر حتى أن السلطان لقى هزيمة مروعة على يد القوات الفرنسية عام ١٨٤٤ م وقبل معاهدة مع فرنسا تقضى بتسريح جيشة من منطقة الحدود وطرد عبد القادر من البلاد أو القبض عليه ، وتخطيط الحدود بين الجزائر ومراكش وإعطاء فرنسا حق الدولة الاولى بالرعاية فى النشاط التجارى بمراكش .

وبهذة المعاهدة ظهرت أطماع فرنسا فى مراكش وتأكدت نية فرنسا نحو مراكش وأن تحقيقها يتطلب الوقت المناسب والظروف الدولية المهيأة . وقد أخذت فرنسا تمهد لسياستها التوسعية فى مراكش بسلسلة من المعاهدات الدولية . . ففى عام ١٩٠٢ م عقدت فرنسا مع إيطاليا اتفاقا تؤيد فيه اليد الأيطالية المطلقة فى ليبيا نظير إطلاق اليد الفرنسية فى مراكش . وفى عام ١٩٠٤ م تم توقيع الاتفاق الودى بين كل من انجلترا وفرنسا الذى وافقت فيه انجلترا على إطلاق اليد الفرنسية فى مراكش نظير عدم اعتراض فرنسا على بقاء الاحتلال الانجليزى بمصر . وفى أكتوبر من نفس العام صادقت أسبانيا على الاتفاق الفرنسى البريطانى وحصلت نظير ذلك على الركن الشمالى الغربى من مراكش ليكون منطقة نفوذ لها (٢)والذى عرف بالريف الأسبانى .

(١) د . صلاح العقاد : المرجع السابق ص ٢٢٢ .

(٢) د . زاهر رياض : المرجع السابق ص ٢١٦ .

ورغم محاولة سلطان مراكش استغلال معارضة ألمانيا لمشروعات فرنسا الاستعمارية فى مراكش ورغم زيارة امبراطور ألمانيا طنجة فى مارس ١٩٠٥ م ، ورغم عقد مؤتمر دولى فى أبريل ١٩٠٦ م بمدينة الجزيرة بأسبانيا لبحث السيادة المستقلة لمراكش مع انفتاحها على جميع الدول وهو المؤتمر الذى ساندت فيه ألمانيا مراكش ، فأن قرارات المؤتمر اعترفت بمركز فرنسا الممتاز فى مراكش ، مع تأييد موقف السلطان المدافع عن استقلال بلاده .

وانطلاقا من هذا الموقف دفعت فرنسا شقيق السلطان المدعو عبد الحفيظ إلى الثورة ضد أخيه السلطان عبد العزيز سنة ١٩٠٨ م وتنحيته عن الحكم ، وقد نجح عبد الحفيظ فى ذلك ووضع نفسه تحت الحماية الفرنسية بصورة فعلية وليست رسمية . وقد تأيدت هذه الحماية عندما استنجد عبد الحفيظ فى عام ١٩١١ م بالقوات الفرنسية لأخماد ثورات القبائل ضده ، وقد نجحت هذه القوات فى إخماد الثائرين ضد السلطان وبقيت هناك تمارس احتلال عسكريا وسيطرة على الحكم مما دفع ألمانيا إلى الأحتجاج على بقاء القوات الفرنسية فى مراكش ، ولكن مالبثت فرنسا وألمانيا أن توصلتا إلى اتفاق بينهما فى نوفمبر ١٩١١ م نص على إطلاق يد فرنسا فى مراكش نظير تنازل فرنسا لألمانيا عن جزء من الكمرون الفرنسى .

ونتيجة لذلك رأت فرنسا جعل حمايتها على مراكش رسمية ، فتم توقيع معاهدة الحماية فى ٣٠ مارس ١٩١٢ م قبل السلطان بموجبها حماية فرنسا على مراكش ماعدا منطقة طنجة والمنطقة الأسبانية . وفى نوفمبر من نفس العام عقد اتفاق فرنسى أسبانى جديد من أجل تحديد المنطقة الأسبانية التى أطلق عليها لفظ الريف فأصبح يتولاها خليفة يعينه سلطان مراكش من بين اثنين ترشحهما أسبانيا على أن يخضع هذا الخليفة لتوجيهات المندوب الأسبانى (١) .

---

(١) د . زاهر رياض : المرجع السابق ص ٢١٩ .

لم تكن الحماية الفرنسية على مراكش لتثنى المراكشيين عن النضال ضد الاحتلال الفرنسى خاصة وأن الظروف الطبيعية للبلاد تساعد على هذا النضال ، حيث تنتشر الجبال الوعرة المسالك والتى اعتاد أهلها من البربر الاحتفاظ باستقلاهم الداخلى أمام جميع الحكومات المركزية ، ومن ثم لم يتم إخضاع البلاد إلا بعد مضى أكثر من عشرين عاما ، وتلعب شخصية الأمير عبد الكريم الخطابى الدور الرئيسى فى تاريخ المقاومة . (١)

استنادا إلى معاهدة الحماية مارس الفرنسيون استغلالا متنوعا فى البلاد ، وعملوا على التفرقة بين العرب والبربر ، وكونوا لهم صنائع من كبار الأقطاعين الباشوات الذين مارسوا سلطات قضائية فى مقاطعاتهم ، كما سمحوا للشركات الأمريكية والأنجليزية أن تستثمر أموالها فى البلاد إلى جانب الشركات الفرنسية . وعلى أية حال فقد كانت مراكش أقل أقطار شمال أفريقيا العربية تأثرا بالأستعمار الفرنسى بسبب تأخر احتلالها عن الجزائر وتونس . ثم بسبب اشتعال الحرب العالمية الأولى بعد الاحتلال بعامين . حتى يمكن القول أن مراكش أقل هذه الأقطار نسبيا التى تغلغل فيها النفوذ الفرنسى اقتصاديا وثقافيا .

الاستقلال :

منذ خضوع مراكش للحماية الفرنسية والوجود الاسبانى المراكشى عام ١٩١٢ م بدأت الحركة الوطنية المراكشية ضد الوجود الاستعمارى الفرنسى والاسبانى ، وظهرت المقاومة المراكشية بقيادة الأمير عبد الكريم الخطابى فى الجبال الشمالية خلال السنوات من ١٩٢١ الى ١٩٢٦ م ، وخلال هذه السنوات أحرز الأمير عبد الكريم انتصارات كبيرة جعلت منه زعيما لشعب وقائدا لثوار وبدون أى منافس ، وأصبحت الأنظار تتجه اليه من مشرق العالم العربى . (٣)

ولكن نتيجة للتعاون الفرنسى الأسبانى ضد المقاومة المراكشية الوطنية منذ يوليو ١٩٢٥ م فقد انتهت المعركة بتسليم الأمير عبد الكريم فى ٢٦ مايو ١٩٢٦ م ونفيه الى جزيرة "ريونيون" وان لم تنطفىء شعلة الثورة الوطنية فى كل مراكش حتى عام ١٩٣٤ م (٣) ، ذلك أن الحركة الوطنية ظلت حية ونشطت خلال الثلاثينات من القرن العشرين رغم سيطرة الفرنسيين على كل مراكش وموريتانيا ووصلت استعمارها لمراكش بمستعمراتها فى السنغال وفى الجزائر .

(١) د . صلاح العقاد : المرجع السابق ص ٢٧٣ .

(٢) د . جلال يحيى : المغرب الكبير ص ٩٧٩ .

(٣) —New African year Book, P. 179

أخذت الحركة الوطنية المراكشية فى النشاط بظهور "لجنة العمل الوطنى" فى الثلاثينات من القرن العشرين التى تحولت الى ما صار يعرف باسم "حزب الاستقلال" عام ١٩٤٣ ، كما ظهرت روح السلطان محمد الخامس الذى ارتقى العرش منذ عام ١٩٢٧ الوطنية الثورية بمناصرته للحركة الوطنية المراكشية ، ومن هنا اندفع السلطان والزعماء الوطنيين الى التعاون وتناسى الخلافات لمواجهة الاستعمار الفرنسى ، وبحيث صار على فرنسا أن تواجه حركة وطنية متزايدة تصر على الاستقلال وتحترم السلطان .

ورغم موقف السلطات الفرنسية بنفى السلطان محمد الخامس عام ١٩٥٢ م واستخدم مغاربة متعاونين مع الفرنسيين أمثال محمد بن عرفة أحد أعمال محمد الخامس ، والقائد "الجبلاوى" وغيرهم فان الحركة الوطنية المراكشية ظلت مستقلة وازدادت استقلالاً وجرت محاولتين لاغتيال السلطان الجديد - محمد بن عرفة - مما اضطر الفرنسيين الى السماح بعودة السلطان الشرعى محمد الخامس من منفاه فى جزيرة مدغشقر فى نوفمبر ١٩٥٥ م . (١)
وبعد عودة محمد الخامس تشكلت حكومة امراكسية جديدة معظم أعضائها من حزب الاستقلال ، وهذه الحكومة هى التى تفاوضت مع الفرنسيين لخلق دولة مراكش المستقلة ذات السيادة ، وبالفعل حصلت مراكش على استقلالها فى ٢ مارس ١٩٥٦ م ، وبذلك كسبت معركتها الوطنية ، وفى شهر أبريل من نفس العام تخلت أسبانيا عن محاميتها فى الريف المراكشى ليتكون الشعب المراكشى المتحد ، وتغير لقب السلطان الى لقب ملك ، وفى نهاية عام ١٩٦٣ م سمح الجنرال فرانكوا رئيس الدولة الأسبانية لسكان المستعمرات الأسبانية فى جزر "فرناندوبو" و "ريمونى" ، الواقعة على الساحل الغربى لأفريقيا بحق تقرير المصير . (٢)

وبعد استقلال المغرب عاشت البلاد فى ظل حكومة ملكية استبدادية مستنيرة ، ولم يعجب هذا النظام بعض الوطنيين أعضاء "حزب الاستقلال" والمنشقين عنه الراديكاليين أعضاء "الاتحاد الوطنى للقوى الشعبية "بزعامة المهدى بن بركة" الذين طالبوا بدستور يحدد اختصاصات الملك والحكومة ، ولكن الملك محمد الخامس لم يقبل نتيجة أول انتخابات تجرى هناك - بعد الاستقلال - عام ١٩٦٠ والتى فاز فيها حزب "المهدى بن بركة" فوزا ساحقا ، وشكل الملك فى شهر مايو من نفس العام حكومة يرأسها بنفسه .

---

(١) —Ibid.
(٢) جون هاتش : تاريخ أفريقيا بعد الحرب العالمية الثانية ص ٤٢٥ .

وعندما توفى الملك محمد الخامس فى فبراير ١٩٦١ خلفه ابنه "الحسن الثانى" على العرش ، وقد سار الملك الجديد سيرة أبيه فى الأمساك بزمام السلطة ، وقد تعرضت المغرب لأحداث هزت النظام الحاكم فيها ، منها الصدام على الحدود المغربية الجزائرية عامى ١٩٦٢ و ١٩٦٣ م ، ومظاهرات الطلاب والعمال عامى ١٩٦٤ و ١٩٦٥ ، كما جرت عدة محاولات لاغتيال الملك الحسن الثانى فى عامى ١٩٧١ و ١٩٧٢ م ، وحدثت قلاقل عامى ١٩٧٣ و ١٩٧٤ م فى جبال قام بها رجال حرب العصابات الذين تدربوا فى ليبيا ، وقد حاول الملك امتصاص غضب الجماهير ببعض الاجراءات السياسية والاقتصادية ، وأصبح اهتمام الشعب المغربى مركزا حول قضية الصحراء المغربية .

" موريتانيا "

تقع موريتانيا فى حوض نهر السنغال ، ويسكن الجزء الشمالى منها عناصر مغربية ، بينما يغلب العنصر الزنجى على الجزء الجنوبى ، وقد شهد القرن التاسع عشر صداما بين سكان المنطقة المسلمين والتوسع الفرنسى من الجزائر فى اتجاه حوض نهر السنغال وبحيرة تشاد وقد انتهى هذا الصدام فى عام ١٩١٠ م بفرض الحماية الفرنسية ، وبذلك وضعت موريتانيا بكاملها تحت سيطرة الحاكم العام الفرنسى لغرب أفريقيا الفرنسية ومقره مدينة "داكار" وفى ٤ ديسمبر ١٩٢٠ م أصبحت موريتانيا مستعمرة تدار من مدينة "سانت لويس" بواسطة حاكم السنغال الفرنسى . (١)

وبعد الحرب العالمية الثانية حاولت سلطات الحماية الفرنسية ادخال بعض الاصلاحات فتشكلت حكومة محلية فى عام ١٩٥٦ ، وتبع ذلك انضمام موريتانيا للجماعة الفرنسية الأفريقية ، ثم حصلت موريتانيا على استقلالها من فرنسا فى ٢٧ نوفمبر ١٩٦٠ م ، وصار "المختار ولد دادة" رئيسا للجمهورية المورتانية الاسلامية رغم اعتراض المغرب ومطالبة المسئولين المغاربة بموريتانيا كأرض مغربية .

بدأت موريتانيا منذ استقلالها البناء الداخلى أمام صعوبات تمثلت فى الحساسية بين الشماليين الذين هم من أصل مغربى والجنوبيين الذين هم من أصل زنجى ، وصار هناك حزب واحد هو "حزب الشعب الموريتانى" الذى خلفه فى أبريل ١٩٧٣ م "اتحاد العمال الموريتانى" . وفى ٢٦ نوفمبر ١٩٧٣ صارت موريتانيا عضوا بجامعة الدول العربية . (٢)

---

(١) -- The African continon, P. 172.
(٢) -- New African yoar Book, P. 172

الفصل العاشر

الاستعمـــار الأيطالـــى

- في ليبيا .
- في الصومال .

"فى ليبيا"

الاستعمار :

كان خروج إيطاليا إلى الاستعمار متأخرا عن غيرها من الدول الأوربية ، وذلك بسبب تأخر وحدتها القومية ، وضعف إمكانيتها ، ومشكلاتها الداخلية المعقدة . . . وليس معنى هذا أن إيطاليا لم يفكر أهلها فى إقامة مستعمرات لهم خارج حدودهم قبل االوحدة القومية إذ أن الأيطاليين كانوا يرجون قبل إتمام الوحدة القومية أن تستطيع مملكة نابولى ـ النابلطان كما سماهم السنوسيون الأوائل ـ الاضطلاع بمهمة هذا التوسع الخارجى ، وكان كل ما يعنيهم مجرد التوسع لذاته فحسب سواء جرى هذا فى القارة الأوربية ذاتها أو فى بعض جزر البحر الابيض أو فى قطر من أقطار أفريقية الشمالية (١) .

ولعل من المفيد هنا أن نسجل الدوافع التى حدت بايطاليا غزو ليبيا ، ذلك ان إيطاليا خرجت من جهودها لتحقيق الوحدة القومية منهوكة القوى ومحملة بأعباء ومشكلات داخلية كالفقر وكثرة عدد العاطلين عن العمل (٢) ، إلى جانب الشعور بالنقص إزاء الدول الكبرى ذات المستعمرات (٣) بالأضافة إلى رغبة الأيطاليين فى استخدام رؤوس أموالهم واستثمارها فى مشروعات تعود عليهم بالنفع ويتدرب الشباب الأيطالى على الأعمال المنتجة .

ومما يجب ملاحظته أن أهتمام الأيطاليين بأقامة مستعمرات انصب فى المقام الأول على تونس أولا ثم طرابلس الغرب (ليبيا) ثانيا ، لاسيما وأن تونس جعلها قربها من إيطاليا تتمتع بميزة لاتضارعها فيها طرابلس . هذا التقارب الذى أدى فى العصور القديمة إلى وجود علاقات اقتصادية وسياسية هامة بين هذا الجزء من شمال أفريقية الذى كان يطلق عليه اسم قرطاجنه وبين إيطاليا ومنذ ذلك الوقت أخذ كل من شمال أفريقية وإيطاليا يؤثر فى الآخر ويتأثر به (٤) .

---

(١) د . محمد فؤاد شكرى : السنوسية دين ودولة ص ١٠٣ .
(٢) د . محمد السروجى : العلاقات التونسية الفرنسية من الحماية إلى الاستقلال ص ٧٢ .
(٣) د . زاهر رياض : شمال أفريقيا فى العصر الحديث ص ٢٢١ .
(٤) د . محمد السروجى : الموقف الدولى والاحتلال الأيطالى لطرابلس ـ مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية العدد ٢٢ ١٩٦٨ م . ص ٢٧ .

ولكن احتلال فرنسا لتونس عام ١٨٨١ م قد وجه ضربة لأطماع إيطاليا في تونس مما أساء العلاقة بين فرنسا وإيطاليا لدرجة جعلت الأيطاليين يتجهون صوب دول وسط أوربا ويتناسون العداء التقليدى مع النمسا بل ويدخلون فى تحالف مع ألمانيا والنمسا كان الفضل فى أبرامه لبسمارك المستشار الألمانى الذى كان من المحبذين لفرنسا لكى تحتل تونس فتنصرف عن التفكير فى إقليمى الألزاس واللورين ، وقد كسب بسمارك إيطاليا إلى جانبه مع النمسا فى تحالف ثلاثى (١) .

اتجه الأيطاليون إلى تحقيق مشروعات استعمارية فى شرق القارة الأفريقية بعد أن ضاع أملهم فى تونس ورغم ما صادفوه من نجاح فى أول الأمر باستيلائهم على إقليم إرتريا إلا أن هزيمتهم فى موقعة عدوة على يد الأحباش قد جعلهم يعيدون التفكير فى امتلاك أراض جديدة فى شمال أفريقيا وخصوصا فى ولاية طرابلس الغرب ، وهى الولاية الوحيدة التى بقيت خاضعة للدولة العثمانية فى شمال أفريقيا (٢) . وهكذا استغرقت جهود إيطاليا بعيدا عن ليبيا منذ عام ١٨٨٥ حين احتلت مصوع الى عام ١٩٠٢ حين عقدت مع فرنسا اتفاقية تحقق بها أهدافها الاستعمارية فى ليبيا .

وبعقد معاهدة ١٩٠٢ بين فرنسا وايطاليا التى قضت باطلاق يد إيطاليا فى ليبيا ويد فرنسا فى مراكش تبدأ سلسلة من الجهود الأيطالية فى ليبيا من أجل السيطرة عليها ، بدأت بفتح المدارس فى طرابلس وبنى غازى ، وإرسال الجماعات التبشيرية ، ولكن أهم من ذلك فتح فروع لبنك دى روما الذى أخذ يقرض الأهلين أموالا كثيرة بفوائد وشروط مجحفة ، إلى جانب أن القنصلية الأيطالية فى كل من طرابلس وبنى غازى كانت مركزا للنشاط السياسى والدعاية الأيطالية والتجسس على أهل البلاد ومراكز الدفاع عنها ووسائله (٣) .

---

(١) د . رأفت غنيمى الشيخ : تطور التعليم فى ليبيا فى العصور الحديثة ص ١٧٦ .
(٢) نفس المرجع ص ١٧٧ .
(٣) د . نقولا زيادة : ليبيا ص ٨٠ .

هذا إلى جانب وجود سياسيين إيطاليين يرسمون سياسة إيطاليا الاستعمارية ويتحمسون لها أمثال السنيور "كرسبي" رئيس الوزارة الأيطالية فى المدة من ١٨٨٧ - ١٨٩١ م ، ثم عودته للحكم من ١٨٩٣ - ١٨٩٦ م حيث سقط بسبب الفشل فى الحرب ضد الحبشة (١) ، ومثل السنيور "جوليتى" الذى تولى الوزارة من عام ١٨٩٢ إلى عام ١٨٩٣ م ثم عاد للحكم مرة أخرى عام ١٩١١ م حيث تم الغزو الأيطالى لليبيا فى عهد وزارته (٢) .

وكل هذا هيأ الأذهان سواء فى إيطاليا أو خارجها لفكرة استيلاء إيطاليا على ليبيا ، بل بلغ من قوة الدعاية الأيطالية أن صورت ليبيا بأن أراضيها مصدر خير وفير حتى بات الشباب الأيطالى يتغنى بطرابلس الجميلة ، والعاطلون الأيطاليون يتمنون الانتقال إليها فى ظل امتلاك إيطاليا لها ، ولذلك لانعجب أن نرى الحكومة الأيطالية تعلن الحرب على تركيا فى سبتمبر ١٩١١ م بحجة أن الضباط ورجال جمعية الاتحاد والترقى الجهلة المتعصبين عرضوا للخطر الشديد أمن الرعايا الأيطاليين بتحرضهم أهالى طرابلس الغرب وبنى غازى ضدهم (٣) .

لم يكن الغزو الأيطالى لليبيا إذن مفاجئا لأن الأطماع الأيطالية فى ليبيا لم تكن خافية على الليبيين والأتراك ، وقد بادر الليبيون منذ عام ١٩١٠ م بالأبراق إلى الصدر الأعظم ابراهيم حقى باشا يعلمونه بعزمهم على رد كل هجوم وطلبوا إرسال وسائل تحصينات طرابلس المهملة والذخائر الحربية والبحرية وأطعمة لمدة عام ، وأنهم سيدافعون عن وطنهم حتى آخر نقطة من دمائهم (٤) . ولكن ابراهيم حقى لم يعمل شيئا ، ولعل موقفه هذا يفسره أنه كان يعمل سفيرا لبلاده فى أيطاليا وزوجته إيطالية ، ومن ثم فهو متهم بالتواطؤ مع الطليان لتسليمهم الولاية (٥) .

---

(١) د . رأفت الشيخ : المرجع السابق ص ١٧٨ .
(٢) خليفته المنتصر : ليبيا قبل المحنة وبعدها ص ١٠ .
(٣) عزيز سامح : الأتراك العثمانيون فى أفريقيا الشمالية ص ٢١٤ .
(٤) نفس المرجع ص ٢١١ .
(٥) د . رأفت الشيخ : المرجع السابق ص ١٧٤ .

ويمكن القول أن تولى جماعة الاتحاد والترقى فى تركيا قد عجل بضياع طرابلس الغرب ، فسياسة التتريك التى سارت عليها تلك الحكومة فى الولايات العربية لم تلق ترحيبا من قبل السنوسية فى طرابلس الغرب ، بل إنها وقفت موقف عدم التأييد من إنشاء جمعية الاتحاد والترقى فى بنى غازى (١) ، بسبب رأى الاتحاديين فى بعض الأمور الدينية التى كان السنوسيون يخالفونهم فيها ، مما نفر الليبيين من الحكم العثمانى ، وجعل العثمانيين مسئولين عن حدوث الغزو الأيطالى لليبيا .

حدث الغزو الأيطالى لليبيا فى سبتمبر ١٩١١ م ، ولكن الليبيين لم يستسلموا بل قاموا حتى بعد أن اضطرت تركيا المتهالكة إلى استجداء الصلح مع إيطاليا ، والذى تم بوساطة انجلترا فى لوزان بسويسرا فى أكتوبر ١٩١٢ م ، وإذا كانت القوات التركية قد شاركت فى صد الغزو فى أوله إلا أن القوات كانت مبعثرة هنا وهناك ، وكانت تجهيزاتها الحربية وتدريباتها العسكرية ضعيفة وقليلة بحيث حمل المواطنون العرب فى ليبيا عبء القتال وحدهم بمساعدات مادية ومعنوية من الدول العربية والأسلامية وعلى رأسها مصر وتونس (٢) .

ونتيجة لمعاهدة لوزان منح السلطان العثمانى أهل ليبيا الاستقلال الذاتى فى الوقت الذى لايملك فيه هذا الحق ، ولكنه منشورا دعائى يحفظ به ماء وجهه أمام الشعوب العربية والأسلامية ، ذلك أن ملك إيطاليا أصدار فى الوقت نفسه منشورا إلى الليبين يذكر لهم فيه بأن بلادهم خاضعة خضوعا تاما للسيادة الملكية الأيطالية ، ويعفو فيه عن الليبيين ، ويعدهم بالمحافظة على الشعائر الدينية الأسلامية ويسمح لهم فيه بذكر اسم جلالة السلطان الأعظم بصفته خليفة المسلمين فى الصلوات العامة (٣) . بل وسرعان ما صار الأيطاليون يعتبرون المجاهدين الليبيين مجرد عصاة وثوار خارجين على الحكومة الشرعية ـ الحكومة الأيطالية ـ فى مقاومتهم ، يستحقون لذلك الأعدام شنقا أو رميا بالرصاص إذا ماوقعوا فى أيدهم (٤) .

---

(١) د . محمد السروجى : المرجع السابق ص ٣٧ .
(٢) د . رأفت الشيخ : المرجع السابق ص ١٨٣ .
(٣) د . نقولا زيادة : ليبيا ص ٨٣ - ٨٤ .

(٤) د . محمد فؤاد شكرى : المرجع السابق ص ١٣١

ولكن الليبيين لم يرهبهم ما حدث لهم من مذابح دموية أو إحراق مساكنهم ومزارعهم ومواشيهم ومن ثم استمر كفاحهم ضد قوات الغزو الأيطالى الغاشم رغم انسحاب القوات التركية ، وتحمل السنوسيون عبء النضال فى برقة بأسلوب حرب العصابات فى الجبل الأخضر الذى سيطر الأيطاليون على قسم كبير منه خاصة مدته ، والذين صمموا على المضى فى الغزو رغم تكبدهم نفقات ودماء كثيرة ، فى الوقت الذى عملت فيه السنوسية خصوصا حين تزعمها السيد محمد إدريس على عقد اتفاق مع إيطاليا لأقرار الأمور فى برقة لصالح أهلها الذين طحنتهم المعارك الحربية وسياسة التجويع والتشريد ولأبادة التى اتبعتها قوات الاحتلال .

وقد تم بالفعل عقد عدة اتفاقيات بين السنوسية وإيطاليا فى السنوات من ١٩١٧ إلى ١٩٢١ أمنت للبرقاويين عبادتهم وملكيتهم الفردية وإنشاء المدارس واحترام لغة البلاد إلى جانب إنتخاب مجلس نيابى يساعد الأمير السنوسى الذى اعترفت به إيطاليا وانجلترا أميرا لبرقة ولكن إيطاليا لم تكن مخلصة فى هذه الاتفاقيات بل سعت إلى الوقيعه بين أهل البلاد حتى تضرب ضربتها بالتخلص من الحركة الوطنية الليبيية ، وقد ضيقت حكومة الاحتلال على الأمير السنوسى حتى ترك برقة وانتقل إلى مصر عام ١٩٢٢ م تاركا قيادة الجهاد فى برقة للسيد عمر المختار أحد شيوخ الزاويا ، خاصة وأن الحزب الفاشستى كان قد استولى على الحكم فى إيطاليا فى خريف هذا العام ، وسياسة اتباع العنف بصورة أشد مع الليبيين .

وأما فى طرابلس فقد استمر الكفاح يقوده زعماء القبائل أمام زحف القوات الأيطالية وإرهابها للأهالى حتى تم اختيار سليمان البارونى رئيسا لحكومة وطنية فى طرابلس ولكنه اضطر أمام ضغط الأيطاليين إلى ترك البلاد إلى الأستانة ، ولكن الكفاح ظل مستمرا وتدفق المتطوعون إلى ميادين القتال والتحقوا بالمعسكر العثمانى بضواحى طرابلس وقلوبهم تلتهب حماسة وغيرة وإخلاصا وأن المهمة مبذولة فى تأليف جيش كبير من المتطوعين تحت رئاسة ضباط مصر المتقاعدين وأكدت الصحف المصرية سفر قوافل عديدة من مطروح وبرانى وأولاد على تحمل معها الذخيرة مدججة بالسلاح الحديث (١) .

وحاول الطرابلسيون تنظيم صفوفهم أثناء انشغال إيطاليا بمعارك الحرب العالمية الأولى ورغبتها فى تسكين جبهة القتال فى طرابلس حتى تنتهى الحرب ، ومن ثم حصل الطرابلسيون على اعتراف من إيطاليا فى ٢١ إبريل ١٩١٩ بموجب صلح بنى آدم

---

(١) صفحات خالدة من الجهاد للمجاهد الليبى سليمان البارونى ص ١١٤

بالجمهورية الطرابلسية التى أقيمت منذ نوفمبر ١٩١٨ م والتى اختير كل من سليمان الباروني ورمضان السويحلي وأحمد المريض وعبد النبى بلخير لرئاستها ، والتى عمل لها المجاهد المصرى عبد الرحمن عزام مستشارا بعد أن أسهم فى قيامها .

ولكن النزاعات الداخلية قد فتت فى وحدة المجاهدين وأعطت الفرصة للأيطاليين ، وكان أهم هذه النزاعات النزاع بين السنوسية ورمضان السويحلي زعيم مصراته التى اتخذت شكل التعصب القبلى . هذا إلى جانب الخلافات بين زعماء الجهاد فى طرابلس مثل الخلاف بين رمضان السويحلي فى مصراته وعبد النبى بلخير فى أورفلة وغيرهم (١) . وبسبب عدم وجود الزعيم القوى كما هو الحال فى برقة جعل الحكومة الأيطالية تتدخل فى كل كبيرة وصغيرة ، فوجد الزعماء من صالحهم الاعتراف لزعيم واحد بالسلطة العليا ورأوا فى السيد إدريس السنوسى أمير برقة الزعيم المسلم القوى (٢) ، فاتجهوا إليه يبايعونه بالزعامة فى نوفمبر ١٩٢٢ م بوجود مجلس شورى من ٢٢ عضوا يمثلون الجهات المختلفة . وقد اعترفت ايطاليا بذلك فى بادىء الأمر ثم لم تلبث أن بدلت سياستها بسيطرة الفاشست على الحكم فى روما وطرابلس .

ولكن الليبيين لم يستسلموا للضغط والأرهاب الفاشستى ، بل استمر كفاحهم حتى انتهى تقريبا عام ١٩٣١ م بالتخلص من قائد النضال فى برقة عمر المختار ، وان ظل الأمل يراود الليبيين فى ازاحة الاحتلال الايطالى حتى انتهت الحرب العالمية الثانية وتنهزم ايطاليا وتجبرها قوات الحلفاء على ترك ليبيا .

"الاستقلال"

عقب جلاء القوات الأيطالية عن ليبيا عام ١٩٤٣ م خضعت كل من طرابلس وبرقة لادارة عسكرية بريطانية ، بينما خضعت فزان لادارة عسكرية فرنسية ، حتى أعلن فى ٢٤ ديسمبر ١٩٥١ م استقلال ليبيا المتحدة بولاياتها الثلاث (طرابلس ، برقة ، فزان) ، والمناداة "بمحمد ادريس السنوسى" ملكا على ليبيا ، وظلت تحمل اسم المملكة الليبية المتحدة حتى صدر قرار ملكى فى ٢٧ أبريل ١٩٦٣ م بانهاء النظام الاتحادى واصبح الاسم المملكة الليبية .

---

(١) د . رأفت الشيخ : المرجع السابق ص ١٨٤ .
(٢) د . زاهر رياض : المرجع ص ٢٤٤ .

ولكن الوعى الوطنى الراديكالى بدأ يطفو على السطح منذ عام ١٩٦٦ م باجتماع أول مؤتمر لاتحاد الطلبة الليبيين الذى كانت له علاقات قوية مع بعض الاتجاهات الوطنية المحلية والعربية . وفى عام =١٩٦٧ قاد "سليمان المغربى" المحامى المتعلم فى الولايات المتحدة أول اضراب لعمال النفط فى ليبيا مما دفع الملك الى تعيين مجموعة من الشباب فى وظائف الدولة العليا ، وتدعيم أجهزة الشرطة وتقوية علاقاته مع دول الغرب ، ولكن الثورة العسكرية انفجرت فى الأول من سبتمبر ١٩٦٩ م أطاحت بالملك ادريس ، وقاد الثورة مجلس قيادة الثورة من الضباط الوحدويين الاحرار الشباب بقيادة "معمر القذافى"

وكان اهتمام الثورة الأول هو انهاء القواعد البريطانية والأمريكية فى الأرض الليبية ، وقد تم ذلك بالفعل فى شهر مارس (للقواعد البريطانية) ويونيو (للقواعد الأمريكية) عام ١٩٧٠ م ، ثم كانت الخطوة الثانية اعلان "ميثاق طرابلس" بين مصر والسودان وليبيا فى ديسمبر عام ١٩٦٩ م ، ثم اعلان قيام "اتحاد الجمهوريات العربية" بين مصر وسوريا وليبيا فى القاهرة فى أبريل ١٩٧١ م . وفى أغسطس عام ١٩٧٢ م أعلن عن وحدة اندماجية بين مصر وليبيا ولكن موقف معمر القذافى من حرب أكتوبر الى جانب اعتماده تماما على السوفييت وتشجيعة للارهاب الدولى جعله معزولا عن العالم العربى .

"فى الصومال"

الاستعمار :

تسابقت كل من انجلترا وفرنسا وإيطاليا حول ممتلكات مصر الأفريقية بصفة خاصة وحول ساحل أفريقيا الشرقى وساحل البحر الأحمر الأفريقى بصفة عامة فقد تأسست مستعمرة انجليزية على أنقاض الممتلكات المصرية عرفت بالصومال الانجليزى ضمت موانى زيلع وبلهار وبربرة على خليج عدن ، وهى التى استولى عليها الانجليز منذ أن أخلاها المصريون بين عامى ١٨٨٥ ، ١٨٨٨ م . وأبلغت بريطانيا الدول الأوربية - تطبيقا لقرارات مؤتمر برلين - أن الساحل الصومالى ابتداء من رأس جيبوتى إلى بندر زيادة قد وضع تحت الحماية البريطانية (١) وكان هذا التبليغ إيذانا وإعلانا بتأسيس المستعمرة البريطانية فى الصومال فى مواجهة المستعمرة البريطانية فى عدن ومعنى ذلك أن بريطانيا أمسكت بباب المندب مدخل البحر الأحمر الجنوبى فى الوقت الذى تسيطر فيه على مصر وقناة السويس شمالا منذ احتلال قواتها لمصر عام ١٨٨٢ م .

وكانت انجلترا تبذل قصارى جهدها لكى تبعد أطماع الدول الأوربية عن حوض النيل وذلك منذ إخلائه من المصريين وسيطرة المهدية عليه ، وذلك لكى يصبح منطقة نفوذ لها وحدها وكانت فرنسا الدولة الأوربية المعاندة لمشروعات بريطانيا فى مصر والسودان بل وفى شرق ووسط أفريقيا ، قد دأبت على مضايقة انجلترا فى مصر ، ورأت أن تدبر حملة عسكرية تغرس العلم الفرنسى فى فاشودة تستعمله سلاحا للضغط على انجلترا سياسيا لاجلائها عن مصر (٢) . وكانت انجلترا تدرك أطماع فرنسا ، ولذلك نجد السير "ادوارد جراى" وزير الخارجية البريطانية يرد على سؤال فى مجلس العموم البريطانى فى عام ١٨٩٥ م قائلا : أن انجلترا لها صفة الوصية المكلفة بالدفاع عن مصالح مصر ، وبما لها مطالب فى وادى النيل فان منطقة النفوذ البريطانى تشمل جميع وادى النيل (٣) .

---

(١) د . محمد مصطفى صفوت : مؤتمر برلين ١٨٧٨ م ص ٥٦ .

(٢) د . صلاح العقاد : المغرب العربى ص ٢٠٥ .

(٣) د . زاهر رياض : المرجع السابق ص ٢٠٠ .

(٤) د . صلاح العقاد : المرجع السابق ص ٢٠٧ .

وكانت فرنسا قد بدأت تأسيس مستعمرة لها فى الساحل الصومالى منذ أن استولت على ميناء أبوك عام ١٨٨٥ م وفرضت الحماية على تاجورة وما جاورها وتأسيس ميناء جيبوتى (١) ، ومن ثم تلامست مناطق النفوذ لكل من انجلترا وفرنسا فى الصومال فعقدت بين الدولتين معاهدة عام ١٨٨٨ م . وكان التدخل الفرنسى فى الشئون الداخلية لسلطنة زنجبار وممتلكاتها على الساحل الصومالى ١٨٥٩ م من أجل الحصول على مواقع فرنسية على الساحل الصومالى فى مواجهة المركز الأستعمارى الذى كانت بريطانيا قد حصلت علية فى زنزبار ذاتها منذ عام ١٨٤١ م (٢) ونتيجة معاهدة ١٨٨٨ م مع انجلترا تأسس الصومال الفرنسى تحت إدارة موحدة جعلت عاصمته ميناء جيبوتى .

كانت انجلترا منذ أن فرضت على مصر سياسة إخلاء السودان تتخذ موقفا متناقضا فبينما تعلن لمصر أن السودان وأملاك مصر فى أفريقية قد صارت أرض خلاء لا مالك لها نجدها تقف أمام تحقيق الأطماع الاستعمارية الأوربية فى أملاك مصر الأفريقية بدعوى أن حقوق السيادة على هذه الأملاك لمصر ، ولايعنى أنها معطلة الآن بسبب سيطرة الثورة المهدية انتهاؤها ومن ثم وجدنا إنجلترا تتصرف فى هذه الأملاك وكأنها الوصية عليها تعطى لمن تشاء من الدول أجزاء من هذه الأملاك وتقف دون الدول الأخرى .

وكانت إيطاليا تطمع فى أجزاء من ممتلكات مصر على ساحل البحر الأحمر منذ أواخر السبعينات من القرن التاسع عشر ، وكانت مصر تعارض مشروعات إيطاليا فى هذه الجهات التى اتخذت من النشاط التجارى ستارا تخفى به غرضها ، وقد أيدت انجلترا مصر فى معارضتها لنشاط إيطاليا ولكن فى عام ١٨٨١ م وجدنا إنجلترا تغير سياستها نحو إيطاليا ، والسر فى ذلك تكشف عنه مذكرة فى سجلات وزارة الخارجية الانجليزية كتبت فى سبتمبر تقول :

إن الفرنسيين يبذلون أقصى جهد لأخراج مصر من قبضة انجلترا (٣) . وبناء على موافقة انجلترا تحولت ميناء عصب إلى مستعمرة إيطالية فى يونيو ١٨٨٢ م ، كما احتل الأيطاليون بلدة بيلول الواقعة إلى الشمال من خليج عصب وكانت بها حامية مصرية طردتها السلطات الأيطالية وكان ذلك فى يناير ١٨٨٥ م ، وفى الشهر التالى احتلت إيطاليا مصوع ، وبذلك سيطرت على كل الساحل من عصب إلى مصوع ، ومن ثم تأسست مستعمرة أرتريا الأيطالية على خساب ممتلكات مصر .

---

(١) د . رأفت الشيخ : أفريقيا فى العلاقات الدولية ص ١٣٠ .

(٢) Coupland. E. Exploitation of East Africa, P. 338.

٣ - د . محمد صبرى : المرجع السابق ص ١٦٥ .

تم تحقيق النشاط الأيطالى فى ساحل البحر الأحمر المصرى بموافقة انجلترا التى لاتخشى من إيطاليا كما تخشى من فرنسا ، فمن الطبيعى إذن أن يتفق الطرفان حتى تصبح إيطاليا عونا للانجليز ضد الدراويش ـ المهديين ـ من ناحية والفرنسيين من ناحية أخرى ، لهذه الأسباب أعطت مصوع لأيطاليا ثم شجعت على تأسيس مستعمرة أرتريا وإرسال بعثات علمية وتجارية إلى إقليم هرر ، كذلك تفاهمت الدولتان سرا على أن جميع الأراضى الحبشية تعتبر دائرة نفوذ لأيطاليا وتستطيع أن تؤسس فيها إمبراطورية (١) ، كما سمح الانجليز لأيطاليا باحتلال مديرية كسلا السودانية التى كانت آنذاك فى دائرة سيطرة المهديين .

ومالبثت إيطاليا بعد أن تأسست مستعمرة أرتريا أن اتجهت أنظارها إلى ساحل الصومال الشرقى فأرسلت سفينة حربية إيطالية إلى مياة ساحل الصومال المطل على المحيط الهندى لكشف هذه الأصقاع تمهيدا لاحتلالها وضمها إلى الممتلكات الأيطالية التى كانت حكومة روما تعمل على تكوينها بمساعدة انجلترا فى شرق أفريقيا (٢) . وأعقب ذلك احتلال إيطاليا لبقية الساحل الجنوبى لخليج عدن بعد حدود الصومال الانجليزى . وفى فبراير ١٨٨٩ م قبلت سلطنة أوبيا ـ فى الصومال ـ الحماية الأيطالية (٣) .

وقد بدأ تأسيس المستعمرة الأيطالية فى الصومال بحصول شركة إيطالية فى عام ١٨٨٦ م على حق استغلال موانى كيسمايو (قسمايو) وبرافا ومركة ومقديشيو من شركة شرق أفريقية البريطانية لمدة خمس وعشرين سنة تتجدد لمدة أخرى إذا رغبت الحكومة الأيطالية فى ذلك (٤) وقد توسعت إيطاليا فى استغلالها حتى اصطدمت بالحبشة ، فتم عقد معاهدة "أوتشيالى" بين إيطاليا والحبشة فى ٢ مايو ١٨٨٩ م وهى المعاهدة التى أثارت خلافا بين الطرفين بسبب تفسير المادة ١٧ منها التى نصت على أنه يجوز لملك الحبشة أن يعتمد على الحكومة الأيطالية فى مباشرة السياسة الخارجية للحبشة . وكان هدف الأيطاليين من ذلك هو تحقيق الأدعاءات الحبشية على كل الأقليم من هرر حتى النيل . (٥)

---

(١) د . على ابراهيم عبده : المنافسة الدولية فى أعالى النيل ص ١١٠
(٢) د . السيد حراز : التوسع الأيطالى فى شرق أفريقية . . ص ١٧٨
(٣) د . محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان ص ٤٤٩ .
(٤) د . زاهر رياض : المرجع السابق ص ٢٢٦ .
(٥) د . رأفت الشيخ : افريقيا فى العلاقات الدولية ص ١٥٧

وقد أرادات ايطاليا أن تحصل على تأييد انجلترا وموافقتها على ادعاءاتها فى شرق أفريقيا بصفة عامة ، ومن ثم عقدت اتفاقات بين الطرفين فى مارس وأبريل عام ١٨٩١ م اعترفت فيها انجلترا بخضوع أكبر جزء من أراضى السودان المصرى التى تقع بين هضبة البحيرات "ورأس جردافوى" للنفوذ الأيطالى كما اعترفت بكل إثيوبيا وجزء من التاكاو سنار التابعتين لمصر داخل منطقة النفوذ الأيطالى فى شرق أفريقية (١) . وهذه الاتفاقات تنظم الحدود بين مناطق النفوذ الانجليزى والأيطالى فى الصومال بما يبعد عن الصومال الفرنسى وقد استكمل تخطيط الحدود بين الصوماليين الأنجليزى والأيطالى فى اتفاق ٥ مايو ١٨٩٤ م بين انجلترا وإيطاليا (٢) .

انطلقت إيطاليا تحقق ادعاءاتها على الحبشة متخذة مَن مستعمرة أرتريا مركزا لنشاطها ولكن الأحباش رفضوا التفسير الأيطالى لمعاهدة أوتشيالى فدارت معركة حاسمة فى "عدوة" فى أول مارس ١٨٩٦ م كانت نتيجتها فى صالح الاحباش مما أضطر الأيطاليين إلى ترك أحلامهم فى شرق أفريقيا . وعقدت معاهدة بين إيطاليا والحبشة عرفت بمعاهدة أديس أبابا فى أكتوبر من السنة نفسها ، وفيها حددت الحدود نهائيا بين المستعمرة وأثيوبيا - الحبشة (٣) ونتيجة لمعركة عدوة تحول الاهتمام الأيطالى فى شرق أفريقيا من التوسع على حساب الممتلكات الحبشية إلى التوسع فى الساحل الصومالى ، وقد استطاعت إيطاليا بالفعل تدعيم نفوذها فى موانى قسمايو وبرافا ومركة ومقديشيو حتى وصلت أملاكها إلى رأس دجادو فى الشمال ، وكونت من هذه الجهات مستعمرة ثانية فى أفريقيا عرفت بمستعمرة الصومال الأيطالى ظهرت للوجود فى بداية القرن العشرين (٤) وهكذا انتهى التنافس الدولى فى شرق أفريقية بخضوع الأجزاء الشمالية منه لسلطة إيطاليا وهى الأجزاء المعروفة بساحل البنادر - الساحل الصومالى - وستظل فى إدارة هذه الأجزاء حتى الحرب العالمية الثانية . (٥)

---

(١) د . السيد الجزار : المرجع ص ٣٤١
(٢) د . محمد فؤاد شكرى : المرجع السابق ص ٤٥١
(٣) د . زاهر رياض : المرجع السابق ص ٢٢٧
(٤) د . رأفت الشيخ : المرجع السابق ص ١٥٨
(٥) د . جلال يحيى : التنافس الدولى فى شرق أفريقية ص ٢٨٢

نشأت الحركة الوطنية فى الصومال فى احضان رجال الدين ، بمعنى ان العلماء ومشايخ الطرق الصوفية تصدوا لقيادة الحركة الوطنية الصومالية ، فقد قاد السيد محمد عبد الله حسن العالم العامل حركة الجهاد ضد الوجود البريطانى فى الصومال الشمالى من عام ١٨٩٩ الى ١٩٢٠ عندما توفى محمد عبدالله حسن ، وكان الانجليز يطلقون علية اسم " الشيخ المجنون" وعلى انصاره الدراويش (١) .

كما ثارت القبائل الصومالية فى منطقة بنادر ضد الغزاة الإيطاليين ، وشهدت مناطق" أفجوى " و " مقديشو " و " ترنلى " و" طنانه " وغيرها معارك دامية بين المجاهدين الصوماليين والايطاليين ، خاصة بعد تعاون ثوار البنادر مع ثوار الصومال البريطانى مما دفع بأيطاليا الى أن تلجأ الى الايقاع بين ثوار البنادر (فى الجنوب) وبين محمد عبد الله حسن ، وقد نجح الأيطاليون فى هذا الميدان فأنقسمت الحركة الوطنية الصومالية .

واذ كانت الحركة الوطنية الصومالية قد انتكست بوفاة محمد عبد الله حسن ومؤامرات الاستعمار لتفتيت هذه الحركة ، فان سنوات الحرب العالمية الثانية وما بعدها شهدت ظهور أحزاب وجمعيات وطنية مثل حزب " وحدة الشباب الصومالى " " وحزب الرابطة الوطنية الصومالية " وغيرها الداعية الى استقلال ووحدة الصومال الكبير(الصومال البريطانى ، الصومال الايطالى ، الصومال الفرنسى ، ومنطقة أوجادين وهود التى استولت عليها اثيوبيا ، واقليم انفدى الخاضع لسيطرة الاستعمار البريطانى فى كينيا) .

وبعد الحرب العالمية الثانية تقدمت الحركة الوطنية الصومالية بمطالبها الوطنية الى هيئة الأمم المتحدة التى وافقت فى عام ١٩٤٩ ونتيجة لمؤامرات الدول الاستعمارية - على ان تكون الصومال تحت وصاية الأمم المتحدة وتصبح دولة مستقلة ذات سيادة بعد عشر سنوات ، وان تكون ايطاليا هى الدولة الوصية نيابة عن الأمم المتحدة وأن يكون للهيئة الدولية مجلس استشارى مقيم فى الصومال يضم ممثلين عن مصر والفلبين وكولومبيا ومهمته مراقبة عملية نقل الصومال من مرحلة الوصاية الى مرحلة الاستقلال .

---

anney , j.j. : Nhe hew States of Africa, p.69

ونتيجة لهذه الجهود أعلن استقلال الصومال الشمالى فى ٢٦ يونير ١٩٦٠ بينما أعلن استقلال الصومال الجنوبى فى اول يوليو من نفس العام ، وفى اليوم الثانى من يوليو ١٩٦٠ اجتمعت الجمعية الوطنية فى الصومال الجنوبى والمجلس التشريعى للصومال فى قاعة البرلمان بمقديشو ، وفى جو يسوده الأبتهاج والفرح تم اتحاد الأقليمين لتظهر الجمهورية الصومالية(١) .

ومنذ عام ١٩٦٠ والجمهورية الصومالية تسعى لتوحيد بقية الأقاليم الصومالية الخاضعة للنفوذ البريطانى فى شمال كينيا وللسيطرة الايثوبية فى اقليم الصومال الغربى (أوجادين) ، وفى مستعمرة الصومال الفرنسى . وعندما قامت الثورة الاشتراكية فى الصومال بقيادة اللواء " محمد سياد برى " فى ٢١ اكتوبر ١٩٦٩ واصل الصومال سعيه فى ضم الاقاليم الصومالية الى الجمهورية الصومالية ، ولكن دون جدوى مما دفع الصومال الى تدعيم جبهة تحرير الصومال الغربى لكى تحقق مطالبها ما أدى الى صدام بين الصومال واثيوبيا ، ومازال الجو متوترا بين الطرفين لاصرار اثيوبيا على تمسكها باقليم" أوجادين " الصومالى .

واما الصومال الفرنسى فقد نجحت فرنسا فى أبعاد اهله عن الوطن الأم واعنى الصومال وانتهى الامر باستقلال هذا الاقليم تحت اسم مستعمرة جيبوتى عام١٩٧٧م . ومازال صوماليو شمال كينيا يخضعون لهذه الدولة ولم ينضموا الى الوطن الام حتى اليوم .

وقد اتخذت ثورة اكتوبر ١٩٦٩ سياسة اشتراكية والفت جميع الاحزاب السياسية وشكلت حزبا واحدا وهو الحزب الحاكم تحت اسم " الحزب الثورى الاشتراكى الصومالى " واكدت رلى تأييد حركات التحرير فى العالم والعمل من اجل" الصومال الكبير" بكل الوسائل المتاحة .

. . . .

وقد بذل العضو المصرى فى مجلس الوصاية الاستشارى وهو كمال الدين صلاح الكثير من الجهد من اجل تقريب الادارة الأيطالية نحو المطالب الصومالية ، ووضع برنامجا كبيرا لالحاق مئات من الدارسين الصوماليين فى برامج دراسية فى المدارس المصرية ولأيقاظ الوعى الصومالى ضد القوى الاستعمارية(٢) .

---

(١) احمد عبد الله ربراش : كشف الدول عن تاريخ الصومال ، ص ٢٣٤

OP. Cit.,.p.73.

الجزيـــــرة العربيـــــة
أولا : المملكة العربية السعودية

كانت مسيرة الدولة السعودية ـ التي اسسها عبد العزيز بن سعود ابتداء من عام ١٩٠١ ـ تختلف عن مسيرة البلاد العربية المجاورة ، كما أنها تعرضت لضغوط استعمارية وعلاقات من الدول الطامعة في المنطقة ولكن اتخذت هذه العلاقات شكلا خاصا جوهره بناء دولة مستقلة في قلب الجزيرة العربية تحت رآية آل سعود دون صدام مباشر مع القوى الاستعمارية والافادة من هذه القوى لمصلحة مستقبل البلاد .
ومن المعروف أن عبد العزيز بن سعود استرد الرياض في ١٩٠١ واستطاع خلال السنوات القليلة التالية أن يوحد نجد تحت سيطرته ثم عمل على توسيع رقعة سيطرته مستغلا التطورات الدولية ، من ذلك أنه انتهز فرصة اضطراب الأحوال في الأحساء(العثمانية)والصدام بين القوى المحلية من جهة والجند والأدارة العثمانية من جهة أخرى ، والأزمة المتصاعدة بين الانجليز والدولة العثمانية ، استغل هذه الظروف في ضم الأحساء إليه في عام ١٩١٣ .
وعندما وقعت الحرب العالمية الأولى عملت بريطانيا على جذب عبد العزيز بن سعود الى جانبها كما سعت الدولة العثمانية الى كسبه ولكنه فضل أن يقف على الحياد الحذر حتى اذا ما ضغطت عليه إمارة حائل المتحالفة مع الدولة العثمانية اتجه الى قبول نوع من الحماية البريطانية لدولته فيما عرف باتفاقية دارين عام ١٩١٥
وعندما وجدت بريطانيا أنها في حاجة الى ثورة عربية تواجه بها اعلان السلطان العثماني للجهاد ضد الحلفاء وجدت بريطانيا في الشريف حسين استعداد لتزعم هذه الثورة كما وجد فيه الثوريون العرب الزعيم القادر على التحرك العسكرى ضد الأتراك العثمانيين سعيا نحو الحصول على استقلال حقيقي للبلاد العربية .وفعلا اتفقت بريطانيا مع الشريف حسين على ثورة عربية ضد الدولة العثمانية ولكن بريطانيا رفضت مطالب الشريف حسين المتعلقة بأقامة دولة عربية متحدة تشمل الهلال الخصيب بالأضافة الى الحجاز والجزيرة العربية .
وكان أمل الشريف حسين في أنه باحراز النصر النهائي ضد الدولة العثمانية فانه سيحقق هذه الدولة العربية ولكن انجلترا وفرنسا نفذتا نظام الانتداب في الهلال الخصيب وبقى الشريف مجرد ملك على الحجاز . وكان إضرار الشريف حسين على تحقيق أهدافه وعلى

أن يكون هو خليفة المسلمين ـ بعد الغاء كمال أتاتورك الخلافة العثمانية ـ من العوامل الرئيسية التى جعلت السلطات الانجليزية ترى فى الشريف منغصا لهم وليس حليفا.
بينما كان عبد العزيز بن سعود يتبع سياسية حياد ميال الى بريطانيا الأمر الذى أصبح عبد العزيز بن سعود لدى السلطات الانجليزية حاكما عربيا يمكن الاعتماد عليه والتفاهم معه . ولذلك كانوا خلال الحرب العالمية الاولى وفى أعقابها يرفضون محاولات الشريف الهادفة الى سيطرته على عبد العزيز بن سعود ودولته ، ومن ذلك أنه لما وقع خلاف على الحدود بين سلطنة نجد والملك حسين فى ١٩١٩ كان الانجليز غير راضين عن تحرك الشريف ضد ابن مسعود .
اتخذ الانجليز موقفا محايدا من الصراع بين عبد العزيز بن سعود من جهة والشريف حسين وحلفائه ـ وخاصة امارة آل الرشيد فى حائل ـ من جهة أخرى . واتبع عبد العزيز تخطيطا منطقيا فى هذه المواجهة ، حيث صفى اولا امارة آل رشيد وضمها الى سلطنته عام ١٩٢١ م ثم ركز على ضرب الشريف حتى استولى على الحجاز وضمه وأعلن نفسه عليه فى يناير عام ١٩٢٦م .
أدى ضم الحجاز الى أن يصبح مصير عسير معلقا بين إمام اليمن وعبد العزيز بن سعود . والمعروف أن عسير تحت حكم الأدارسة كانت تستند الى الدعم الخارجى للبقاء امام تطلعات اليمن ولذلك كانت ذات علاقات قوية مع ايطاليا وبريطانيا قبيل وخلال الحرب العالمية الأولى ، واستولت القوات البريطانية على الحديدة خلال الحرب العالمية الاولى ثم سلمتها لعسير ، فلما أنهى عبد العزيز بن سعود ترتيب دولته اتجه الى ضم عسير على اعتبار أنها كانت جزءا من ممتلكات أسلافه من آل سعود ، وكانت المواجهات الرئيسية بين عبد العزيز بن سعود وإمام اليمن فى عام ١٩٣٤ بصفة خاصة ، وظهرت فاعلية الأسلحة التى أدخلها عبد العزيز بن سعود فى الجيش فكانت حربا قصيرة استولى خلالها عبد العزيز بن سعود على عسير وبذلك أصبحت مملكته على هذا النحو من الاتساع تحدها اليمن والمحميات فى الجنوب العربى وعمان والأردن .
فكان طبيعيا أن تنشأ مشكلات الحدود وكانت أشدها مع الاردن والكويت اذ تدخل الطيران البريطانى ضد " الاخوان " الذين كانوا يشكلون القوة الضاربة لعبد العزيز بن سعود ، وأمكن تسوية مشكلات الحدود هذه تارة بتحديدها وأخرى بتحديد مناطق محايدة بين السعودية وجيرانها مثل الكويت والعراق نظرا لاتساع مجال حركة تنقلات القبائل ولعدم وجود ظواهر طبيعية تعين على تحديد الحدود .

فما هى العوامل الرئيسية التى أدت الى هذا التفوق المتتالى ونجاح بن سعود فى إقامة هذه المملكة الشاسعة ؟

١ - لاشك أن عبد العزيز بن سعود كان على مستوى معين من الرجمانية فان كانت النظرية غائبة عنه الا أنه كان عمليا معظم خطواته ويدل على ذلك تتابع انتصاراته خلال عملياته فى اقامة مملكته على طريقة الخطوة خطوة .

٢ - لاشك ان الأرضية الوهابية الراسخة فى قلب الجزيرة العربية وفى البلاد التى أخذت بتلك الدعوة الوهابية منذ النصف الثانى من القرن الثامن عشر ساعدت عبد العزيز بن سعود ليس فقط فى استعادة عاصمة آل سعود(الرياض) فى عام ١٩٠١ ولكنها كذلك ساعدته فى توحيد المملكة .

٣ - اعتمد عبد العزيز بن سعود على تنظيم عقائدى عسكرى وعرف بالاخوان بينما كان خصومه يعتمدون على المرتزقة مثلما كان الحال مع الشريف حسين أو على القبائل وكانت معظم القبائل سريعة التذبذب فى الولاء .

٤ - كان عبد العزيز على دراية عميقة باحوال العشائر وأساليب التعامل معها سواء بالحسنى أو بالضربات المفاجئة .

٥ -كان عبد العزيز بن سعود بعيد النظر اذ تجنب الاصطدام ببريطانيا صاحبة الشكيمة فى منطقة الشرق الاوسط - حقيقة أن الانجليز استخدموا القوة فى بعض الحالات ولكنه عرف كيف يمسك بالزمام حتى لايتحول ذلك الى قطيعة أو مواجهة .

كانت أزمة أمور المملكة فى يد عبد العزيز بن سعود حتى وفاته فى ١٩٥٣ وكانت بوادر التحديث قد بدات فى عهده ولكن هذا التحديث نما بسرعة واضحة خلال عهد خلفائه من ابنائه ابتداء بسعود ثم فيصل وخالد واخيرا فهد . وكان أهم عامل من العوامل التى أسهمت فى عمليات التحديث ظهور واستخراج البترول بكميات ضخمة من الجزيرة العربية . حقيقة أنتج البترول - خاصة على يد الشركات الأمريكية - قبل الحرب العالمية الثانية ، ولكن من بعدها اصبح البترول مصدرا ماليا ضخما للسعودية بل جعل الاقتصاد السعودى مؤثرا بشكل مباشر فى اقتصاديات العالم خاصة فى سبعينيات وثمانينيات القرن العشرين . فلقد حدثت طفرة تعليمية على مختلف المستويات وظهر العديد من الجامعات والكليات الجامعة ، ونفذت مشروعات الخدمات الحديثة على أوسع نطاق ، وظهرت العديد من المدن الحديثة والادارات المتقدمة حتى اصبحت المملكة فى الثمانينات غيرها تماما عنها فى الستينيات .

ومع ان السعودية تعرضت - مثل أى دولة تعتمد على محصول واحد رئيسى - لازمة اقتصادية بسبب توقف الصادرات - وكانت السعودية قد تعرضت فعلا لمثل هذه الازمة خلال فترة اغلاق قناة السويس بسبب العدوان الثلاثى على مصر ، فان السعودية لم تلبث أن خرجت من هذه الازمة بسرعة وانطلقت فى تنفيذ مشروعات عمرانية واسعة النطاق خلال السبعينيات وتتجه منذ أواخر ذلك العقد نحو التصنيع .

كذلك تعرضت السعودية خلال فترة الخمسينيات والستينيات لأزمات سياسية دقيقة نتيجة للتطورات الحادة فى البلاد العربية المجاورة لها . فقد كانت تشكل مع مصر - فى بعض الاحيان محورا لمواجهة محور عراقى - أردنى أو محور عراقى - سورى ولكن أشد الازمات السياسية التى تعرضت لها السعودية كان التيار الثورى الاشتراكى الذى ظهر ونما فى كل من مصر (ثورة ٢٣ يوليو) والعراق(ثورة تموز ١٩٥٨) وسوريا (حزب البعث الاشتراكى) وعدن ، هذافضلا عن ثورة اليمن بقيادة عبدالله السلال التى تطورت الى صراع دموى بين جبهة جمهورية تدعمها مصر وأخرى ملكية تدعمها السعودية ، ولم تتوقف هذه المواجهة الا فى أعقاب نكسة ١٩٦٧م .

ورغم ذلك الثراء الضخم ورغم التحديث الواسع النطاق فان السعودية تعانى من اتساع الرقعة وقلة عدد السكان لتلك المساحة ولكن الأخطر من ذلك هو قلة عدد السعوديين العاملين فى المجالات الانتاجية التى يعمل بها نيابة عن السعوديين الفنيون والعمال من البلاد العربية - وخاصة من مصر - ومن باكستان ومسلمى جنوب شرق آسيا .

ولقد أدى ثراء السعودية وتراكم رؤوس الاموال لديها الى تمكينها من تقديم الدعم المالى ليس فقط للبلاد العربية التى يعوزها رأس المال ولكن كذلك الى عدد ليس بالقليل من الدول الأفريقية والأسيوية . ولكن لا تزال فى السعودية نقطة ضعف حساسة وهى نمو التطلعات الإيرانية والعراقية نحو الخليج الأمر الذى دفع السعودية والدول العربية المطلة على الخليج الى تشكيل مجلس تعاون الخليج . وهو مجلس يستهدف التنسيق الاقتصادى وكذلك العسكرى للدفاع عن مصالح البلاد العربية المطلة على هذا الخليج ، ومن أبرز ثمار هذا المجلس أنه أصبح يواجه المعضلة الخطرة الحالية : الحرب العراقية - الأيرانية . وهذه الحرب تشكل اخطر عامل يهدد مستقبل المنطقة .

وما أن اسفرت السعودية بان تصدير البترول بل وان مصادره اصبحت مهدده بسبب تلك الحرب حتى اتجهت بثقلها الأقتصادى الى الكشف عن ثرواتها المعدنية والى بناء صناعة حديثة حتى لاتعتمد كلية على الاستيراد وحتى تواجه تناقص الطلب على البترول فى المستقبل القريب أو البعيد .

ثانيا : اليمـــــــــن

تميز اليمن بكيانه الواضح سواء من الناحية الجغرافية أو السكانية أو المذهبية . فمنذ انتشار المذهب الزيدى - وهو أقرب المذاهب الشيعية الى السنة - كانت جبال اليمن معقلها المنيع . وبينما كان الشوافع(أتباع المذهب الشافعى) فى المنطقة السهلية بين الجبال والبحر . والامامة الزيدية الوراثية عريقة فى اليمن ولكنها كانت منكوبة الصراع بين افراد الاسرة الطامعين فى الامامة حتى لقد كان يظهر فى اليمن فى بعض الاحيان ثلاثة أئمة متصارعين . وكان الولاء للامامة قويا سواء فى المدن او بين القبائل وان لم يمنع ذلك تذبذب القبائل بين إمام واخر متنافسين . وكان كسب ولاء القبائل مفتاح استقرار الامام فى حكمه ، فقد كان التركيب القبلى - ولا يزال - فى اليمن هو السائد ومن ثم كان مظهرا من مظاهر تخلف اليمن ولكنه كان مصدرا من مصادر قوة البلاد على مواجهة الغزاة .

ولعل الاخطار التى كانت تحيط باليمن - فضلا عن طبيعية البلاد الوعرة - ساعدت على تفضيل الامامة والشعب للعزلة . فلقد اصطدمت الامامة بقوى محلية واجنبية بشكل كان يعرض البلاد لاخطار كبيرة .

فمنذ أن تخلص اليمن من الوجود العثمانى فى عام ١٩٣٥ لم يتعرض لازمة خارجية كبيرة إلا عندما ضغطت القوات الوهابية على اليمن فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر وضغطت القوات المصرية عليه عندما كانت تسعى فى النصف الاول من القرن التاسع عشر الى الحفاظ على البحر الاحمر بحيرة إسلامية بعيدة عن متناول الاستعمار الانجليزى ولكن استطاعت بريطانيا أن تحتل عدن عام ١٨٣٩م ولم تستطع اليمن أن تدفع عدن عادية الاستعمار ، بل لقد استطاعت بريطانيا أن تمد حمايتها على التركيبات العشائرية المفككة المتخلفة فى حضرموت . ولكن استطاع اليمنيون أن يتصدوا للعثمانيين عندما عادوا فى ١٨٧٢ الى اليمن منتهزين افتتاح قناة السويس ليدور صراع طويل حتى اضطر العثمانيون الى عقد اتفاقية درعا فى ١٩١١ . وعندما أعلن السلطان العثمانى الجهاد عند إعلان دخول العثمانية الحرب العالمية الأولى اتخذ الامام جانب الدولة العثمانية ولكن بشكل محدود ، وربما كان يامل فى هزيمة الانجليز ليسترد عدن والمحميات ويعيد بناء اليمن الكبرى .

كان موقف اليمن ضعيفا خلال صراعه مع عبد العزيز بن سعود حول عسير عام ١٩٣٤م إذ كانت بريطانيا تدعم عبد العزيز بينما كانت ايطاليا تدعم اليمن ، وكانت إيطاليا تدعم اليمن وكانت إيطاليا -بالقياس بريطانيا - لا تستطيع أن تتصدى للانجليز

الامر الذى أسهم فى سيطرة عبد العزيز بن سعود على عسير ومرت الازمة وعادت العلاقات اليمنية السعودية الى سابق عهدها وانضمت اليمن الى جامعة الدول العربية ولكن بحذر شديد خشية تحول مجلس الجامعة الى التدخل فى شئون البلاد .

هذا الحذر الشديد واساليب القمع والتحكم فى أمور البلاد دون إعطاء فرصة لدور الزعامات الوطنية فى توجيه دفة الحكم ادى لظهور اتجاهات معارضة لحكم الامام من منطلق أنه يعرقل تطور البلاد . وكان أن اغتيل الامام يحيى حميد الدين ولكن تم القضاء على محاولة الثورة فى مهدها عام ١٩٤٨ م . وتولى الحكم الامام احمد(ولى العهد) كذلك وقعت محاولة انقلابية أخرى فى ١٩٥٥م كان للمثقفين دور رئيسى فيها ولكنها فشلت هى الأخرى .

وفى الخمسينيات نشطت سياسة اليمن الخارجية خاصة إزاء مستقبل عدن والجنوب العربى الذى كان يطالب به الامام . ومما شجع الامام على المضى فى تحدى الوجود البريطانى فى الجنوب أن الرأى العام العربى كان يدعم أى خطوات تهدف الى تصفية الاستعمار على أى أرض عربية فضلا عن أن زعامات قوية فى الجنوب العربى كانت تتطلع الى دعم اليمن لها فاستجابت لنداءات الامام للعمل على تحقيق حرية البلاد . فكان طبيعيا أن تدخل اليمن فى ميثاق مع الدول العربية التى تتصدى لبريطانيا بقوة ، وهذا يفسر لنا دخول اليمن فى ميثاق جده عام أبريل ١٩٥٦ م مع السعودية المتنازعة مع بريطانيا حول مستقبل مع البوريمى ومع مصر المعادية لحلف بغداد الذى أنشاته بريطانيا بالتعاون مع العراق .

وعندما قامت الوحدة المصرية السورية(الجمهورية العربية المتحدة) ارتبطت اليمن مع هذه الوحدة فيما عرف باسم ميثاق اتحاد الدول العربية(مارس ١٩٥٨) ولكنه كان ميثاقا قصير العمر إذ لم يلبث أن هاجم الامام أحمد القوانين الاشتراكية التى أصدرها جمال عبد الناصر والتى ادت الى انفصال سوريا ثم الى انهاء مصر للميثاق عام ١٩٦١م .

كان الانفتاح المحدود الذى حققه اليمن خلال الخمسينيات من العوامل التى شكلت جبهة (تقدمية) ضد نظام الأمامة ، وكانت هذه الجبهة تنتظر الفرصة لتسلم السلطة ولو بالقوة وكان لابد لها من الاعتماد على الجيش لكى تنجح . وجاءتهم الفرصة عندما توفى الامام احمد فجأة فى ١٩ سبتمبر ١٩٦٢ ، فقد قام أحد الضباط اليمنيين ذوى النشاط السياسى من قبل هو عبد الله السلال - بانقلاب عسكرى ضد الامام البدر الذى فر الى السعودية ، ومنذ ذلك الوقت بدأ الصراع بين الجمهوريين الثوريين الذين تدعمهم مصر والملكيين الذين تدعمهم السعودية -.

خلال السنوات الأربع التالية كان واضحا أن السلال لا يستطيع الاستمرار فى الحكم بدون دعم القوات المصرية ، كما أن الدعم السعودى للأمام البدر لم يمكنه من استعادة الحكم . ونظرا للارهاق المادى والبشرى الشديد الذى كان يصيب مصر والسعودية والضغط العربى المتواصل من أجل وضع حد لاستنزاف الدماء العربية ، فقد جرت أكثر من محاولة جادة لتسوية المشكلة ومن بينها اتفاقية جدة بين مصر والسعودية عام ١٩٦٥ م التى أعلنت فيها مصر استعدادها للانسحاب من اليمن ، واجتماع عقد فى (حرض) بين الملكيين والجمهوريين ، ولكن دون التوصل الى تسوية حقيقية حتى اذا ما وقعت نكسة عام١٩٦٧ وسحب مصر لقواتها من اليمن غادر السلال اليمن ، إلا أن الجبهة الجمهورية كانت قد اصبحت من القوة لدرجة انها انزلت هزيمة بالقوات الملكية فى عام ١٩٦٨ الأمر الذى جعل اليمن جمهوريا حتى الآن .

فى الوقت الذى كانت فيه الامامة فى صنعا تسعى الى ان تقف على قدم المساواة مع الدول العربية الاخرى التى احرزت تقدما حضاريا ملحوظا فى الخمسينيات اصبح على إمامة صنعاء أن تعمل على تحرير(عدن) الأكثر تقدما من الناحية الحضارية من اليمن . وكانت الخطة البريطانية للانسحاب من عدن ومن المحميات لا تخدم فكرة الوحدة بين اليمنين الشمالى والجنوبى وبالتالى كانت ضد مطالب الأمام فى عدن والمحميات . وكانت الاتجاهات الاقليمية لدى الحكام العرب للجنوب العربى قوية لا تدع فرصة لضم الجنوب الى الشمال ، وهذا الاتجاه كان يخدم السياسة البريطانية هناك . ولذلك سنجد تيارات متعددة والجنوب اليمنى :

١ -تيار يدعو الى قيام اتحاد بين المحميـــات .
٢ - " " " حكومة خاصة فـــى عـــــدن .
٣ - " " " الارتباط باليمن الشمالية لتكوين اليمن الكبير .

وقد لعبت مصر – فضلا عن اليمن دورا رئيسيا فى دعم الحركة الوطنية التحررية فى عدن والمحميات ، وكان أن اضطرت بريطانيا الى اتخاذ خطوات أسرع نحو استقلال اليمن الجنوبى وتولت الجبهة القومية مفاوضة المندوب السامى البريطانى وتسلمت السلطة وأعلن قيام جمهورية اليمن الشعبية الديمقراطية فى أواخر ١٩٦٧م .

، كانت اتجاهات الجبهة القومية يسارية اذ طبقت إصلاحا زراعيا ودعمت جبهة ذات ميول يسارية قوية ، كذلك أعلنت الجبهة القومية مساندتها للحركات الثورية فى بعض البلاد العربية الأخرى الأمر الذى جعل العديد من الحكومات العربية خاصة فى الجزيرة العربية تنظر اليها بعين الحذر الشديد ، كما ظهرت فى جمهورية اليمن الشعبية تيار محافظ كانت تدعمه السعودية فضلا عن جمهورية اليمن (صنعاء) . ولكن بعد

توالى الصدامات الداخلية والصدامات مع اليمن الشمالية حول تحقيق نوع من الوحدة وبعد توالى حركات الاغتيال لرؤساء الجمهورية سواء فى الشمال او الجنوب هناك اتجاه نحو علاج القضايا الملحة باسلوب أكثر رصانة .

الباب الرابع

قـضـايـا الوطــن العربى المعــاصر

- مقدمة .
- الفصل الحادى عشر: قضية فلسطين.
- الفصل الثانى عشر : قضية الوحدة العربية.

مقدمـــــــــــة

يزخر التاريخ العربي المعاصر بقضايا هامة تتعرض بأستمرار لتغيرات وتطورات بحكم حركة التاريخ القائلة بأن دوام الحال من المحال ، وأن لكل حادثة تاريخية بداية وذروة ونهاية ونهاية الحادثة بداية لحادثة اخرى وهكذا . .

ومن هذا المنطلق سوف نقتصر على عرض قضيتين من أهم القضايا العربية فى تاريخنا المعاصر الا وهما قضية فلسطين وقضية الوحدة العربية ، إذا أن القضية الأولى مرت بتطورات متعددة ومتلاحقة ومازالت تمر بتطورات ولم يستقر لها حال وإن كان الأمل فى استمرار ابناء فلسطين المخلصين فى العمل الموحد وابعاد التمزق والاختلاف عن صفوفهم حتى يجدوا التأييد من أخوانهم العرب ومن دول العالم .

وأما القضية الثانية فهى قضية متجددة ، ذلك أن الدول العربية وصل عددها فى جامعة الدول العربية الى ٢٢ دولة تربط بينها عوامل اللغة والدين والأرض والتاريخ المشترك والعادات والتقاليد وغيرها من العوامل الثقافية والاجتماعية والاقتصادية ، أى عوامل توحد ولاتفرق ، تجمع ولاتمزق ، ومن هنا كانت محاولات الوحدة العربية بعضها كان مخلصا لوجه الوحدة ، وبعضها كان بهدف تحقيق مجد شخصى ، وبين هذه التيارات المتعارضة ظهرت جامعة الدول العربية كشكل من أشكال الوحدة العربية أو هى الحد الأدنى لاتحاد العرب على شىء ما .

وفى أعتقادى أنه مع تطور الوعى العربى يمكن تحقيق الوحدة العربية بصورة علمية مدروسة فمما نراه الآن فى نموذج التكامل المصرى السودانى ، وفى نموذج مجلس التعاون الخليجى ، إن هى إلا محاولات جادة وعملية من اجل الوحدة العربية ، ونرجو ان نسمع عن نماذج اخرى فى دول المغرب العربى وفى دول الشام حتى تصبح الوحده العربية حقيقة واقعة تفيد كل العرب . .

الفصل الحادى عشر

قضيــة فلسطين

- مقدمة.
- المرحلة الأولى للقضية الفلسطينية.
- دور مصر أثناء للقضية الفلسطينية.

مقـــــدمه

تعتبر قضية فلسطين قضية عربية تهم كل العرب ولا تهم الشعب الفلسطينى وحده ، بمعنى أنها تشكل تأثيرا على كل الاقطار العربية وخاصة تلك الاقطار المحيطة بفلسطين والقريبة منها ، وقد مر تاريخ القضية فى رأيى بمرحلتين : المرحلة الأولى منذ فرض على فلسطين الانتداب البريطانى عقب الحرب العالمية الأولى وحتى حرب عام ١٩٦٧ بين العرب واسرائيل والمرحلة الثانية تبدأ بظهور منظمة التحرير الفلسطنية ممثلة للشعب الفلسطينى عقب حرب ١٩٦٧ حتى الوقت الحاضر .
وفى المرحلة الأولى : نجحت الحركة الصهونية العالمية فى تحقيق كثير من أهدافها بفتح أبواب فلسطين أمام المهاجرين اليهود من انحاء العالم ، وكانت الحركة الصهيونية العالمية اكثر تحركا وتنظيما من العرب ولها رجال دوى نفوذ فى الاقطار الكبرى الأربعة : انجلترا وفرنسا وإيطاليا والولايات المتحدة الأمريكية ، وهى الأقطار المنتصرة فى الحرب العالمية الأولى ، ولم تكن الحركة الصهيونية تبغى أن يظل وعد بلفور اتفاقا خاصا بينها وبين بريطانيا العظمى ، ولكن أن يصبح هذا الوعد عنصرا فعالا فى كل السياسات التى تخطط للشرق الاوسط .(١)

وقد نجحت الحركة الصهيونية نجاحا كبيرا فى تحقيق اهدافها رغم وجود جماعات يهودية عالمية عارضت بشدة خطط الحركة الصهيونية ، فقد أرسل حوالى ثلاثمائة من قادة اليهود الأمريكيين الى الرئيس ويلسون يعبرون عن استنكارهم لمطالب الحركة الصهيونية فى فلسطين كما كانت هناك قيادات يهودية فى أوروبا تعتقد أن الصهيونية إنما تمثل خطرا على اليهود فى العالم وتسبب مزيدا من العداء للسامية .(٢)

وكانت سياسة الانتداب البريطانى فى فلسطين من العوامل المساعدة تماما لتحقيق أهداف الحركة الصهيونية لأقامة وطن قومى فى فلسطين ، حيث نشطت حركة الهجرة اليهودية الى فلسطين ولم تفلح احتجاجات العرب ، حتى انتهى الأمر بقيام الحرب العربية الإسرائيليـــة الأولى عام ١٩٤٨ التى انتهت بقيام دولة اسرائيل .

---

(١) د . رأفت الشيخ : أمريكا والعلاقات الدولية ص ١٦٩ – ١٧٠

(٢) polk,w : The u .s. and the Arab World , p .300

وبعد عام ١٩٤٨ استمر التأييد الأوروبى والأمريكى لدولة اسرائيل التى لم تكن تملك مقومات الدولة ، ونجحت الدعاية الصهيونية فى غيبة الأعلام العربى فى كسب الراى العام الأوربى والامريكى بأظهار اسرائيل كواحة للديمقراطية واظهار العرب بالأرهابين الذين يريدون أن يقضوا على دولة اسرائيل وان يلقوا باليهود فى البحر .

ولذلك تحالفت دولتان من أوربا هما انجلترا وفرنسا مع اسرائيل عام ١٩٥٦ م فى شن حرب ضد مصر أكبر دولة عربية التى تمثل حجر الزاوية فى الكفاح العربى من أجل القضية الفلسطينية ، كما تحالفت الولايات المتحدة الأمريكية مع اسرائيل عام ١٩٦٧ م فى شن حرب ضد الأقطار العربية فى مصر والأردن وسوريا أدت الى ضياع بقية أرض فلسطين فى الضفة الغربية لنهر الأردن وقطاع غزة الى جانب مرتفعات الجولان السورية من أيدى العزب لتستولى عليها اسرائيل .

الا أن النتيجة الأيجابية لحرب عام ١٩٦٧ هو تأكيد الكيان الفلسطينى المتمثل فى منظمة التحرير الفلسطينية التى تضم منظمات نضالية متعددة على رأسها منظمة فتح ، لتتولى قيادة العمل الفلسطينى العسكرى والسياسى بمساعدة الأقطار العربية حتى الوقت الحاضر ، وهو التطور الطبيعى والمنطقى لقضية فلسطين فأن تولى القيادة الفلسطينية للعمل الفلسطينى هو محور الكفاح لاقامة دولة فلسطينية على أرض فلسطين . . وهذا هو مركز المرحلة الثانية من القضية الفلسطينية . .

المرحلة الاولى للقضية الفلسطينية

لكى نكون محددين فى عرضنا للقضية الفلسطينية خلال المرحلة الاولى من تاريخها والتى تمتد منذ فرض الانتداب الانجليزى وحتى حرب عام ١٩٦٧م لابد ان نحدد العناصر الرئسية لهذه المرحلة التى تتمثل فيمايلى :

١ ـ السياسة البريطانية نحوفلسطين .
٢ ـ الهجرة اليهودية واغتصاب ممتلكات الفلسطين .
٣ ـ المواقف الفلسطنية والعربية ضد الصهيونية .
٤ ـ هيئة الامم المتحدة وقضية فلسطين .
٥ ـ التأيد الامريكى لاسرائيل .

ولنناقش كل عنصر من هذه العناصر ٠٠

اولا : سياسة بريطانيا نحو فلسطين .

من الطبيعى ان تتحيز بريطانيا نحو الحركة الصهيونية ، لان بريطانيا صاحبة وعد بلفور الداعى لاقامة وطن قومى فى فلسطين لليهود ، كما انها صاحبة الانتداب على فلسطين الذى اعترف بالصلات التاريخية التى تربط الشعب اليهودى بفلسطين ـ وهم ليسوا شعبا ـ واعتراف بوكالة يهودية لاسداء المشورة الى إدارة فلسطين والتعاون معها ـ فى غيبة هيئة عربية ـ وأوجب تسهيل هجرة اليهود الى فلسطين فى احوال ملائمة ، الى جانب الاعتراف باللغة العبرية كلغة رسمية بفلسطين بجانب اللغتين العربية والانجليزية واللاعتراف بالاعياد اليهودية كأيام عطلة رغم ان عدد اليهود فى فلسطين انذاك لم يتجاوز ٧٪ من مجموع السكان[١]

وقد كان وجود هربرت صمويل احد دعاة الصهيونية المشهورين فى بريطانيا كأول مندوب سامى بريطانى فى فلسطين ذليلا اخر على تحيز بريطانيا الى جانب الحركة الصهيونية حيث الحق كثيرين من اليهود كموظفين فى إدارة فلسطين ، الى جانب منح الاف الدونمات من الاراضى

الزراعية الحكومية للمهاجرين اليهود ، ومنح امتيازات اقتصادية لشخصيات وشركات يهودية تعمل فى فلسطين وقد فتحت بريطانيا ابواب فلسطين للمهاجرين اليهود بصورة كبيرة رغم التظاهر بتقييد الهجرة اليهودية ومما يؤكد هذه الحقيقية ان عدد اليهود فى فلسطين عام ١٩٢٠م كان ٥٠ الف يهودى فقط ، بينما قفز عددهم عام ١٩٤٨م الى

---

(١) د . صلاح العقاد : المشرق العربى المعاصر ص ٣٠٢ ـ ٣٠٣

٧٠٠ الف يهودى كما ان التحيز البريطانى نحو الحركة الصهيونية اتضح كذلك فى إقرار الجانب البريطانى بأن لليهود حقا مساويا للعرب ، وذلك عند مناقشة قضايا التوظف فى الادارة الحكومية او فى امتلاك اراضى فلسطينية او فى البحث عن حل للمشكلة ، ذلك الحل الذى تمثل فى مشروع التقسيم الاول لفلسطين بين العرب واليهودى والذى وضعته لجنة بيل عام ١٩٣٧م .

كما كان الكتاب الابيض الذى أصدرته بريطانيا بشأن مستقبل فلسطين عام ١٩٣٩م دليلا على السياسة البريطانية المتحيزة ، فالكتاب مد اجل الانتداب عشر سنوات اخرى ، ويسمح بهجرة ٧٥ الف يهودى مما يرفع نسبة اليهود ، كما ان من اهداف الكتاب الابيض احداث الفرقة بين الزعماء العرب المعتدلين منهم الذين قبلوا الكتاب وطالبوا بالتحالف مع بريطانيا بشرط تنفيذ الكتاب بصورة جدية مثل نورى السعيد ، وبين زعماء العرب المتطرفين الذين ادركوا نوايا بريطانيا الحقيقية من نشر هذا الكتاب[1] ورغم غضب اليهود من الكتاب الابيض البريطانى الاانهم كانوا مدركين ان بريطانيا ليست جادة فى تنفيذة وخاصة مألة تقيد الهجرة اليهودية الى فلسطين بعدد محدد ومن ثم اشتركت العصابات الصهيونية فى فلسطين فى غمليات الحرب العالمية الثانية الى جانب انجلترا ، بل تم تجنيد اليهود فى الجيش البريطانى واشتركت فرقة يهودية فى الميدان الاوربى الى جانب بريطانيا وعندما نجح حزب العمال البريطانى فى الانتخابات عام ١٩٤٥م اخذ فى تطبيق ما سبق ان نادى به اثناء الاعداد للانتخابات بفتح باب الهجرة اليهودية الى فلسطين دون قيود ولعلنا نتذكر ان قيام اسرائيل عام ١٩٤٨م حدث فى عهد تحكم فيه بريطانيا حكومة حزب العمال برئاسة المستر اتلى الذى بادر بالاعتراف بقيام الدولة اليهودية الجديدة بعد اعتراف الولايات المتحدة الامريكية .

كما ان بريطانيا وافقت على مشروع قرار تقسيم فلسطين الى دولتين عربية ويهودية الذى عرض على هيئة الامم المتحدة عام ١٩٤٧م واعلنت فى ١١ديسمبر ١٩٤٧م انتهاء انتدابها على فلسطين فى ١٥ مايو ١٩٤٨م وهنا استعد الطرفان العربى واليهودى للمواجهة لتحقيق اهدافة فى فلسطين فكانت حرب عام ١٩٤٨م

وهنا ينتهى الدور البريطانى المباشر فى فلسطين ليستمر التعاطف البريطانى مع دولة إسرائيل سواء على المستوى السياسى او على مستوى الاقتصادى ، وما اشتراك اسرائيل مع انجلترا وفرنسا فى العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦م الا رمز لهذا التعاطف الانجليزى الاسرائيلى ، فى الوقت الذى تتوتر فيه العلاقات البريطانية بسبب مواقف مصر وغيزها من الاقطار الراديكالية فى العالم العربى المعادية للاستعمار البريطانى فى المنطقة العربية افريقيا واسيا

---

(١) د . صلاح العقاد : المرجع السابق ص ٣٢٧

وتمثل التعاطف البريطانى ايضا مع اسرائيل وفى اثناء حرب عام ١٩٦٧م وإصدار القرار رقم ٢٤٢ عن هيئة الامم المتحدة والذى صاغة لورد كارادون مندوب بريطانيا فى الامم المتحدة ، وكان هذا القرار غير ملزم لاسرائيل بالانسحاب الفورى من الاراضى العربية (الضفة الغربية وغزة وسيناء ومرتفعات الجولان السورية) التى احتلتها بالعدوان[1]

ثانيا : الهجرة اليهودية الى فلسطين :

ارتبطت عملية الهجرة اليهودية الى فلسطين بأهداف الحركة الصهيونية العالمية فى السيطرة على ارض فلسطين وتحقيق المزيد من المهاجرين اليهود حتى يصبحوا اغلبية فى فلسطين فتقوم. الدولة اليهودية كأول دولة عنصرية دينية فى التاريخ الحديث والمعاصر وكان وعد بلفور وسيلة من الوسائل التى توسلت بها الحركة الصهيونيية لتحقيق اهدافها وبالتالى ارتبطت ببريطانيا كما سبق ان أشرنا واهتمت الحركة الصهيونية بعمل الاغراءات امام يهود اوربا قبل الحرب العالمية الثانية من اجل حث هؤلاء اليهود للهجرة الى فلسطين ، بل وسعت الى انتشارهم فى القرى وامتلاك الاراضى الزراعية وشرائها او اغتصابها من املاك الدولة او من اصحابها العرب ، ولذلك اقامت المدارس الخاصة بالتدريب الزراعة ونجحت الوكالة اليهودية فى فلسطين والتى اكتمل تشكيلها عام ١٩٢٨م فى الحصول من سلطات الانتداب على مساحات شاسعة من الاراضى غير المستغلة عن طريق المنح كما اشترت مساحات كبيرة من اراضى كبار الملاك العرب الذين استقروا فى سوريا ولبنان وقضت مصالحهم الخاصة ان يبيعوا هذه الاراضى ليستمروا اموالهم فى مشروعات اخرى من هذه الاسر العربية التى باعت اراضيها لليهود فى فلسطين ال سلام حول بحيرة الحولة واسرة" بيهم " وسرسق فى مرج بنى عامر حيث اقام اليهود فوقها ٥٦ مستعمرة واسرة تيان فى الساحل وقضاء طولكرم واسرة الجزايرلى واسرة القوتلى. واسرة شمعة

كذلك لجأ بعض كبار الملاك العرب الى توقيع عقود مشاركة مع اليهود لاستغلال بعض القرى كما فعل السيد الاحدب رئيس وزراء لبنان قبل الاستقلال ، وذلك فى بعض القرى الواقعة على الحدود بين لبنان وفلسطين ، ومن المتوقع ان يكون السكان القيمون فى ارض فلسطين ذاتها اكثر إدراكا لخطورة انتقال ملكية الارض ، ولذلك قاوموا الاغراء ماستطاعوا الا انه فى بعض الاحيان كانوا يضطرون الى البيع تحت ضائقة الدين او تحت تأثير الاغراء بالاسعار المرتفعة[3]

---

(١) د . رأفت الشيخ : أمريكا والعلاقات الدولية ص ٢١٣

(٢) د . صلاح العقاد : المرجع السابق ص ٣٠٩

(٣) نفس المرجع ونفس الصفحة

ويهدف المخطط الصهيونى فى فلسطين إلى إنشاء مستعمرات فى الأرض التى يستولى عليها ويسعى إلى التوسع بطرد السكان الأصليين أو المستأجرين للأرض التى اشترتها الوكالة اليهودية ، بحجة أن طرد السكان الأصليين أمر حتمى حتى يتسنى إقامة دولة يهودية خالصة ، ولذلك طالب زعماء الصهيونية أمثال "هرتزل" بتفريغ فلسطين من سكانها ونقلهم إلى البلاد المجاورة . (١)

وشجعت الوكالة اليهودية فى فلسطين على إقامة القرى الجماعية المعروفة "بالكيبوتز" ولا شك أن عضو "الكيبوتز" يغدو أشد حرصا على قريته من الفلاح العربى الذى كان يتبع نظام المخامسة وهو يخصص خمس المحصول أو ما يعادله للعامل فى الأرض وأربعة أخماس للمالك ، يضاف إلى ذلك أن الوكالة نظمت حرسا خاصا للدفاع عن تلك القرى الجماعية ، ويتم تدريب هذا الحرس على أحدث الأساليب العسكرية ، وقد عرف باسم الهاجاناه التى صارت نواة الجيش الرسمى عند قيام اسرائيل . (٢)

وعندما حدثت الحرب العالمية الثانية وتعرض الصهيونيون فى أوروبا لاضطهاد من الألمان النازيين زادت ضغوط الحركة الصهيونية على حكومات دول الحلفاء وخاصة انجلترا والولايات المتحدة الأمريكية من أجل فتح باب الهجرة اليهودية إلى فلسطين ، وصورت الدعاية الصهيونية الاضطهاد الألمانى النازى للصهيونيين بأنها حرب إبادة ضد اليهود اضطرت الكثيرين منهم من ألمانيا ، ولكن إلى أين ؟ لابد من وطن قومى ، وهناك أعلنت الحركة الصهيونية ما عرف ببرنامج بلتيمور Biltmore Program عام ١٩٤٢ م الذى يدعو إلى اغتصاب كل فلسطين لصالح الدولة الصهيونية المزمع إنشاؤها بموجب وعد بلفور . (٣)

وقد نجح اليهود فى فلسطين فى الاستحواذ شيئا فشيئا على المزيد من أرض العرب فى فلسطين عن طريق سفك الدماء العربية باستخدام أسلوب العنف المسلح للعصابات الصهيونية وأسلوب نشر الذعر والأرهاب بين العرب أى اسلوب الحرب النفسية ، ففى حادثة مذبحة "دير ياسين" التى ارتكبتها العصابات اليهودية فى فلسطين ضد سكان هذه القرية على سبيل المثال حرصت الوكالة اليهودية حرصا شديدا على إطلاع جميع

---

(١) د . عبد الوهاب المسيرى : الأيديولوجية الصهيونية ، القسم الثانى ص ٢٩١ - ٢٩٢

(٢) د . صلاح العقاد : المرجع السابق ص ٣١١

- The Americon Assemhly : The united staed states and the Middle East, P . 155 . (٣)

الفلسطينيين على الحادث لتقدم من خلال الوكالة بغرس الخوف والذعر فى نفوس العرب ، هذا الى جانب استخدام مكبرات الصوت والأذاعات الموجهة للعرب فى فلسطين لتحطيم معنوياتهم خاصة أثناء حرب عام ١٩٤٨ . (١)

وما زالت قضية المستوطنات الأسرائيلية فى الضفة الغربية وقطاع غزة تمثل صورة من صور الاغتصاب الاسرائيلى للأرض العربية وللحق العربى فى فلسطين .

ثالثا : رد الفعل العربى :

يقتضينا الأنصاف أن نذكر أن عرب فلسطين والأقطار العربية لم تستسلم للمؤامرات الاستعمارية والصهيونية لسلب فلسطين من أهلها ، ومهما كانت هناك من مواقف سلبية للبعض فلا يمكن أن نعتبرها ظاهرة عامة نقيس عليها ونعمم الحكم على الأطراف العربية . فعلى الجانب الفلسطينى فلا يمكن إنكار حركات النضال للشعب سواء على المستوى السياسى أو المستوى العمل الفدائى العسكرى ، من ذلك مثلا قيام أول محاولة عربية لمقاومة الهجرة اليهودية إلى فلسطين بالقوة ، حيث بادرت مجموعة من الفلسطينيين عام ١٩٢١ م بالهجوم على أحد المعسكرات اليهودية حيث قتلوا ٢ مهاجرا ولكن سرعان ماتدخلت القوات البريطانية بأمر سلطات الانتداب مما ساعد على أن تهدأ الأحوال بسرعة . (٢)

كما اتخذت بعض الهيئات الفلسطينية أسلوب المقاطعة مع سلطات الانتداب البريطانى أو اللجان التى وصلت إلى فلسطين ، ورغم أن هذا الأسلوب كان أسلوبا احتجاجيا بسبب تحيز الأطراف الأخرى نحو اليهود فانه لم يكن مفيدا للقضية العربية ، خاصة وأن العرب افتقدوا الوعى والتنظيم السياسى والعسكرى الذى يؤهلهم لمجابهة المخططات الصهيونية المتحالفة مع الاستعمار الأوروبى .

ومن أمثلة ردود الفعل الفلسطينية ثورة عام ١٩٢٩ ام التى نجحت عن موقف اليهود عند حائط المبكى بمدينة القدس وتضييق الطريق الموصل إلى المسجد الأقصى مما أدى إلى الإشتباك بين العرب والهيود ليس فى مدينة القدس فحسب بل فى بعض المدن الفلسطينية الأخرى كمدينة الخليل ، وقد استخدمت سلطات الانتداب البريطانى القسوة الشديدة ضد العرب حتى أنهت اللاشتباكات ، وأرسلت بريطانيا لجنة لتقصى الحقائق فكتبت تقريرا ينصفف العرب مما دفع الحكومة البريطانية الى إصدار كتاب أبيض

---

(١) د . عبد الوهاب المسيرى : المرجع السابق ص ٢٩٦ ـ ٢٩٨

(٢)د . صلاح العقاد : المرجع السابق ص ٣٠٥

فى أكتوبر عام ١٩٣٠ م يعطى للعرب الفلسطينيين الحق فى العودة إلى الأراضى التى طردوا منها وتحديد الهجرة اليهودية أو ايقافها حسب احتياجات البلاد ، ولكن نتيجة لضغوط الحركة الصهيونية تراجعت بريطانيا عما جاء بكتابها الأبيض هذا .

وكانت هناك انتفاضة فلسطينية أخرى عام ١٩٣٦ . كانت نتيجة لاستسلام السلطات البريطانية للضغوط الصهيونية بالغاء الكتاب الأبيض لعام ١٩٣٠ م . وللتحيز الذى تتبعه سلطات الانتداب البريطانى فى فلسطين إلى جانب اليهود ، وقد ساعد على حدوث هذه الانتفاضة تكوين حركة وطنية فلسطينية سياسية منظمة ضمت الحاج أمين الحسينى مفتى فلسطين والذى انتخب رئيسا للمجلس الأسلامى الأعلى ، إلى جانب ظهور أحزاب سياسية مثل حزب فلسطين العربية برئاسة جمال الحسينى ، وحزب الدفاع الوطنى ويرأسة راغب النشاشيبى ، وحزب الاستقلال برئاسة عونى عبد الهادى ، وحزب الأصلاح برئاسة حسين الخالدى ، وحزب الكتلة الوطنية برئاسة عبد اللطيف صلاح .

ومن الملاحظ أن هذه الأحزاب تشابهت براجها من حيث الدعوة لأنهاء الانتداب البريطانى ومقاومة أهداف الصهيونية العالمية فى فلسطين ، وتقوية الارتباط مع الأقطار العربية الأخرى وقد اندمجت هذه الأحزاب السياسية فى ٢٥ أبريل ١٩٣٦ م تحت اسم اللجنة العربية العليا ، وأشرفت على حركة الاضراب العام للعرب فى فلسطين ومقاومة سلطات الانتداب البريطانى والمهاجرين اليهود بصورة منظمة أزعجت السلطات البريطانية وجعلت بعض الملوك العرب يتدخلون لأنهاء هذه الثورة على أمل أن تحقق بريطانيا مطالب العرب العادلة .

ولكن بريطانيا عرضت مشروعا لتقسيم فلسطين بين العرب واليهود وجزءا يظل خاضعا للأنتداب البريطانى ، مما أثار العرب الذين أوقفوا ثورة ١٩٣٦ م على أمل أن يقام فى البلاد نظام ديموقراطى يحل محل الانتداب يتمتع فيه اليهود بحقوق المواطن فى ظل الدولة العربية الفلسطينية التى تتسامح مع الأقليات . . لذلك كان رد الفعل عنيفا بأستمرار الثورة وفى سبتمبر ١٩٣٧ م انعقد مؤتمر برلمانى عربى بمصيف "بلودان" للاحتجاج على مشروع التقسيم البريطانى ، وأسهم متطوعون من الأقطار العربية فى الثورة الفلسطينية التى هاجمت معسكرات الانجليز والمستعمرات اليهودية ، وقد اتخذت سلطات الأنتداب إجراءات تعسفية انتقامية من العرب بحل اللجنة العربية العليا وحظر أنشاء منظمات سياسية عربية ، وتقديم المساعدات للعصابات الصهيونية فى فلسطين (١) .

---

(١) د . صلاح العقاد : المرجع السابق ص ٣١٥ - ٣٢٦

لم تتوقف حركة النضال الفلسطيني ضد سلطات الانتداب البريطاني وضد المهاجرين اليهود ، واستمرت عمليات حرب العصابات العربية قائمة رغم تحالف اليهود والبريطانيين وجاء ، إنشاء الهيئة العربية العليا عام ١٩٤٥ م بديلا للجنة العربية العليا التي حلتها سلطات الانتداب عام ١٩٣٧ م ، لتقود النضال السياسي والمسلح في فلسطين ، وإن أخذ عليها اتباعها سياسة المقاطعة للجان الدولية بحجة أن النظر إلى مساواة اليهود بالعرب نظرة خاطئة .

وفي حرب فلسطين عام ١٩٤٨ شارك جيش المجاهدين الفلسطينيين في العمليات العسكرية ضد اليهود داخل فلسطين ونجح هذا الجيش في البداية في جعل المدن والقرى العربية بمثابة وحدات عسكرية تدافع عن نفسها ، ولولا الخلافات العربية وموقف الملك عبد الله الراغب

في ضم الجزء العربي من فلسطين الى مملكته وخلافه مع أمين الحسيني رئيس الهيئة العربية العليا ، لأمكن إفساد الخطط الصهيونية في الاستيلاء على جزء كبير من فلسطين .

نتج عن حرب عام ١٩٤٨ ، تشريد مئات الآلاف من الفلسطينين لاجئين الى الضفة الغربية لنهر الأردن وإلى لبنان وسوريا والأردن ومصر ، وأدمج الملك عبد الله الضفة الغربية في مملكته ليصبح أسمها المملكة الأردنية الهاشمية بدل مملكة شرق الأردن ، وأدارت مصر قطاع غزة الى أن تتهيأ للفلسطيتيين إقامة دولتهم . كما نتج عن ذلك الحرب أنتهاء المقاومة المسلحة لشعب فلسطين منذ ذلك الوقت حتى انطلقت منظمة فتح تعلن الكفاح ضد اسرائيل في عام ١٩٦٥ م .

واما بالنسبة للموقف العربى واعنى موقف الاقطار العربية من سياسة الانتداب البريطانى ومن ثورات الشعب الفلسطينى فقد تمثل فى جهود فردية حيث ساهمت معظم الدول العربية بالمساعدات الاقتصادية والعسكرية وبالمتطوعين وبالتأييد السياسى من اجل دعم كفاح الشعب الفلسطينى ، حتى اذا تاسست جامعة الدول عام ١٩٤٥ كان هناك مواقف شبه موحده ظهرت فى اجتماع الملوك والرؤساء العرب بانشاص بمصر فى مايو ١٩٤٦ لمناقشة القضية ، واجتماع مندوبى الدول الاعضاء بالجامعة العربية فى عاليه بلبنان فى اكتوبر ١٩٤٧ م لبحث وسائل مقاومة قرار التقسيم باستخدام الفلسطينيين انفسهم مع متطوعين من الاقطار العربية . واجتماع مجلس الجامعة العربية فى ابريل ١٩٤٨ الذى تقرر فيه اشتراك الجيوش العربية الرسمية فى الحرب ضد اليهود .

ولاشك ان المواقف المتضاربة اثناء حرب ١٩٤٨م بين اطماع الملك عبد الله فى فلسطين وتفاهمه مع اليهود ، وتاييد العراق له ، وعدم اهتمام المملكة العربية السعودية بالقضية اهتماما جديا ، وضعف الموقف اللبنانى ، كان كل ذلك سببا فى نكبة عام ١٩٤٨م . ولعل تحمس مصر اثناء اجتماع مجلس الجامعة العربية العربية فى يناير ١٩٤٨ وقبل الحرب لاصدار قرار يمنع اية دولة عربية من ضم اى جزء من فلسطين ، وتشكيل حكومة فلسطينية يختارها الفلسطينيون بانفسهم من اسباب الخلاف بين الملك عبد الله ومصر لدرجة اتخاذ اجراءات اردنية اثناء الحرب اخرجت موقف الجيش المصرى فى فلسطين .

رابعا : موقف هيئة الامم المتحدة :

تمثل موقف الهيئة الدولية من القضية الفلسطينة فى مشروع التقسيم لعام ١٩٤٧ وفى قرارات الهدنة لعام ١٩٤٩ م .

بالنسبة لمشروع التقسيم ، فبناء على قرار بريطانيا فى فبراير ١٩٤٧م بنقل القضية الى الهيئة الدولية التى شكلت فى ابريل من نفس العام لجنة دولية لبحث القضية وتقديم تقرير فى سبتمبر من نفس العام ، وبالفعل عادت اللجنة الى نيويورك بعد رحلة الى فلسطين وزارت العواصم العربية وقدمت اقتراحين الى الجمعية العامة للامم المتحدة فى اكتوبر ١٩٤٧ م الاقتراح الاول قدمه اغلبية اعضاء اللجنة ويقضى بتقسيم فلسطين الى دولتين عربية ويهودية مساحة الدولة العربية ١٢ الف كيلو متر مربع ماسحة الدولة اليهودية ..٢ر١٤ الف كيلو متر ، وان تبقى القدس تحت اشراف الامم المتحدة . بينما نص تقرير اقلية اللجنة فيدعوا الى اقامة حكومتين عربية ويهودية مستقلتين استقلالا ذاتيا ، وتتشكل منهما دولة اتحادية باسم دولة فلسطين .

وبينما رفض العرب كلا المشروعين لانهما يسويان بين العرب اهل البلاد وبن اليهود الطارئين عليها ، فقد وافق اليهود على اقتراح الاغلبية ، ورغم معارضة العرب فقد ضغطت الولايات المتحدة الامريكية على بعض الدول الاعضاء فى الجمعية للامم المتحدة حتى اصدرت فى ٢٩ فى نوفمبر ١٩٤٧ قرارا بالاغلبية بالموافقة على تقسيم فلسطين

عول العرب على مقاومة قرار التقسيم ، فكانت حرب فلسطين عام ١٩٤٨ التى حققت لليهود اكثر مما حدده قرار التقسيم وعندما تحرج موقف اليهود فى الحرب تدخلت الامم المتحدة وفرضت على المتحاربين الهدنة الاولى بقرار فى ٢٩ مايو ١٩٤٨م ، ثم عندما استؤنف القتال فى ٩ يوليو كانت خسائره كبيرة وظهرت اطماع واتفاقات الملك عبد الله مع اليهود ، وفى ١٥ يوليو صدر قرار من مجلس الامن بوقف القتال بين العرب واليهود الى اجل غير مسمى فقبله الطرفان .

ونتيجة للمواقف السلبية للقوات الاردنية والعراقية من الهجمات اليهودية ضد المواقع المصرية فى صحراء النقب رغم قرار مجلس الامن بايقاف اطلاق النار قبلت مصر عقد هدنة دائمة مع اسرائيل فى ٢٤ فبراير ١٩٤٩ بجزيرة رودس ، وعقدت لبنان اتفاقا

للهدنة مع اسرائيل فى ٢٣ مارس من نفس العام وفعلت الاردن نفس الشىء فى ٣ ابريل ، واما سوريا ففعلت نفس الشىء فى ٢٠ يوليو من نفس العام .

خامسا : التأييد الامريكى لاسرائيل :

من الملاحظ ان انجلترا هى التى اوجدت اسرائيل الى العالم ولكن الولايات المتحدة الامريكية هى التى تكفلت ببقائها على قيد الحياة واثناء الحرب العالمية الثانية نشطت الحركة الصهيونية فى تذكير الدول الكبرى بتنفيذ وعد بلفور مستخدمة مالاقاة الصهيونية ود من اضطهاد على يد هتلر فى المانيا ، وكان الراى العام الامريكى يجهل تماما الوضع القائم فى فلسطين وما يمكن ان يؤدى اليه تحقيق مطالب الصهيونية من صراع ، وبدت امام الراى العام الامريكى دعاوى الصهيونية وكانها حجج قانونية وعادلة ، بينما كانت اقلية من الشعب الامريكى الذين عاشوا فى منطقة الشرق الاوسط يرفعون اصوات الاحتجاج ضد الدعاوى الصهيونية .(١)

وقد مارست الحركة الصهيونية فى الولايات المتحدة ضغوطا شديدة بحكم سيطرتها على اجهزة الاعلام وعلى كثير من الشركات الراسمالية ، من اجل دفع الحكومة الامريكية الى تبنى وجهه نظرها وتحقيق مخططاتها نحو فلسطين . وقد تمكنت الحركة الصهيونية من الحصول على تاييد الحزبين الديموقراطى والجمهورى لاهدافها ، وذلك اثناء انتخابات عام ١٩٤٤ ، ووصل الامر ان يطلب الرئيس الامريكى" ترومان " فى عامى ١٩٤٥ ، ١٩٤٦ من المستر" أتلى "Atlee رئيس الوزراء البريطانى ان يسمح على وجه السرعة بدخول مائة الف لاجىء يهودى الى فلسطين فارين من اوروبا دون الاخذ فى الاعتبار مصالح العرب . (٢)

وقد لعبت الولايات المتحدة الامريكية فى نوفمبر ١٩٤٧ م دورا كبيرا فى تحقيق اغلبية ثلثى اعضاء الجمعية العامة للامم المتحدة الى جانب مشروع تقسيم فلسطين بين العرب واليهود ولكن الحكومة الامريكية لم تكن مستعدة لامداد هيئة الامم المتحدة بالقوة العسكرية اللازمة لتنفيذ قرار التقسيم لان مشاركتها فى معارك الحرب العالمية الثانية قد استنزف قوتها العسكرية ولانه من الصعب فى راى السياسين الامريكيين الحصول على موافقة الكونجرس على ارسال قوات امريكية الى فلسطيـــــن .(٣)

- Polk, W. : Op. cit. P. 300.
- The Amercek Assembly, op. ciy, P.155.
- Polk, W. : Op. cit. P 264:

ومع اعتراف الولايات المتحدة الامريكية بقيام اسرائيل ، دعت الى تشكيل لجنة دولية للتوفيق بين العرب واليهود فى فلسطين ، وتكونت اللجنة فى ديسمبر١٩٤٨ من مندوبين عن كل من فرنسا والولايات المتحدة الامريكية وتركيا ، ولم تستطع هذه اللجنة عمل شىء فى الوقت الذى اندلعت فيه الحرب بين عصابات الصهيونية من ناحية والعرب من ناحية اخرى .

ونتيجة للمذابح التى ارتكبتها العصابات الصهيونية ضد العرب فى فلسطين فر كثيرون من نساء وشيوخ واطفال من العرب الفلسطينيين ولجاوا الى الدولة العربية المحيطة بفلسطين والى الضفة الغربية لنهر الاردن التى صارت تحت الادارة الاردنية والى قطاع غزة التى صارت تحت الادارة المصرية ، وعاش هؤلاء اللاجئون فى مخيمات تنقصها وسائل العيش الانسانى ، وهنا تبنت الولايات المتحدة فكرة تكوين هيئة تابعة للامم المتحدة تعنى باغاثة وتوطين اللاجئين الفلسطين الذين طردتهم اسرائيل من اراضيهم بعد حرب عام ١٩٤٨ كما سارعت الولايات المتحدة بالاشتراك مع انجلترا وفرنسا باصدار ما عرف بالتصريح الثلاثى فى ٢٥ مايو ١٩٥٠ م بضمان حدود دول الشرق الاوسط ، وهذا معناه ضمان حدود إسرائيل وتهديد للعرب اذا حاولوا مهاجمتها . (١)

وبينما ساهمت الولايات المتحدة بالاموال القليلة فى وكالة غوث اللاجئين الفلسطينين امدت اسرائيل بالمساعدات الاقتصادية والتكنولوجية والمالية العامة والخاصة التى شكلت مايوازى٣٥ ٪ من المساعدات التى تصل اسرائيل ، وبين عامى ١٩٤٨ و١٩٦٢ م بلغت المساعدات الامريكية لاسرائيل ٥ر١ بليون دولار بحيث كان نصيب كل اسرائيلى رجلا كان او طفلا من المليونين١٢٠٠ دولار .(٢)

ولكن امام قيام حركات وطنية وقومية فى بعض الاقطار العربية كالوحدة المصرية السورية عام ١٩٥٨ م وثورة العراق عام ١٩٥٨ ايضا ، وثورة اليمن عام١٩٦٢م ، واستقلال الجزائر عام ١٩٦٢م زادت الولايات المتحدة الامريكية من تدعيمها لاسرائيل من منطلق ان قوة اسرائيل فى منطقة الشرق الاوسط تقلل من فعاليات الامكانيات العربية وتضعف من قوة العرب حيث ينصرف العرب عن تنمية مجتمعاتها الى الدفاع عن انفسهم ضد الخطر الاسرائيلى .

---

(١) د . رأفت الشيخ : أمريكا . . ص ١٧٢

– The Amercek Assembly . op . ciy . P ,156 .

وعلى هذا فيمكن القول بان الولايات المتحدة ساهمت بشكل او باخر فى عدوان على العرب فى يونيو ١٩٦٧ م وظلت تؤيد مواقفها وتعارض قرارات الامم المتحدة التى تدعو اسرائيل الى إعادة الفلسطينيين الى ديارهم واراضيهم ، بل ان قرار رقم ٢٤٢ الذى انهى عدوان اسرائيل عام ١٩٦٧م والذى صدر عن هيئة الامم المتحدة اعتبر اهل فلسطين مجرد لاجئين ، ولم تعترف الولايات المتحدة بفكرة اقامة دولة فلسطينية ، بل ولم توافق على اجلاء اسرائيل حتى من الاراضى العربية المصرية والسورية والاردنية التى احتلتها اثناء ذلك العدوان .

ولكن هذا الموقف الامريكى من القضية الفلسطينية طرا عليه تغيير بعد حرب اكتوبر ١٩٧٣م ، فامكن ان يشارك مندوب فلسطينى فى منظمة الامم المتحدة ، وصارت هناك اتصالات بين الرسميين الامريكيين وبين مسئولين من منظمة التحرير الفلسطينية . وخلال شهر مارس ١٩٧٧ صدر تصريح من الرئيس الامريكى" جيمى كارتر" يعترف فيه لاول مرة بانه من حق الفلسطينيين ان يكون لهم وطن قومى فى فلسطين . (١)

---

(١) د . رأفت الشيخ : المرجع السابق ص ١٧٤ - ١٧٥ .

المرحلة الثانية القضية الفلسطينية

يمكن التاريخ لهذه المرحلة بظهور الكيان الفلسطيني سياسيا بعد ان غاب عن الساحة العربية والعالمية منذ حرب عام ١٩٤٨م ، وبظهور هذا الكيان واعتراف الاقطار العربية بقيام منظمة التحرير الفلسطينية ممثلة لهذا الكيان وقائده لنضال الشعب الفلسطيني تميزت القضية بطابع جديد عرفت بعده بالصراع العربي الاسرائيلي .

وقد تمثل الكيان الفلسطيني في تشكيل الاجهوة الممثلة في قرارات مؤتمر القمة العربية عام ١٩٦٤م ، وفي اول يناير ١٩٦٥ م تكونت" حركة تحرير فلسطين المعروفةباسم " " فتح "وبدات تزاول نشاطها الفدائي ضد اسرائيل ، ويرجع الى ثلاثة من الشبان الفلسطينيين هم : ياسر عرفات وهاني الحسن ، وخليل الوزير الفضل في تشكيل هذه الحركة ، وانتقلت الى حركة فتح قيادة منظمة التحرير الفلسطينية بعد حرب يونيو ١٩٦٧ م .

وقد اشترك مؤتمر القمة العربي في وضع ميثاق لمنظمة التحرير الفلسطينية ، ذلك الميثاق الذي ينص على تكوين مجلس وطني ، ولجنة تنفيذية ، ويكون للمنظمة جيش خاص ،وأن تتولى الدول العربية دفع نفقات المنظمة . وقد انضمت الى المنظمة حركات فدائية اصغر حجما هي الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بقيادة جورج حبش ، والجبهة الديموقراطية لتحرير فلسطين بقيادة نايف حواتمه ،وكلتا الجبهتين تدينان بالماركسية .

مارست منظمة التحرير الفلسطينية نشاطها الفدائي من سوريا اول الامر ومن الاردن ومن قطاع غزة ومن لبنان ، وقد اوقفت سوريا نشاط المنظمة الفدائي ضد اسرائيل بعد حرب عام ١٩٦٧ م كما ان الاردن مالبث ان دخل في عمليات تصفية لافراد المنظمة فيما عرف بمذابح سبتمبر ١٩٧٠ وامام ضربات اسرائيل توقف نشاط المنظمة في قطاع غزة بعد عام ١٩٧١ م .

انتقلت العمليات الفدائية لتنطلق من لبنان بعد ان لم يعد امام منظمة التحرير الفلسطينية جبهة ينطلق منها نشاطها . الا ان لبنان تعرض لغزو سوري عام ١٩٧٦ م قضى فيه على بعضقواعد الفدائيين هناك ، الى جانب احتلال اسرائيل لجنوب لبنان واخراج الفلسطينيين منه عام ١٩٨٢م مما اوقف النشاط الفدائي الفلسطيني .

وهكذا لم يعد امام منظمة التحرير الفلسطينية بعد ان فقدت قواعد انطلاق عملها الفدائي ضد اسرائيل من كل الإراضي العربية ان الكفاح السياسي للحصول على حق تقرير المصير الذى يفضى الى قيام دولة مستقلة حتى ولو ارتبطت مع الاردن ، مع توجيه العرب الفلسطينيين فى الضفة الغربية وقطاع غزة الى الارتباط باهداف المنظمة حتى تظل القضية حية فى نفوس جميع الفلسطينيين داخل الارض المحتلة او خارجها .

مصــــــر وقضيــــة فلسطــــين

يجىء اهتمام مصر شعبا وحكومات متعاقبة بقضية فلسطين امرا طبيعيا يتفق مع الارتباط الاخوى بين الشعبين المصرى والفلسطينى ، وحق الجوار اذ ان فلسطين تمثل بوابة مصر الشرقية وخط الدفاع الاول من جهة الشرق ، ولذلك لا تعجب ان تتشكل فى مصر عدة جمعيات خلال سنوات الثلاثينيات من القرن العشرين من اجل الدفاع عن قضية فلسطين ، ومن هذه الجمعيات ما يلى :

١ - لجنة الدفاع عن فلسطين .
٢ - لجنة اغاثة منكوبى فلسطين فى مصر .
٣ - جمعية انصار فلسطين المقدسة الاسلامية .
٤ - جمعية اللواء الاسلامى .
٥ - جمعية مساعدة منكوبى فلسطين .

كما انه عندما عقد المؤتمر العربى العام فى ٨ سبتمبر ١٩٣٧ م فى " بلودان "بسوريا بدعوة من لجنة الدفاع عن فلسطين لتحديد موقف العرب من اقتراح تقسيم فلسطين انتخب المصرى محمد على علوبة باشا رئيسا للمؤتمر كما انتخب زميله فى الوفد المصرى عبد الحميد سعيد عضوا فى اللجنة التنفيذية للمؤتمر (١) .

كانت هذه جهود شعبية مصرية لنصرة قضية فلسطين ، وكانت الجهود الحكومية المصرية على نفس المستوى من المسئولية ، فقد اعلن رئيس الوزراء المصرى مصطفى النحاس فى مجلس الشيوخ فى يوليو١٩٣٧ م مانصه : تحرص الحكومة المصرية كل الحرص على توطيد صلات الود والاخاء وتبادل المنافع التى تربط بين مصر والشعوب العربية الشرقية والاسلامية ، وتعمل دائما على اعلاء قدر مصر وعزها بينها ، وهى تتابع باهتمام كل ما يدور على مسرح السياسة الدولية من معاهدات ومخالفات واتجاهات وغيرها لتكون اذا اقتضى الحال على استعداد لاجراء ماتستلزمه مصلحة البلاد فى الوقت المناسب .

---

(١) عبد الحميد المواق : مقر فى جامعة الدول العربية ص ٦٢ ـ ٦٤ .

واضاف مصطفى النحاس قائلا : اما من حيث شعور الحكومة المصرية نحو القضية الفلسطينية فيسرنى ان اعلن ان اهتمامى بهذه القضية لا يرجع الى الوقت الحاضر ، بل كان فى هذا الصدد ابحاث ومناقشات مع الحكومة البريطانية . ويهمنى ان يثق المجلس الموقر بسديد عنايتى بالعمل على صيانة حقوق العرب ومصالحهم فى هذه البلاد التى تشمل الاماكن المقدسة التى تربطنا بهاذكريات دينية وتاريخية مجيدة (١) .

وتعددت المواقف الرسمية المصرية من القضية الفلسطينية وكلها تويد موقف مصر حكومة وشعبا الى جانب حقوق الشعب الفلسطينى ، سواء كان ذلك عام ١٩٣٧ م امام لجنة الانتداب فى عصبة الامم او فى مؤتمر لندن عام ١٩٣٩م ، كما ان مصطفى النحاس رئيس الحكومة المصرية زار فلسطين فى الفترة من ٨ الى ١٣ يونيو١٩٤٣م ، وكان الهدف من زيارته محاولة حل مشكلة تمثيل عرب فلسطين فى المشاورات المقررة لبحث قضية الاتحاد العربى ، نظرا لاهمية القضية الفلسطينية بالنسبة للبلاد العربية جميعا ، وحتى لا يفسر عدم اشتراك الفلسطينيين فى مشاورات الوحدة على انه تهاون وتراخ عربى فى موازرتهم ، وحتى يوثر هذا التضامن العربى مع الفلسطينيين فى موقف القوى الاخرى منهم خاصة وانه كان هناك نداء من عرب فلسطين للاشتراك فى المشاورات(٢) .

وقد اشترك السيد موسى العلمى المحامى ممثلا لشعب فلسطين فى اجتماعات الاسكندرية فى سبتمبر ١٩٤٤ التى اسفرت عن اصدار بروتوكول الاسكندرية ، وبعد ان القى الممثل الفلسطينى بيانه امام اللجنة التحضيرية للمؤتمر العربى العام وافق المؤتمر على توصية مصرية تدعو الى الاعتراف بحقوق شعب فلسطين ومساندة هذه الحقوق فى المحافل الدولية .

كما سعت مصر اثناء وضع ميثاق الجامعة العربية على اعطاء فلسطين حق العضوية فى الجامعة لولا اعتراضات كل من لبنان وسوريا ، وانتهى الامر بحضور ممثل عن فلسطين فى الاجتماعات بصفة مراقب وليس له حق التصويت .

وعندما قامت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ادركت اهمية المساعدة فى حصول الشعب الفلسطينى على حقوقه المشروعة ومن ثم عادت مصر اسرائيل ، وقد شعر المستر" دالاس " وزير الخارجية الامريكية عند زيارته لمصر والمنطقة العربية عام ١٩٥٣

---

(١) المرجع السابق ص ٦٤ ـ ٦٥

(٢) المرجع السابق ص ١١٠ ـ ١١١

ان العرب يعتبرون اسرائيل وليست الشيوعية الدولية هى الخطر الماثل امامهم ، وذكر له الرئيس عبد الناصر ان العدو الاول هو اسرائيل ، واننا نعتقد ان الولايات المتحدة تؤيد دولة اسرائيل فى توسعها العدوانى ، فاقتنع دالاس بان سياسة تاييدا اسرائيل بدون حدود قد عطلت التاثير الامريكى فى منطقة الشرق الاوسط(٩) .

ولن نتحدث طويلا عن ان مصر دخلت حرب ١٩٥٦ بسبب عدائها لاسرائيل او بمعنى اصح بسبب تاييد مصر لحقوق شعب فلسطين فى ارضه ووطنه ، كما دخلت حرب ١٩٦٧ لنفس السبب وايضا عام ١٩٧٣ م ، ولم تنس مصر قضية فلسطين وهى تفاوض اسرائيل بمشاركة الولايات المتحدة حيث نصت اتفاقية كامب ديفيد على اقامة حكم ذاتى للفلسطينيين فى الضفة الغربية وقطاع غزة وبعد سنوات ثلاث يسمح للفلسطينيين بان يقرروا مصيرهم . .

– Polk. W. : Op . cit, P .265

الفصل الثانى عشر

قضيــــة الوحــــدة العربيــــة

- مقدمة.
- المشروعات الأقليمية :
  ١ - سوريا الكبرى .
  ٢ - الهلال الخصيب .
- مصر والوحدة العربية.

" مقـــــــــــدمـــه "

تعتبر فكرة القومية العربية فكرة حديثة جدا بالنسبة لتاريخ العرب الحديث المعاصر ذلك انه مذ اواخر القرن التاسع عشر اظهر المفكرون العرب المتأثرين بالمؤسسات التعليمية والثقافية فى اقطار الوطن العربى والمرتبطة باوروبا . اظهر هؤلاء المفكرون اتجاهات وطنية تهدف فى المقام الاول الاستقلال عن الدولة العثمانية . (١)

وكانت الفكرة الدينية هى السائدة بين المواطنين العرب ولم يجدوا غضاضة فى ان يحكمهم المماليك او الاتراك العثمانيين ما داموا مسلمين ، فلما سقطت الدولة العثمانية بعد الحرب العالمية الاولى تحول كثير من انصار الجامعة الاسلامية الى فكرة الاتحاد العربى او الجامعة العربية مع اختلاف كبير فى الرأى حول شكل هذه الدولة وزعامتها . وهل يمكن ان يكون الهاشميون هم رمز هذه الرابطة ام ان زعامتهم غير مقبولة لان الشام اكثر تحضرا من الحجاز موطن الاسرة الهاشمية . (٢)

وهكذا نجد ان العرب فكروا فى جمع الشمل بعد الحرب العالمية الاولى تجاوزا للتجزئة التى فرضتها الدول الأوروبية الاستعمارية عليهم ، وبعد ان فشلت مشروعات الشريف حسين بن على شريف مكة وزعيم الهاشميين فى اقامة الدولة العربية الموحدة والتى تضم بلاد الشام باقسامها المعروفة حاليا : سوريا ولبنان وفلسطين والاردن الى جانب كل من العراق والحجاز . (٣)

- Memorandum by the Director of the office of Near Eastern and Afican Affairs)(Henderson) , to the Secretary of State, Washington, August 29, 1945, no. 890 B . 00/ 8 - 2945 .

(٢) د . صلاح العقاد : المشرق العربى المعاصر ص ٦٠٣

(٣) د . رأفت الشيخ : العرب دراسات فى التاريخ الحديث والمعاصر ص ١٢٩ و

Fisher, S . tbhe Middle East , P . 511

ومن ثم تتالت مشروعات الاتحاد فى الساحة العربية انطلاقا من وجود شعور عام مشترك يشمل مختلف الاقطار العربية دون ان يكون هناك من يقصد ذلك او يسعى اليه ، اوجدته حركة انتشار الصحافة والطباعة والنشر والاذاعة والتمثيل والشعر و الآداب وغيرها من الوسائل التى تساعد على اتصال الافكار وتدانيها (١) .

وقد ساد اعتقاد بان تحقيق فكرة الاتحاد بين الاقطار العربية باى شكل من اشكال الاتحاد انما جاءت اول مرة على لسان المستر انتونى . ايدنAnthony Edenوزير الدولة البريطانى للشئون الخارجية فى تصريحه الذى اولى به فى " الماتشن هاوس " فى ٢٩ مايو ١٩٤١ م والذى جاء فيه ما نصه :

" ان العالم العربى قد سار اشواطا كبيرة منذ التسوية التى تمت عقب الحرب العالمية الاولى وان كثيرين من مفكرية يرجون لشعوبهم درجة من الاتحاد واكثر مما هم فيه الآن ، وهم يتطلعون إلى التأييد البريطانى ، ويجب الا نخيب رجاء اصدقائنا ، وهنا اقرر انه من الطبيعى كما انه من حق العرب ان تتقوى الروابط الاقتصادية والثقافية بين الاقطار العربية ، وايضا الروابط السياسية ، ومن ثم فان حكومة جلالة الملك ستؤيد كل خطوة من هذا القبيل تجد استحسانا عاما بين العرب(٢) .

وقد بولغ فى تأثير تصريح ايدن هذا لدرجة اعتباره الخطوة الاولى نحو إنشاء الاتحاد العربى والحقيقة ان بريطانيا كانت فى ذلك الوقت(٣)تشعر بحاجتها الى تعاون العرب- فرأت ان تلوح لهم بأمنية طالما راودتهم الفعل خاصة وأن الالمان قد اصدروا تصريحا بتاييد استقلال الاقطار العربية فلا بأس من ان ينافسهم الانجليز بتصريح مشابه(٤) .

---

(١) د . صلاح العقاد : المرجع السابق ص ٦٠٤

Lenczowski, G . P: THe Middla East in World Affairs, 3 rd er . P . 635

(٣) كانت بريطانيا آنذاك قد كانت تقضى على ثورة رشيد عالى الكيرنى بالعراق ، وتتهيأ لحملة مشتركة مع حكومة فرنسا الحرة على سوريا ولبنان .

(٤) د . صلاح العقاد : المرجع السابق ص ٦٠٩

والصحيح ان العرب بعد الحرب العالمية الاولى نظروا الى الانتداب الانجليزى الفرنسى فى اقطار المشرق العربى باعتباره عقبة فى طريق تحقيق أمانيهم المتطلعة لقيام" امبراطورية " عربية مستقلة ، وهذه الامانى تستند الى الوعود التى اعطيت للعرب اثناء الحرب العالمية الاولى ، ومن ثم كان هدفهم العمل على انهاء الادارة الانجليزية الفرنسية لبلادهم ، وقد استغرق الجهد العربى فى هذا المجال طوال فترة ما بين الحربين العالميتين الاولى والثانية(١) .

وقد حدث بعض التقدم لتحقيق الهدف العربى المتمثل وانهاء الانتداب الاجنبى على الاقطار العربية وتحقيق الاستقلال لكثير منها ، من ذلك اعلان استقلال مصر عام ١٩٢٢ والعراق عام١٩٣٢م ، وتوقيع اتفاق بين فرنسا وكل من الوطنيين فى سوريا ولبنان عام ١٩٣٦ م يعطى لكل من سوريا ولبنان الحق فى ان تكونا دولتين مستقلتين ، وان كان الفرنسيون لم يحترموا هذا الاتفاق ، وبالتالى لم يوضع موضع التنفيذ(٢) .

كما ان الأقطار العربية التى مازالت تحت الانتداب الانجليزى والفرنسى رسميا او تلك التى تتمتع باستقلال رسمى معترف به قد اتخذت الحرب العالمية الثانية تتمتع باستقلالها فى تصريف شئونها بصورة شبه كاملة ، ومن بين هذه النظرة العربية للاستقلال فى تدبير الامور تعتبر الحركة السائدة بين العرب لتحقيق نوع من الاتحاد بين اقطارهم امرا طبيعيا يتفق مع الحقائق الاساسية والمقومات العربية بعد الاستقلال(٣) .

Memoranaum 'y the Director OP Cit

(٢) د . رأفت الشيخ : المرجع السابق ص ١٤١

Memoranaum 'y the Director OP Cit

١ - مشـــروع ســـــوريا الكـــــبرى

كان الامير عبد الله بن الحسين امير شرقى الاردن الوحيد الذى استجاب لتسريح المستر انطونى ايدن وراى فيه فرصة ذهبية لتحقيق طموحة والخروج عن نطاق امارته الصغيرة ، وكانت سياستة منذ مدة قد اتجهت الى استغلال ظروف الحرب لتحقيق ذلك الطموح فقد تطوع بارسال جزء من فرقته العربية التى يقودها ضباط بريطانيون للمساهمة فى جمع حركة رشيد عالى الكيلانى بالعراق متحديا بذلك الشعور القومى ولاشك ان هذاالتدخل اضر بسمعه الامير ولم يحقق له فائدة اذ ان معظم الوطنيين العرب اعتبروا ثورة الكيلانى حركة وطنية تحررية . (١)

كما ان الامير عبد الله انتهز فرصة استيلاء انجلترا وحكومة فرنسا الحرة على دمشق فى يونيو ١٩٤١م ، وبدأ يعمل من اجل تحقيق اطماعة فى تكوين سوريا الكبرى تحت حكمه بضم سوريا ولبنان وفلسطين اليه فاتخذت الاجراءات الآتية :

اولا : ارسال عدة برقيات الى السير تشرشل رئيس الوزراء البريطانى يذكره فها بحق الاسرة الهاشمية فى عرش سوريا منذ عام ١٩١٦م .

ثانيا : اتخذ مجلس وزراء شرقى الاردن برئاسة الامير عبد الله قرار فى اول يوليو ١٩٤١ م رحب فيه بتصريح المستر انطونى ايدن وتحدث عن الوحدة بين البلاد السورية ، وليس الوحدة العربية ، وضمان الولاء للحلفاء

ثالثا : بعث الامير عبد الله فى ١٦ يوليو ١٩٤١ برسالة الى المستر" اوليفر ليتلتـــون " وزير الدولة البريطانى لشئون الشرق الاوسط تحدث فيها ايضا عن الوحدة السورية برئاسته هو .

رابعا : طالب الامير عبد الله فى ٦يناير ١٩٤٢م بريطانيا بان ترفع عنه الانتداب حتى يصبح مثل الدول الاخرى وليكون قادرا على تحقيق وحدة الاردن وسوريا .(٢)

---

(١) د . صلاح العقاد : المرجع السابق ص ٦١

(٢) عبد الحميد الموافى : مصر فى جامعة الدول العربية ص ٧٢

خامسا : كان الامير عبد الله متخوفا من فكرة الوحدة العربية الشاملة حتى لا يفقد الزعامة ولذلك يبعث ببرقية الى نورى السعيد فى ٢٤ يونيو١٩٤١م يقول فيها - كما جاء فى كتاب الدكتور انيس صايغ : الفكرة العربية فى مصر ما نصه : ان مسألة ايجاد وحدة عربية او اتحاد عربى مسالة موهومة خطيرة لذلك فمن واجب بغداد وعمان السعى للسير على سياسة هاشمية موحدة مع صرف المساعى للقضاء على من يريد اخراج القضية العربية عن مبادئ النهضة الاولى فى القطر السورى الذى قام به تفاهم سعودى سورى لبنانى خطير ، وبذل الجهد لاحياء انصار الثورة (يقصد الثورة العربية الهاشمية الكبرى) مرة اخرى بهذه الديار واعادة الدعوة الهاشمية(١) .

ونتيجة لهذه الجهود التى بذلها الامير عبد الله كانت كل الاستجابات سلبية وتمثلت فيما يلى :

١ - بالنسبة لبريطانيا ، فقد طلبت من الامير ارجاء النظر فى الموضوع لانها كانت لاتريد الا تورط نفسها بفرض اى مشروع اتحادى على الاقطار العربية ، وجاء فى الرد البريطانى ما نصه : ان كل تقارب مع الحكومة السورية او اية حكومة أخرى من الحكومات التى تضعها حكومة شرق الاردن نصب عينيها ينبغى ارجاؤة ريثما تكون الحالة اكثر استقرار (٢) .

٢ -وبالنسبة للعراق استقبل نورى السعيد مشروع سوريا الكبرى بعدم اكثرات نظرا لانه كان ينوى التقدم بمشروع الهلال الخصيب بزعامة بغداد ، واظهر انه مشغول باستقرار الاوضاع الداخلية فى العراق بعد القضاء على ثورة رشيد عالى الكيلانى .
٣- وبالنسبة لسوريا ولبنان فان الوطنين هناك لم يرحبوا بمشروع الامير عبد الله لقيام دولة سوريا الكبرى حيث اختاروا النظام الجمهورى ، واجريت الانتخابات حيث تسلم الحكم هناك فى دمشق وبيروت الوطنيون عام ١٩٤٣م .

٤- وبالنسبة لمصر فيذكر الدكتور انيس صايغ ان الامير عبد الله كان يخشى ان تؤدى دعوة المستر انطونى ايدن لتحقيق روابط بين الاقطار العربية التى وردت فى تصريحة المشار

---

(١) د . أنيس صايغ : الفكرة العربية فى مصر ص ١٤٣

(٢) عبد الحميد مواق : المرجع السابق ص ٧٤

اليه سابقا الى ان تحتل مصر الزعامة فى التحرك العربى باعتبارها اكبر الاقطار العربية ، ولذلك لم يفت الحكومة المصرية ان تستنكر محاولات الامير عبد الله من قوة الهاشمين الى سوريا الكبرى انطلاقا من موقف مصر التقليدى من سيطرة الهاشميين على هذه المنطقة (١) .

وهكذا تجمد مشروع سوريا الكبرى . وبقى حلما يراود الامير عبد الله ، حيث اصدر فى عام ١٩٤٧ م ما عرف باسم الكتاب الابيض الاردنى الذى احتوى على وثائق هذا المشروع . ولعل اهم عامل فى تجميد المشروع كونه يهدف الى فرض وحدة اقليمية ضيقة ولتحقيق مجد شخصى لحاكم عمان ، ودون موافقة شعوب اقطار سوريا الكبرى .

٢ - مشــروع الهـــلال الخصـــب

كان المشروع الوحدوى الثانى المطروح على الساحة العربية مشروعا هاشميا ايضا خرج من بغداد وخطط له نورى السعيد رئيس وزراء العراق عام ١٩٤٢م . وقدمه فى ديسمبر من نفس العام الى " ريتشارد كيرى " وزير الدولة البريطانى لشئون الشرق الاوسط ونشر باسم الكتاب الازرق (٢)

وقد اشتمل الكتاب الازرق العراقى على دعوة لقيام اتحاد عربى يضم كلا من الاقطار العربية الاتية : -

١ - دولة سوريا الموحدة التى تضم كلا من سوريا ولبنان وفلسطين وشرقى الاردن .
٢ - العـــــــــــراق .
٣ - اعطاء الفرصة للاقطار العربية الاخرى للانضمام لهذا الاتحاد فى المستقبل .
٤ - إاعطاء اليهود المقيمين بفلسطين حكما ذاتيا(٣) .

وعقب نشر الكتاب الازرق العراقى قام الامير عبد الله الوصى على عرش العراق ومه نورى السعيد رئيس وزراء العراق بزيارة القاهرة وتباحثا مع رئيس الحكومة المصرية انذاك مصطفى النحاس بقصد الحصول على موافقة مصر او على الاقل عدم عارضتها لقيام دولة الهلال الخصيب الاتحادية بزعامة العراق .

---

(١) المرجع السابق : ٧٣

(٢) د . صلاح العقاد : المرجع السابق ص ٦١٠

Memoranaum 'y the Director OP Cit (٣)

وشرح الجانب العراقى فكرة الاتحاد بانه بين دولتين الاولى سوريا الكبرى والثانية العراق ، ويقرر سكان سوريا الكبرى بانفسهم نظام الحكم ملكى او جمهورى ، ويمكن ان ينضم لهذا الاتحاد الاقطار العربية الراغبة ، على ان ينبثق عن الاتحاد او التجمع مجلس يدير شئونه ويراسه احد رؤساء الدول الاعضاء باتفاق بقية الدول الاعضاء ، ويكون المجلس مسئولا عن شئون الدفاع والشئون الخارجية وشئون المواصلات والجمارك وحماية الاقليات(١) .

ان نظرة الى الوثائق لمشروع الهلال الخصيب كما جاءت فى الكتاب الازرق العراقى يتضح الفرق بين هذا المشروع ومشروع سوريا الكبرى الاردنى ويتمثل هذا الفرق فيما يلى : -

١ - ان مشروع الهلال الخصيب لا يدعو الى اندماج تام بين سوريا والعراق .
٢ - أن العراق لم يطالب بعرش دمشق كما فعل الامير عبد الله .
٣- ان مشروع الهلال الخصيب يهدف الى اقامة اتحاد فيدرالى بين دولة سوريا الكبرى - التى تضم كلا من القطر السورى والقطر اللبنانى والقطر الفلسطينى والقطر الاردنى ودولة العراق .
٤ - منح المشروع لليهود المقيمين انذاك فى فلسطين استقلالا اداريا بدعوى انهم لن يشكلوا خطرا يذكر وسط الدولة الكبيرة المقترحة .
٥ - هناك شبه بين مشروع سوريا الكبرى ومشروع الهلال الخصيب يتمثل فى ان الدوافع التى حركت الامير عبد الله هى نفسها التى حركت نورى السعيد ، واعنى طموح رجل السياسة وتحقيق المجد الشخصى لا العربى(٢) .

وكانت لموقف القوى المختلفة من المشروع على النحو التالى -:
اولا - : على الرغم من ان نورى السعيد اعلن قرار العراق بالمشاركة فى الحرب مع الحلفاء ضد دول المحور فى يناير ١٩٤٣م عقب تقديم مشروع الهلال الخصيب لبريطانيا ، فان الحكومة البريطانية ردت على المشروع بتصريح للمستر انطونى ايدن وزير الخارجية البريطانى فى مجلس العموم البريطانى بتاريخ ٢٤ فبراير ١٩٤٣ م جاء فيه :

---
(١)عبد الحميد الموافى : المرجع السابق ص ٧٥
(٢)د . صلاح العقاد : المرجع السابق ص ٦١١

ان حكومة صاحب الجلالة الملك سوف تنظر بعين العطف نحو اية خطوة يخطوها العرب لتحقيق وحدتهم فى المجالات الاقتصادية والثقافية او السياسية ، ويجب ان يكون واضحا ان الخطوة الوحدوية يجب ان تاتى من العرب انفسهم ، وللان فأننى ألاحظ انه لم يطرح مشروع اتحادى يجد قبولا عاما بين العرب(١) .

كان هذا الموقف البريطانى يمثل الوضوح نحو مشروع الهلال الخصيب الذى ادركت انه لتحقيق مطامع شخصية ولاينبع من العرب الذين يشملهم ، وبالتالى ،لايجد قبولا عربيا عاما يستلزم من الحكومة البريطانية تاييده فتكسب بذلك مزيدا من العداوة من تلك الشعوب التى سفرض عليها الاتحاد .

فاذا أضفنا الى ذلك عدم تسليم بريطانيا بفكرة دخول فلسطين فى دولة الاتحاد بزعامة الامير عبد الله او تلك التى يتزعمها الحكم الهاشمى فى العراق بسبب وعد بلفور للحركة الصهيونية ادركنا اعتراض بريطانيا من ناحية اخرى على مشروع الهلال الخصيب ، ولم يخدعها تاكيد المشروع على اعطاء حكم ذاتى لليهود المقيمين آنذاك فى فلسطين .
ثانيا : لم يرحب الوطنيون فى سوريا ولبنان بمشروع الهلال الخصيب بل رفضوه كما رفضوا من قبل مشروع سوريا الكبرى ، واختاروا النظام الجمهورى واعلنوا استقلال كل من سوريا ولبنان كدولتين ذات سيادة عام ١٩٤٣م .
ثالثا : لم يصدر عن الاردن ما يفيد الترحيب بمشروع الهلال الخصيب ، وظل الاردن متمسكا بمشروع سوريا الكبرى بدليل نشره فى الكتاب الابيض الاردنى عام ١٩٤٧م .
رابعا : بالنسبة للسعودية فأنها لم ترحب بمشروع كما لم ترحب بمشروع سوريا الكبرى لان اى قوة للهاشميين يثير قلق السعوديين باعتبار الهاشميين اعداء السعوديين منذ استولى الاخرين على الحجاز من الملك على بن الشريف حسين فى عام ١٩٢٥م . كم لم يرحب نورى السعيد بانضمام السعودية للمشروع الاتحادى بدعوى ان السعودية مختلفة اقتصاديا مع العراق .

Lenczawski , G. : op . Cot P 636(١)

خامسا : بالنسبة لمصر فان نورى السعيد رغم طلبه عدم اعتراض مصر على اقامة الاتحاد اثناء زيارته مع الامير عبد الالة الوصى على عرش العراق لمصر المذكورة سابقا الا انه لم يطلب انضمام مصر الى الاتحاد بحجة ان مصر سكانها كثيرون بقدر سكان الهلال الخصيب او اكثر كما ان لها مشاكلها الخاصة بالسودان . ولذلك من الطبيعى ان تعارض مصر مشروع الهلال الخصيب واتفقت فى ذلك مع السعودية . (١)

مصـــــر والوحـــــدة العربيـــــة

قد يقع البعض فى خطا عند دراسة قضية الوحدة العربية بان الحكومة البريطانية هى صاحبة الاهتمام الاول بهذه الفكرة بدليل تقديم حكام الأسرة الهاشمية فى الأردن والعراق لمشروعاتهم الوحدوية الى الحكومة البريطانية ، وهذا فى راينا تشويه لتاريخ العرب الحديث والمعاصر ، اذ انه يصدر بداية حركة الاتحاد العربى وكانها من صنع بريطانيا وليست استجابة لدوافع وطنية نابعة من داخل الشعب العربى(١) ، بينما كان العرب يدركون ان سياسة بريطانيا Desside and Role اى " فرق تسد " ولذلك من الضرورى اقتراح الوسائل لتحقيق الوحدة العربية(٢)

ومما يجب ملاحظته ان مشروع سوريا الكبرى ومشروع الهلال الخصيب مشروعات لا تحقق الامانى العربية حيث هدفت هذه المشروعات الى تحقيق وحدة اقليمية ضيقة فى منطقة من العالم العربى لتحقيق مصالح شخصية لحكام عمان وبغداد ولعلنا لانجافى الصواب اذا قلنا ان فشل هذين المشروعين يرجع فى جانب منه على الاقل الى استبعاد مصر من الانضمام الى ايهما ، وبمعنى ان مصر لم تدع للاشتراك فى اى من المشروعين ، وفى رايى انه لو شاركت مصر فى اى من المشروعين لما تحقق لحكام عمان او بغداد فرصة الزعامة فى اى من الاتحادين المقترحين . (٣)
وانطلاقا من هذا نرى ان فكرة انشاء جامعة الدول العربية كشكل من اشكال الاتحاد العربى ولدت فى مصر وتقررت بين الاقطار العربية على ارض مصر ، ولهذا تهيأ لها البقاء والاستمرار منذ قيامها الى الان ، وليس هذا بغريب على موقف مصر من العروبة اذ وقفت مصر باستمرار الى جانب الشعوب العربية فى كفاحها لنيل استقلالها حتى ومصر تناضل لاجلاء قوات الاحتلال البريطانى عن اراضيها .

---

(١) عبد الحميد الموافى المرجع السابق ص ٧٥
(٢) د . صلاح العقاد : المرجع السابق ص ٦٩٥
Fisner, S. : The Middl East, Ahistory, P. 571 (٣)
(٤)د . رأفت الشيخ : المرجع السابق ص ١٣١

وهذا لاينفى ان كثيرين من المصريين اعتقدوا حتى اوائل الاربعينيات من القرن العشرين بوجوب اعطاء الاولوية فى اى جهود تشارك فيها مصر لتحقيق الوحدة العربية الى وحدة وادى النيل ، وهى الوحدة القائمة على اسس جغرافية طبيعية والتى يظهر فيها عامل المصلحة بصورة اوضح .(١)

واذا تتبعنا تتطور فكرة الاتحاد العربى فى مصر لوجدنا ذلك يرجع الى العشرينيات من القرن العشرين حيث نشرت صحيفة الاهرام القاهرية مقالا فى ١٩ اغسطس ١٩٢٤م فى اثناء حكم سعد زغلول بعنوان" الوحدة العربية " جاء فيه ان الطريقة المثلى لتحقيق الوحدة العربية هى ان يعقد حلف بين امراء وملوك البلاد العربية اساسه استقلال كل حكومة ثابتة فى ادارة بلادها مر اتفاق الجمير على صيانة البلاد كلها من كل عدوان او نفوذ خارجى والتعاون على انقاذ البلاد العربية التى احتلها الاجانب بالطرق الممكنة وان يكون لهم مجلس حلفى تقرر فيه جميع المسائل العامة والمتعلقة بحفظ استقلال البلاد وترقيتها .(٢)

وفى يوليو ١٩٣٨ م صرح مصطفى النحاس بانه يحبذ فكرة الوحدة العربية وقال : حبذا لو مهدت السبيل بعد نجاح هذه الفكرة من الناحية الادبية الى تعاون سياسى يحتفظ فيه كل شعب بمركزه السياسى بحسب ظروفه ،مقتضيات أحواله . كما ان على ماهر قال فى نفس العام : ان وحدة العرب ستحقق فى يوم من الايام ان عاجلا او اجلا على ان يكون استقلال كل قطر من الاقطار معترفا بحدوده ثم ايجاد مجلس عام يضم مجلس عام يضم اعضاء من كافة الدول العربية المستقلة .(٣)

كما انه فى عام١٩٤٢م تاسس فى مصر" الاتحاد العربى " برئاسة فؤاد اباظه كحركه شعبية لتحقيق الاتحاد بين الدول الناطقة بالعربية ، وتضمن قانونية ان الغرض منه هو تنمية العلاقات وتقوية الروابط بين الاقطار العربية ، وان الاتحاد العربى لا ينبغى جمع البلدان العربية تحت حكم سياسى واحد ولا يفرض عليها جميعا نظاما واحدا فى الحياة وانما تبقى كل امة من أممه مستقلة قائمة بذاتها تختار لنفسها ما يوافقها من نظم الحكم وصور الحياة(٤)

(١) د . أنيس صايغ : المرجع السابق ص ٦٤

(٢) عبد الحميد الموافى : المرجع السابق ص ٨٤

(٣) المرجع السابق ص ٨٠

(٤) المرجع السابق ص ٨٥

هذه امثلة لاتجهات الرأى العام والمسئولين فى مصر نحو فكرة الوحدة العربية ومع ذلك لم تفرض مصر شكلا معينا للوحدة العربية ، واذا كانت مصر قد اخذت زمام المبادرة فى الدعوة لبحث تشكيل منظمة تحقق امل العرب فى الوحدة دون ان تطرح حكومة مصطفى النحاس شكلا معينا من اشكال الوحدة . (١) فان تبنى تلك الحكومة لقضية الاتحاد العربى نزل بهذه الفكرة الى جمهور الشعب المصرى وقربها اليه بحكم شعبية حزب الوفـد . (٢)

كانت هناك ظروف ساهمت فى التحرك المصرى لتحقيق كرة الوحدة العربية على ارض مصر تمثلت تلك الظروف فيما يلى :

أولا : الظروف الداخلية فى مصر : -

وتتمثل هذه الظروف فى استقرار الامور الداخلية بعد معاهدة عام ١٩٣٦م بين مصر وبريطانيا من ناحية وبعد هزيمة الالمان فى العلمين مما أبعد خطر الحرب عن الارض المصرية بالاضافة الى تولى مصطفى النحاس زعيم حزب الوقد رئاسة الحكومة المصرية فى فبراير ١٩٤٢ م ، وهى حكومة لها قواعد شعبية كبيرة ،وكان النحاس يميل الى القيام بدور عربى لتدعيم مكانته عربيا واسلاميا ، هذا الى جانب ان اتجاه مصر يمثل خطا اساسيا فى السياسة المصرية نحو المنطقة العربية .(٣) .

ثانيا : الظروف الخارجية

وتمثلت هذه الظروف فى المواقف العربية والمواقف الدولية ، فعلى الصعيد العربى وقفت مصر ضد المشروعات الهاشمية السابق الاشارة اليها ، وساندتها المملكة العربية السعودية التى قويت علاقتها بمصر عقد معاهدة بين البلدين للصداقة والاخوة عام١٩٣٦م ٧ كما صار هناك اقتناع باهمية دور مصر القيادى فى اى عمل عربى انطلاقا من سبق مص فى المجال الحضارى وثقلها السكانى بالمقارنة بالاقطار العربية المستقلة انذالك . (٤)

---

(١) د . رأفت الشيخ المرجع السابق ص ١٣٢

(٢) د . صلاح العقاد : المرجع السابق ص ٦١٣

(٣) عبد الحميد الموافى : المرجع السابق ص ٧٨

The American Assembly P : The United stateand Middle East, . L (٤)

وعلى الصعيد الدولى كان التصريح البريطانى الصادر فى ٢٤ فبراير ١٩٤٣ م بمثابة التأييد البريطانى لتحركات العرب من أجل وحدة بلادهم على الرغم من أن هذا التصريح البريطانى استهدف تحقيق المصالح الاستراتيجية البريطانية ، كما كان للولايات المتحدة الأمريكية موقف محدد بناء على أستيضاح من السعودية ، ويقول الموقف الامريكى أن الولايات المتحدة ترغب أن ترى أقطار الشرق الأدنى تستود حريتها وتنمى امكاناتها الأقتصادية والأجتماعية كما أن الحكومة الأمريكية تتعاطف تماما مع أمانى أقطار الشرق الأدنى الأخرى فى الأستقلال التام وتمشيا مع ذلك فأنه من الطبيعى أذا قررت هذه الشعوب بمحض اختيارها أن اتحادها مع بعضها فيه فائدتها ، فان الولايات المتحدة سوف تنظر لهذه الرغبة العربية بعين العطف .

وأضاف الرد الأمريكى إلى ما سبق بأنه طالما اتخذت الأقطار المعينة قرارها الخاص فأنه يبدو لحكومة الولايات المتحدة أن الأحداث والمشكلات خلال النسوات القليلة الماضية قد أظهرت أن أقطار الشرق الأدنى تحتاج إلى تعاون أكبر لتدعيم النواحى الأقتصادية والأجتماعية والثقافية ، وأن اولى خطوات الاتحاد بين الأقطار العربية يجب أن تضع فى الأعتبار الأخذ بهذه النواحى أولا (١) .

كان هذا الرد الأمريكى على الأستيضاح السعودى موضحا التأييد الأمريكى لتحقيق الأتحاد العربى فى جميع النواحى ما عدا الناحية السياسية ، وهو التأييد الذى جاء بعد التصريح البريطانى ، كما أن هذا الموقف الأمريكى بتمشى مع التحفظات السعودية بخصوص الوحدة السياسية بين الأقطار العربية .

كانت هذه الظروف الداخلية والدولية الخارجية مجتمعة دافعا للتحرك المصرى لجمع شمل الأقطار العربية المستقلة آنذاك : العراق ، سوريا ، لبنان ، الأردن ، السعودية واليمن ، وجاءت المبادرة المصرية فى شكل توجيه دعوات من مصطفى النحاس إلى رؤساء الحكومات العربية لزيارة القاهرة كل على حدة ، ومناقشة الموضوع مع رئيس الحكومة المصرية مصطفى النحاس وذلك فى صيف عام ١٩٤٣ م . (٢)

لم توضح مصر اراءها وتصورها لما يجب ان تكون عليه الوحدة بين الدول العربية أثناء المشاورات التى أجراها مصطفى النحاس رئيس الحكومة بشأن الوحدة العربية نظرا لأنها قامت بدور المقرب بين الدول العربية باعتبار ان مصر الدولة القائمة التى جاءتها الدول الأخرى كل على حدة لتبثها آمالها ومخاوفها ووجهات نظرها وتترك لمصر القيام

– The Acting Secreary of State to the Minister in Egypt (kirk) (1)

washington, October 26, 1943

(٢) د . رأفت الشيخ : المرجع السابق ص ١٣٢

بدور التوفيق بين كل الدول العربية للوصول فى النهاية إلى تصور مشترك يجمع البلاد العربية جميعا . (٢)

استقبل مصطفى النحاس أول رئيس حكومة عربى قبل الدعوة المصرية ، وكان نورى السعيد رئيس وزراء العراق الذى وصل إلى القاهرة فى ٣١ يوليو ١٩٤٣ م ، وقد عبر نورى السعيد عن استحالة قيام حكومة مركزية لتفاوت الأقطار العربية من حيث التطور والأوضاع الاجتماعية والاقتصادية ، واقترح نموذجين ممكنان للاتحاد هما :

أولا : إنشاء هيئة تنفيذية لها صفة الألزام مع تمتع كل قطر بمعظم امتيازات السيادة وفى هذه الحالة يجب تمثيل كل دولة حسب سكانها ومساحتها وإمكانيتها الاقتصادية .

ثانيا : تكوين هيئة تمثل الدول العربية المستقلة لتتشاور فى الشئون المشتركة ، ولا تنفذ قراراتها إلا بالنسبة للحكومة التى تقبلها ، وفى هذه الحالة يمثل جميع الأعضاء بالتساوى . (٣)

وعندما استقبل مصطفى النحاس السيد توفيق أبو الهدى رئيس وزراء الأردن فى ٢٨ من أغسطس ١٩٤٣ م ، ركز توفيق أبو الهدى على رغبة الأردن فى تكوين سوريا الكبرى قبل الحديث فى اتحاد عربى عام ، وذكر أننا جميعا نركن فى تحقيق هذه الأمنية إلى رفعة النحاس باشا زعيم الأمة العربية . وعندما أشار النحاس إلى صعوبة تحقيق مشروع سوريا الكبرى عرض توفيق أبو الهدى وجهة نظره والموافقة للنموذج الثانى الذى عرضه نورى السعيد لتحقيق التعاون مع الدول العربية فى النواحى الاقتصادية والثقافية والاجتماعية ، والتعاون السياسى بقدر ما يتفق مع قيود المعاهدة البريطانية الأردنية . (١)

وعندما استقبل مصطفى النحاس الشيخ يوسف ياسين السكرتير الخاص للملك عبد العزيز آل سعود ومندوبه فى المشاورات العربية ، أعرب المندوب السعودى عن رغبة بلاده فى تقوية العلاقات الأخوية مع مصر ، وأكد على معارضة السعودية لفكرة سوريا الكبرى ، كما أنه اظهر معارضة السعودية على إيجاد أى تعاون فى المجالات السياسية وطالب بأن يقتصر التنسيق بين الدول العربية على الشئون الثقافية والاقتصادية ، وأبدى

---

(١) عبد الحميد الموافى : المرجع السابق ص ٨٦

(٢) د . صلاح العقاد : المرجع السابق ص ٦١٣

(٣) عبد الحميد الموافى : المرجع السابق ص ٩٢ ، ٩٣

استعدادا لتوثيق الروابط السياسية مع مصر بصفة خاصه ، ولعل الدافع إلى هذا الموقف هو استمرار الخوف من أن تستخدم فكرة الاتحاد العربى لخدمة مصالح الهاشميين . (١)

وبالنسبة لسوريا فقد ذكر رئيس وزراء سعد الله الجابرى فى مقابلته مع مصطفى النحاس فى ١٦ أكتوبر ١٩٤٣ م أنه بلاده ترفض مشروع سورى الكبرى ، وأنها تطالب ببعض أجزاء لبنان التى انتزعت منها ، وأن سوريا تؤثر أقوى أداة للتعاون بين الأقطار العربية وهى الحكومة المركزية ، وإن كانت لا تجهل ما يقوم فى سبيل ذلك من عقبات ، واذا تعذر ذلك أقيم نظام آخر من الاتحاد أو الاتفاق أو الحلف تستمر قواعده ونظمه من أوضاع متشابهة عند الأمم الأخرى التى عالجت مثل هذه المشاكل . (٢)

وبذلك كان الوفد السورى هو الوحيد الذى أظهر استعدادا حقيقيا للتنازل عن السيادة الأقليمية لصالح حكومة اتحادية عربية ، على أن يشمل الاتحاد جميع الأقطار العربية المستقلة ، واعترض على أقامة اتحاد جزئى مع العراق أو مع الاردن لاختلاف نظم الحكم . (٣)

وعندما استقبل مصطفى النحاس السيد رياض الصلح رئيس وزراء لبنان ركز رئيس الوزراء اللبنانى على ضرورة أن تتفهم الأقطار العربية موقف لبنان المتحفظ من الوحدة العربية تفهما يجعلها تعترف بكيانه وحدوده الحالية باعتباره دولة مستقلة ذات سيادة على أن يكون التعاون بين لبنان والأقطار العربية الأخرى قائما على أساس السيادة والمساواه ومن الطبيعى أن يحرص لبنان على تأكيد سيادته واستقلاله بحدوده الحالية فى مواجهة المشروعات الهاشمية أو المطالب السورية . (٤)

وبالنسبة لليمن فقد أعرب ممثلها " حسين الكبسى " عن استعداد بلاده للتعاون مع الأقطار العربية الأخرى فى المجالات الثقافية والاقتصادية مع المحافظة على استقلال وسيادة كل دولة عربية مع تحقيق المساواة بين الدول العربية جميعا . وبذلك كانت اليمن كالسعودية ولبنان ذات المواقف المتحفظة بالنسبة لقضية الوحدة العربية .

---

(١) د . صلاح العقاد : المرجع السابق ص ٦١٣

(٢) عبد الحميد الموافى : المرجع السابق ص ٩٥

(٣) د . صلاح العقاد : المرجع السابق ص ٦١٤

(٤) عبد الحميد الموافى : المرجع السابق ص ٩٥

وعندما انتهت المشاورات التمهيدية دعت مصر إلى عقد لجنة تحضيرية للمؤتمر العربي العام تضم ممثلى الدول العربية التى اشتركت فى تلك المشاورات ، وبدأت اللجنة اجتماعاتها بالاسكندرية فى ٢٥ سبتمبر ١٩٤٤ م ، ورغم تباين وجهات نظر حكومات الدول العربية السبع المشتركة فى الأجتماعات بين متشكك فى إمكانية قيام اتحاد بين الدول العربية وبين مؤيد بحماس لمثل هذا الاتحاد وبين متحفظ بالنسبة للنواحى السياسية ، فقد أقر اجتماع الاسكندرية ما عرف باسم بروتوكول الاسكندرية الذى صدر فى ٧ أكتوبر ١٩٤٤ . (١)

وجاء نص بروتوكول الاسكندرية بعد إدخال التعديلات، على المشروع المصرى - على النحو التالى :

تؤلف جامعة للدول العربية من الدول العربية المستقلة التى تقبل الانضمام اليها ، ويكون لهذه الجامعة مجلس يسمى جامعة الدول العربية تمثل فيه الدول المشتركة فى الجامعة على قدم المساواة وتكون مهمته مراعاة تنفيذ ما تبرمه هذه الدول فيما بينها من الاتفاقات وعقد اجتماعات دورية لتوثيق الصلات بينها وتنسيق خططها السياسية تحقيقا للتعاون فيها وصيانة لاستقلالها وسيادتها من كل اعتداء بالوسائل الممكنة وللنظر بصفة عامة فى شئون البلاد العربية ومصالحها .

ويضيف البروتوكول : وتكون قرارات هذا المجلس ملزمة لمن يقبلها فيما عدا الأحوال التى يقع فيها خلاف بين دولة عربية من أعضاء المجلس وأخرى ويلجأ فيها إلى المجلس لفض هذا الخلاف أو يخشى معه وقوع حرب بينهما ، ففى هذه الأحوال تكون قرارات مجلس الجامعة نافذة ملزمة ، ويستثنى من ذلك مسائل السيادة والحدود الحاضرة باعتبار هذه الحدود محترمة بوضعها الحالى .

كما أضاف البروتوكول القول بأنه . لا يجوز على كل حال الالتجاء الى استعمال . القوة لفض المنازعات بين دولتين من دول الجامعة ، كما لا يجوز اتباع سياسة خاجية ضارة بسياسة مجموعة هذه الدول العربية ، وتؤلف منذ الآن لجنة فرعية من أعضاء اللجنة التحضيرية لأعداد مشروع لنظام مجلس الجامعة ولبحث المسائل السياسية التى يمكن ابرام اتفاقات فيها بين الدول العربية . (٢)

وقع ممثلو الأقطار العربية : مصر والعراق وسوريا ولبنان وشرقى الأردن على بروتوكول الأسكندرية فى يوم ٧ أكتوبر ١٩٤٤ م ، بينما وقعت السعودية على البروتوكول

---

(١) د . رأفت الشيخ : المرجع السابق ص ١٣٢

(٢) عبد الحميد الموافى : المرجع السابق ص ١٠٥ - ١٠٩

يوم ٣ يناير ١٩٤٥ م ، ووقعت اليمن على البروتوكول فى ٥ فبراير ١٩٤٥ م . وبدأت اللجنة الفرعية السياسية المشكلة من ممثلى الدول العربية الأعضاء فى اللجنة التحضيرية للمؤتمر العربى العام اجتماعاتها برئاسة محمود فهمى النقراشى وزير الخارجية المصرية ، وذلك يوم ١٤ فبراير ١٩٤٥ م وذلك لوضع مشروع ميثاق لمجلس جامعة الدول العربية .

وقد صدر الميثاق فى ٢٢ مارس ١٩٤٥ م بتوقيع أعضاء اللجنة التحضيرية للمؤتمر العربى العام فى قصر الزعفران بالقاهرة ، وقد صارت القاهرة مقرا لمجلس الجامعة ولأجهزتها واختير عبد الرحمن عزام أول أمين عام للجامعة العربية .

وقد جاء الميثاق أضعف من بروتوكول الاسكندرية فى تأكيد الروابط بين الدول الاعضاء بسبب كثرة التحفظات التى أبداها معظم المندوبين فلم يظهر الميثاق النص الوارد فى البروتوكول والقائل بأنه : لا يجوز فى أية حال اتباع سياسة خارجية تضر بسياسة جامعة الدول العربية أو أية دولة منها . كما حذف من البروتوكول النص على تدعيم الروابط بين الدول العربية فى المسقبل ، وحلت محله المادة التاسعة فى الميثاق التى تخول الدول الراغبة فى إقامة روابط أقوى أن تعقد ما تشاء من اتفاقات فيما بينها .

كما لو يحتوى الميثاق على نص يدعو إلى ضرورة اتخاذ موقف موحد فى الأمم المتحدة وأكدت المادة الخامسة من الميثاق أن نظر مجلس الجامعة فى الخلافات بين الدول الأعضاء اختياريا ولا يلزم إلا إذا اتفق الطرفان المتنازعات على قبول حكمه مقدما . ولم تنشأ محكمه عدل عربية ، ولم تؤكد الدول العربية على عرض المشكلات بينها على مجلس الجامعة . (١)

وهكذا ولدت جامعة الدول العربية التى هى جامعة للحكومات أو الدول وليست جامعة للشعوب ، وبذلك ورغم السلبيات التى عرضناها فأنها كانت تمثل الحد الأدنى الذى استطاع الحكام العرب الاتفاق عليه ، واذا كانت هناك سلبيات ، فان هناك إيجابيات تمثلت فى الوحدة الثقافية العربية ، ومحاولة أيجاد الوحدة الاقتصادية العربية إلى جانب قيام كثير من الأجهزة والمنظمات العربية مثل : الاتحاد العربى للمواصلات السلكية واللاسلكية ، والاتحاد العربى للنقل البحرى . . . الخ .

واذا كان لمصر الدور الرائد فى ظهور الجامعة العربية كشكل من أشكال الاتحاد العربى فان مصر استمرت فى اتجاهها العربى ، ولذلك شاركت فى كثير من التجارب الوحدوية الآتية :

---

(١) د . صلاح العقاد : المرجع السابق ص ٦١٥

١ - مشروع الوحدة السورية المصرية التى استمرت من فبراير ١٩٥٨ إلى سبتمبر ١٩٦١ م .
٢ - اتحاد الدول العربية المتحدة الذى ضم اليمن إلى جانب مصر وسوريا فى ٨ مارس ١٩٥٨ إلى ثورة اليمن فى سبتمبر ١٩٦٢ م .
٣ - مشروع الاتحاد المصرى العراقى السورى فى ١٧ أبريل ١٩٦٣ م ، ولكنه لم يتحقق بسبب إصدار البعثين فى العراق وسوريا على سيادة حزب البعث أمام رغبة عبد الناصر فى حل الأحزاب . .
٤ - ميثاق طرابلس عام ١٩٦٩ م بين مصر وليبيا والسودان ويهدف إلى التنسيق بين الأقطار الثلاثة فى المجالات المختلفة .
٥ - اتحاد الجمهوريات العربية الذى يضم كلا من مصر وليبيا وسوريا وهو اتحاد كونفدرالى استمر قائما من عام ١٩٧١ م إلى عام ١٩٧٨ م .

مصــادر الكتــاب

أولا : الوثائق :

- Foreign Relations of the U.S. Diplomatic papers, U.S. Government printing office, Washington, 1942 - 1946.

ثانيا : التقارير والدوريات :

١ ـ كرومر : تقرير عن المالية والادارة والحالة العمومية فى مصر والسودان سنة ١٩٠٣ رفعة الأيرال كرومر قنصل جنرال دولة انكلترا ووكيلها السياسى فى مصر الى جانب المركيز لسندون ناظر خراجيتها .

٢ ـ د . عبد الوهاب المسيرى : الايديولوجية الصهيونية . العددين ٦٠ ، ٦١ من سلسلة عالم المعرفة ١٩٨٣ م .

٣ ـ د . محمد محمود السروجى : الموقف الدولى والاحتلال الايطالى لطرابلس . مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية العدد ٢٢ لسنة ١٩٦٨ م .

٤ ـ M.Anis: The Development of British interest in Egypt in the 18 th Century, 1775 - 1798.
مجلة كلية الآداب جامعة عين شمس ١٩٥٥ م .

ثالثا : المصادر العربية

١ ـ ابن زنبل أحمد الرمال : آخرة المماليك فى مصر . القاهرة ب . ت

٢ ـ د. أحمد عزت عبد الكريم وآخرون : دراسات تاريخية فى النهضة العربية الحديثة القاهرة

٣ ـ د . أحمد مصطفى أبو حاكمة : تاريخ شرقى الجزيرة العربية فى العصور الحديثة القاهرة ١٩٦٨

٤ ـ د . السيد رجب حراز : التوسع الايطالى فى شرق أفريقية ، القاهرة ١٩٦٠

٥ ـ د . السيد رجب حراز : المدخل إلى تاريخ مصر الحديث ، القاهرة ١٩٧٠م

٦ ـ د . أنيس صايغ : الفكرة العربية فى مصر ، القاهرة ١٩٧٠

٧ ـ أحمد صدقى الدجانى : أحاديث عن تاريخ ليبيا فى القرنين ١٨ ، ١٩ طرابلس ١٩٦٥ م

٨ ـ ابن غلبون (أبو عبد الله محمد بن خليل غلبون) تاريخ طرابلس الغرب المسمى
التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار
عنى بنشره وتحقيقه الطاهر الزاوى القاهرة ١٣٤٩ هـ
٩ ـ أحمد النائب الأنصارى : المنهل العذب فى تاريخ طرابلس الغرب
جزآن ، الآستانة . ١٨٩٩ م
١٠ ـ الطاهر أحمد الزاوى : ولاة طرابلس من بداية الفتح العرى
الى نهاية الحكم التركى بيروت ١٩٧٠م
١١ ـ الطاهر أحمد الزاوى : معجم البلدان الليبية طرابلس ١٩٦٨ م
١٢ ـ د . جلال يحيى : التنافس الدولى فى شرق أفريقية . القاهرة ١٩٥٩
١٣ ـ د . جميل صليبا ، الاتجاهات الفكرية فى بلاد الشام وأثرها فى الأدب الحديث
القاهرة ١٩٥٨
١٤ ـ جورج كيرك تعريب عمر الاسكندرى : موجز تاريخ الشرق الأوسط
القاهرة ١٩٥٧
١٥ ـ د . حسن سليمان محمود : ليبيا بين الماضى والحاضر القاهرة ١٩٦٢ م
١٦ ـ د . حسين فوزى النجار ؛ الشرق العربى بين حربين القاهرة
١٧ ـ د . حسن صبرى الخولى : سياسة الاستعمار والصيونية تجاه
فلسطين فى النصف الأول من القرن العشرين القاهرة ١٩٧٠ م
١٨ ـ حافظ عوض : فتح مصر الحديث القاهرة
١٩ ـ خليفة المنتصر : ليبيا قبل المحنة وبعدها طرابلس ١٩٦٠ م
٢٠ ـ د . رأفت الشيخ : تطور التعليم فى ليبيا فى العصور الحديثة طرابلس ١٩٧٢ م
٢١ ـ د . رأفت الشيخ ود . محمود متولى : أفريقيا فى العلاقات
الدولية القاهرة ١٩٧٥ م
٢٢ ـ د . رأفت الشيخ : أمريكا والعلاقات الدولية القاهرة ١٩٧٩ م
٢٣ ـ د . رأفت الشيخ : العرب دراسات فى التاريخ الحديث والمعاصر
القاهرة ١٩٨٣ م
٢٤ ـ رفعت رمضان : على بك الكبير القاهرة ١٩٦٢ م
٢٥ ـ ريتشارد توللى ترجمة عمر الديراوى : عشر سنوات فى بلاط طرابلس ـ طرابلس
١٩٦١ م

٢٦ ـ رود لفوميكاكى تعريب ط فوزى : طرابلس الغرب تحت حكم أسرة القرمانلى . القاهرة ١٩٦١ م
٢٧ ـ د . زاهر رياض : شمال أفريقيا فى العصر الحديث القاهرة ١٩٦٧ م
٢٨ ـ ساطع الحصرى : البلاد العربية والدولة العثمانية بيروت ١٩٦٨ م
٢٩ ـ سليمان البارونى : صفحات خالدة من الجهاد . تحقيق زعيمة سليمان البارونى القاهرة ١٩٦٠ م
٣٠ ـ سردار بانيكار ترجمة عبد العزيز جاويد : آسيا والسيطرة الغربية القاهرة ١٩٦٢ م
٣١ ـ د . صلاح العقاد : المغرب العربى القاهرة ١٩٦٩ م
٣٢ ـ د . صلاح العقاد : تطور السياسة الفرنسية فى الجزائر القاهرة ١٩٥٩ م
٣٣ ـ د . صلاح العقاد : الجزائر المعاصرة القاهرة ١٩٦٤ م
٣٤ ـ د . صلاح العقاد : التيارات السياسية فى الخليج العربى القاهرة ١٩٧٤ م
٣٥ ـ د . صلاح العقاد : المشرق العربى المعاصر القاهرة ١٩٧٩ م
٣٦ ـ عبد الحميد الموافى : مصر فى جامعة الدول العربية القاهرة ١٩٨٣ م
٣٧ ـ عزيز سامح ترجمة عبد السلام أدهم : الأتراك العثمانيون فى أفريقيا الشمالية ١٩٦٩ م
٣٩ ـ د . عزة النص : أحوال السكان فى العالم العربى القاهرة ١٩٥٥ م
٤٠ ـ عبد الرحمن الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار القاهرة
٤١ ـ د . على أبراهيم عبده : المنافسة الدولية فى أعالى النيل القاهرة ١٩٥٨ م
٤٢ ـ كارل بروكلمان تعريب نبيه أمين ومنير البعلبكى : تاريخ الشعوب الاسلامية بيروت ١٩٦٥ م
٤٣ ـ مصطفى بعيو : دراسات فى التاريخ الليبى القاهرة ١٩٤٥ م
٤٤ ـ محمود الشنيطى : قضية ليبيا القاهرة ١٩٥١ م
٤٥ ـ محمد مصطفى بازامة : بداية المأساة أو التمهيد السياسى للاحتلال الايطالى بنغازى ١٩٦١ م
٤٦ . محمد فؤاد شكرى ؛ السنوسية دين ودولة القاهرة ١٩٤٨ م
٤٧ ـ د . محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان تاريخ وحدة وادى النيل فى القرن ١٩ القاهرة ١٩٥٧ م
٤٨ ـ د . محمد رفعت : تاريخ مصر السياسى فى الأزمنة الحديثة القاهرة ١٩٢٧ م

٤٩ - د . مكى شبيكة : السودان عبر القرون بيروت ١٩٦٤ م
٥٠ - د . محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربى القاهرة ١٩٦٥ م
٥١ - د . محم أنيس : ود . السيد حراز : الشرق العربى فى التاريخ الحديث والمعاصر القاهرة ١٩٦٧ م
٥٢ - محمود الشرقاوى : مصر فى القرن الثامن عشر ٣ أجزاء القاهرة ١٩٥٧
٥٣ - د . محمد أنيس : أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة ٣ أجزاء القاهرة ١٩٦٩ م
٥٤ - د . محمد مصطفى صفوت : الاحتلال البريطانى لمصر وموقف الدول الكبرى ازاءه القاهرة ١٩٥٢ م
٥٥ - د . محمد صوفت : مؤتمر برلين ١٨٧٨ وأثره فى البلاد العربية القاهرة ١٩٥٧ م
٥٦ - د . محمد محمود السروجى : العلاقات التونسية الفرنسية من الحماية الى الاستقلال الاسكندرية
٥٧ - د . محمد صبرى : الامبراطورية السودانية فى القرن التاسع عشر ١٩٤٨ م
٥٨ - د . نقولا زيادة : ليبيا من الاحتلال الايطالى الى الاستقلال القاهرة ١٩٥٨ م

د . عبد العزيز سليمان نوار * تاريخ العراق الحديث (١٨٣٠ - ١٨٧٢) ، الدار القومية للطباعة والنشر ١٩٦٨ .
* داود باشا والى بغداد ، الدار القومية للطباعة والنشر ١٩٦٨ .
* المصالح البريطانية فى أنهار العراق ، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٨ .
* مصر والعراق ، مكتبة الانجلو المصرية ١٩٦٨ .
* العلاقات العراقية الايرانية ، دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٧٣ .
* تاريخ العرب الحديث ، الجزء الأول ، الجهاز المركزى للكتب الجامعية ، القاهرة ١٩٧٦ .
* تاريخ لبنان الحديث ، مكتبة سعيد رأفت .

* محاضرات فى تاريخ فلسطين ، مكتبة سعيد رأفت .
* تاريخ مصر الاجتماعى ، مكتبة سعيد رأفت القاهرة ١٩٨٣ .
* الشعوب الاسلامية فى التاريخ الحديث (الاتراك العثمانيون الفرس - مسلمو الهند) ، مكتبة سعيد رأفت ، ١٩٨٣
* التاريخ المعاصر ، أوروبا

من الحرب البروسية الى الحرب العالمية الثانية ١٨٧١ - ١٩٤٥ ، الجهاز المركزى للكتب الجامعية القاهرة ١٩٧٧ .

رابعا : المصـــادر الأجنبيـــة

1- Anis, M. : England and the Suez - Route in the 18th, Century.
2- Coupland, R. : Exploitation of East Africa 1856 - 1890. London 1939.
3- Fisher, S. : The Middle east, Ahistory,. 1973.
4- Lenezowski, G. : The Middle East in World Affairs, 3 rd ed 1971.
5- Polk W. : The U.S. and the Arab world. 1965.
6- The American Assembly: the united States and the Middle East, 1964.

محتويات الكتاب

مقاس الكتاب	١٧ X ٢٤
ألوان الغلاف	٢ لون وجه واحد
ألوان المتن	لون واحد
عدد الصفحات	٢٣٦صفحة
عدد الملازم	$\frac{١}{٢}$ ٢٩ملزمة $\frac{١}{٤}$ ٧٠ ٪
التجليد	سلك جانبى
رقم الإيداع	٤٠٤٧ / ١٩٨٨

دار ميرا للطباعة - عين شمس - القاهرة